رواية

هاني الراهب

شرخ في تاريخ طويل



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الدكتور هاني الراهب

شرخ في تاريخ طويل

(رواية)

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً : موكيالي ، بيروت
ص . ب . ٥٤٦٠/١١ بيروت

الطبعة الثانية

حزيران (يونيو) ١٩٧٩

الفصل الأول

- ١ -

الليل وسكون المدينة . يتقلب الليل على اسفلت الشارع ، وتشحب أضواء المصابيح الموازية لغرفتي : ويعلو تنفس مسعود هادئاً قرب النافذة الأخرى . من بعيد تتصاعد قرقعة اغلاق الحانوت الأخير ، وينبثق زمور سيارة مسرعة . مسعود يكور اللحاف عند ساقيه بخبطتين أو ثلاث . انه لم ينم منذ يومين – منذ رجعنا من الجنازة . غاب ، واعتقد أنه كان يكرع أقداح العرق . في الحادية عشرة من هذا الليل وجدته ملقى على السرير . كان يهرف . إذا أردت النوم علي أن استلقي على الشرفة ، فالسرير لا يتسع لاثنين ، أحدهما ثمل .

لم يعد الليل جميلاً ولا محدثاً ناعماً . فوق المدينة يهيمن الآن نافذاً إلى أعماق العين ، ومهمداً صورة النهار الصاخبة المحنقة . يتسرب في الأذن فيعريها من غلائف الطنين ، يدوي في الأذن . وليس ثمة ما يسمع بعد . الحكايا ، السمر ، حياتنا ، خيباتنا ، أشعار مجد : تتصنف الآن في ألبوم الذكرى لتصبح

مضغة الذهن بعد قليل . بعد شهرين سأحمل حقائبي إلى بلدة نائية في سورية لأصبح مدرساً .

« وكما يقال فقد انتهى أمر تافه » . في جسم الليل الكثيف تدوّم دوائر متعاظمة كأنها تبتلع كل العنفوان الذي في العالم ثم تستقر على الأفق فوق بركة لا حدود لها . وفي هذه الأيام يخلد متعثّر مثلي إلى ألبومه ويقلب صفحاته . ثمة شهران أو ثلاثة ثم ينتهي الصيف . ولعلّي انتهي من تقليبه . انه زادي الذي هيأته بالأعصاب والاندفاع والخيبة . وهو سوف يرافقني في أيما رحلة أضطر إليها . سوف أذكر أيضاً انه الشيء الوحيد الذي حصدته من المدينة فيما حصدت هي كل شيء . أصدقاؤه ، أخيلته ، تغلغل وراء مسافات الذاكرة . بين الحين والحين تعبر حادثة أو تمثل صورة فأكف عن الكتابة لأتمعن في براءة تلك الأيام المهجورة وفي عنفوانها المزوق . الملاذ . الأيام الحبالى أبداً بفكرة الملاذ . الأصدقاء والاجتماع والزمن وسكون الليل ، والتعب والحب والخيبة : كلها تبحث عن ملاذ . ماذا يفعل الإنسان بعد أن ينهار جدار الله في نفسه ؟ ان البحث عن ملاذ هو لوحة الألبوم الأولى .

ذات ليل استيقظت من حلم موئس شديد التحدي . فتلمست الجسم المسترخي على الفراش . لم أستطع أن أتذكر الحلم . وبعد سهو مديد أغفيت ورأيته ثانية : غرفة لها شباك زجاجي عريض مقفل . وقف أمامنا شاب مكتمل ، مولياً ظهره متأبطاً يديه . مكباً نحو الشباك . وسألتني هي « ماذا

يقول هذا؟ » فاقترب فمي من نصف شفتها العليا . تمنمت ما قال فقبّل فمي نصف شفتها الأيمن ذاك وبعض وجهها في مسة خفيفة غضة : مطلقة التوتر والشعور . كان النـــاس أمامنا . . ويخيل إلي أنهم كانوا يرقصون في مكان منخفض من الغرفة ومضيء ويعرفون أنها مطلّقة.. غير أننا لم نكن نرقص . ولم يكن أحد يرانا . . وتألقت هي أمامي بريعان شبابها وانتصاب ثلاثة وعشرين عاماً في قامتها ، بلحمها الصلب وصباها الوعر . كنت جاثياً . . ولكن كل شيء هرب فجأة . . تبدد . . انطلقت هي في فراغ لا حدود له ولا وطن . . ابتعدت وادلهم الظلام وشعرت أني مجزوء وعلمت أني سأموت .

أفقت آنئذ ، وفي السديم ما بين النوم واليقظة تبينت أني شاهدت الحلم . قلت لنفسي ما أسخف هذا . ونظرت إلى المرأة مستلقية في ضوء النواسة البرتقالي منفوخة الشفتين . تذكرت أمي وتذكرت أشياء كثيرة . وفي الجو الداكن للغرفة الطينية الحقيرة أحسست أن صدري قد فرغ من أحشائه بما فيها الأضلاع . وسقط الليل في نفسي فطرد كل منافسيه . بقي هناك جسم المرأة ملفوفاً بالثوب السماوي الشفاف . وفي تعالي الفورة الجنسية السميكة كان الحلم والمطلقة التي أحببت ، وأمي العنيفة الطباع ، يدفعونني اليها . ربما ليطردوا الليل ، ربما ليعيدوا لي أحشاء صدري ، ربما ليمكنوني من الكذب

عليهم بتمثال لمجدلية ما اصطحبه معي في الرحلات الطوال . ربما . ربما .

في الصباح لم أجدها . وقلت لنفسي لا بد أنها انسلّت قبيل صلاة الفجر ، وهكذا تكتفت بالمنشفة ونزلت درجات السلم إلى المطبخ . هناك كانت هي ، تجثو حول طست واسع وتغسل خرق الصغار من أبناء زوجها . ودعكت ما بين يديها من ثياب دعكاً أصابني برشيش الماء .

يؤمئ مسعود على السرير ويتحرك أشبه بكتلة رصاصية . ولعل حركته السكرى الموهنة هي الاحتجاج الوحيد الذي يتردد في قاب الليل . ضوء مصباح الشارع يسقط على وجهه أبيض ميتاً رصيناً . عند الصدغين وفوق الجبين تلمع حبيبات العرق ، وعلى الزاوية اليمنى للشفتين تنفجر مع كل تنفس فقاعة صغيرة .

منذ عام تقريباً دخلت غرفتي في الثالثة من صباح يوم جمعة فوجدته ملقى على سريري . كان مثله الآن مسجى متمدداً ، سدارته على الأرض وبطحته على الطاولة ، وتلك كانت أول مرة أراه فيها بعد غياب عامين . ترقرق في صدري حب قديم ، وتنهدت إذ كنت متعباً . فكرت أن أرشف قليلاً من العرق ، إلا أني وجدت البطحة فارغة . وجدت أيضاً دفتر المذكرات مفتوحاً ، وكذلك القلم فوقه . كانت بضعة أوراق قد انقلبت فوق القلم بفعل الريح . ولما أزحتها رأيت الكلمات

التي كتبها :

« لقد ذكرتني غرفتك بأيام الصبا القديمة . . أيام كنا نلتقي عند « بيدر الشفشاف » وتحت ذيل متواشج من غابة السنديان والبلوط والعرعار على غير موعد وغير انتظار . . لقد كان أثناءها محتوماً علينا أن نبقى معاً . . سواء عندما تشرق الشمس ويتهادى منها شعاع لعوب من فرجة في الغاب . . ثم يرف واطئاً على خد نرجسة فينهزم فيها عنقود من الندى المعطار . . أو عندما يتواثب القمر من وراء ارتفاع الجبال الغبشة يسارق الخطو وتتبعه خجلة أسراب النجوم كأنها الفراشات في موسم شقائق النعمان . . لم نكن نعبأ بأهمية الزمن . . وكان ينام الناس ويذبل القمر . . وتنق الضفادع الهزيلة . . ويغفو الغبار . . وتتثاءب نسيمات مخملية في طريقها نحو الشرق . . وتحتضننا خيمة ما . . بعد سهر طويل . . .

كانت روعة تلك الأيام تحتمي ببراءتها » .

وقفت أتأمله ، رأسه يستلقي على الوسادة مفتوح الفم : وسكون المدينة يتكاثف في الليل حتى توهمت أن صورة الأشياء قد شفت إلى درجة عجيبة . وبهدوء رميت ثيابي على الكرسي محاذراً ألا أوقظه . ونفسي تنفعل بفرحة كضباب الفجر عندما يطل من فوق الغوطة الشرقية . وإذ استلقيت إلى جانبه بعد قليل ، اتكأت على مرفقي وجعلت أتأمله باسماً .

أخيراً رفع رأسه . فتح عيناً واحدة ، فتأملني لعدة ثوان ثم قال
– غداً أسلم عليك .
وأسقط رأسه على الوسادة ببراءة نهائية .
وجاء اليوم التالي :

في الجو الخريفي الأصهب لغرفتي لم يكن أمامنا سوى الخمر . وعند الثمل فقط استطعنا أن نكون طبيعيين ، هوى عن ضميرنا حضور الماضي الكثيف ولم يعد لزاماً علينا أن نتصرف لنؤكد استمرار متانته القديمة . وإذا انطلقنا من تحت قوس « أبي تمام » في الشارع الرئيسي ، رحنا نقرأ عناوين الصحف بتعليقات مبتسرة : نتلمظ لرؤية النساء ، ونتحاشى الاصطدام بالمارة ، ونجد أي شيء سوى واحد من أحاديث الأيام التي كانت روعتها « تحتمي ببراءتها » كما كتب هو . لقد صار تكرار الحديث عنه أشبه بارتداء القميص على وجهه الثاني بعد أن اتسخ الأول .

جلسنا في المقهى إلى منضدة وصففنا الحجارة . وشيئاً فشيئاً أخذ يتلاشى حضور العالم الخارجي ، وتجعدت أمام أعيننا المثلثات الأربعة والعشرون وتحت حبتي النرد المتدحرجتين عند حدود الضجة المنتفخة على طاولتنا نهض سور حول الذهن والجسم لا يعيش داخله ولا يتحرك غير حجارة بيض وسود . أصابتني الخيبة لفشلي في اللعب فقمعتها فتحولت إلى خمول. ألقيت مرفقي على الطاولة . واستندت مرسلاً هنا وهناك

عينين محقونتين بالضجر . حبتا النرد تحيزتا ضدي باستمرار . صرت أرميهما بتثاقل واسمع إلى مسعود وهو يتابع قصصه فلا أستطيع إلا أن أصغي له وأستوضحه . وشعرت بالتعب من الكرسي . وآلمني مرفقي فسحبته . واضطررت للجلوس معتمداً على نفسي فتعبت . (كان ذلك بسبب ضيق نفسي من تلك الجلسة ؟) لحظت أن مسعوداً يتلاعب بالنرد ــ احدى العادات التي اكتسبها وهو في الجيش ــ ولم أستطع أن أهزمه . وإذا انتهت الخمسية الأخيرة لصالحي ، تمطيت وتأوهت ، ثم نظرت إلى الساعة بحركة تلقائية. كان قد حل المساء وعاد وجود المقهى والشارع والمدينة ينفث في الأعصاب ريحه .

على طول الشارع الملتحي بالأشجار تشردت عيناي بلا هدف . نظر مسعود إلى ساعته وهتف مرفوع الحاجب « أكثر من أربع ساعات ! مدة طويلة ! » ونظرت إليه بجمود . شدد أعضاءه كل منا كأننا متنا طوال شهر . وقال بهدوء « تبدو حزيناً ، لفراقي يا ترى ؟ » وضحك طويلاً ، وسقط على وجهه الأسمر شعاع أبيض من نيون الشارع فبدا أنفه شبيهاً بنصل معلواة . وبغتة هتف « هوذا الباص. لقد تأخرت ويجب أن أذهب . » وصافحني متعجلاً ، وعدا فالتف حول الباص واندفع في جوفه . وفي ثوان علت شخرة وسط كتلة دخان متطاولة وسار الباص في الشارع . كان هو جالساً وقد ركن إلى مقعده شارد الوجه والعينين .

لقد حدث كل ذلك بهدوء وصمت ، ولم تختلج الحياة بأيما تغير .

ويبقى الليل مادة للتذكير والقلق . ويبقى الصمت الذي يهمي من السماء على الأرض يوحي بأن في السماء سكينة مدينة دمرتها الغارات .

في دمشق لا توجد جدران ولا رمال . ثمة مجد وسزي ولبنى ومسعود ، بعض لعاب العنكبوت القليل الأهمية . خيوط لا يميزها شيء تطفو على فوهة دمشق طوال ملايين السنين .

لابد أن يقال يوماً أن مجداً ابن الأرض التي لم يطأها قضاة . الوجه الآخر (لطرفة) يوم رحل إلى الشاطىء السعيد حاملاً كتاب موته . لم يسمع صوته أحداً ، ولا استطاع أن يغير حتى مصيره الشخصي . إلا أنه حاول أن يثقب العالم . أطل على الدنيا من إحدى بقاع فلسطين مسلحاً بعينين حمراوين تعشقان الليل والغيظ والحمى . هو وأخته ، ابنا مدينة لم تكن عام ١٩٤٨ أكثر من (لوليتا) اغتصبها أدعياء سليمان الحكيم بضربة واحدة . ويومئذ تمزق غشاء العنكبوت الرقيق ففاحت من يافا رائحة الكهف النتنة التي حملها الشقيقان إلى دمشق . طارت القبّرة . وخرج المسافران نحو مدينة غير منوّرة لم يعرفا فيها إلا الليل . مجد هو الليل ، هو الشارع الطويل المقفر

أنسى ولوقت طويل أن تأملي لوجوههم المهمومة ليس مضيعة للزمن .

وتتحرك لبنى شامخة القامة كقصبة نهرية ، وتدير رأسها نحو مكان ما فلا يبين الوجه . وتتهادى سوزي حاملة كتبها فوق نهدها متقدمة من مدخل الجامعة حيث يبدأ العالم . وأما مجد فيقفز فوق المدينة هارباً من واجهتها المبهورة ، ويتبادل نخباً خاطفاً مع مسعود الذي ينظر إليه ثم يلتفت نحوي فيجلس ليبادلني نخباً آخر منتظراً بين لحظة وأخرى أن يرفع إلى رتبة أعلى .

دائرة لا تظهر أمام عينيك ولا تلمس . تحس بأصابعها الغازية تمتد وراء ظهرك وتسحب بساط الزمن . وتقف أنت هناك لا ملتفتاً إلى الوراء ولا ناظراً إلى أمام فأنت هارب من الضجر وكاره أن تموت . الماضي ، الحمل الثقيل الذي لا تعرف أين تطرحه . الأم التي تسربت إلى كل خلية فمهرتها بوجودها . والأب الذي لم يكن حاضراً قط . كان أبي أخرس . ولقد تزوج والد مجد ثلاث مرات ، ومثل ابي مات أبو مسعود قبل أن يحس مسعود بوجوده . الماضي حجارة في خرائب النفس مرمية هنا وهناك ولا تزحزح .

في الساعة الثالثة ليلاً . الحمارة المتروكة وراء قدمين لم تتعبا . العنكبوت . أوراق التقويم . دقات أرجل الساعة ــ الدبيب الرهيب لأرجل لا تقهر يطوي صفحات التاريخ مثبتاً في الأفق الأغبر آلاف العيون الجامدة . طارت القبرة . وأضاع علي بابا جملة « افتح يا سمسم . » وسد إلى الأبد باب كنز الشرق العريق الذي لا كنز مثله .

مجد الذي لم يغنِّ إلا قليلاً . أغنية المسافر الحزين ، تشتت فيما تحاول أن تدمر العالم . كان أصدق منا جميعاً وأكثر يأساً وشجاعة .

الضوء المدائي ، أثمن ما أحبت نفسه ، يضيء الآن وجهه الأصفر في عتمات القبر وجلاميد التربة الصلاب . ويهجم هو مترنحاً على كل شيء فيبدد نفسه . تبدد داخل الشقوق التي لا تحصى في مدينة دمشق خلال بحثه المصر عن الأجواف اللاهبة . وظن أنه حمل على كاهليه جلال العالم والأمـة العربية . وهيأ نفسه لأن يولد فيها شيء يعيد القبرة ويجلي العنكبوت عن جميع الأبواب . ثم اكتشف الثلث العضوي الذي أرسله إلى حجارة القبر .

الآن فقط ــ ولم يعد ممكناً أن التقي بأي منهم ــ أرى أني أحبهم . في هذه الآونة يجلس الجميع حولي مغمورين بلحظاتهم العابرة وأقول لنفسي هؤلاء من أحب . أستطيع أن أشعر بهم ثانية ثانية : وأن أبقيهم حولي يوماً فيوماً . أستطيع أيضاً أن

— ٢ —

تلك الليالي التي تنضح فيها الأرض مخزونها من دفء الصيف لتطلقه بوجه البرد القادم ، حين يعتكر المساء بريح الصبا ويتقلب على أديم الفضاء وهج الشبق والمدينة ، وتتعالى همهمة لا تفتر إلا عندما تمتصها عروق الليل وراء كل النوافذ المغلقة في العالم . وقت تطفو مشاعر الذين فقدوا طعم الحياة وتخب الأقدام في دمشق مغلولة بغربتها ، ويجوس النسيم القادم من فوق الغوطة الشرقية في الحديقة فتختلج الأغصان العارية وتطرف وريقات العساليج الهرمات ، وتتلفلف على طياتها تنورة قاتمة الزرقة حول ساقين متسقتين ، لتندفع بعبث الهواء نحو الأعلى وتسبب ذعراً . ومن بعيد ، امتدت يدا سزي فاستكانت التنورة ، ثم استكان الهواء .

في المساءات التي جمعتنا حول الحديقة ، كانت تحدثني عن علاقاتها النسوية ، وعن دار الطالبات العالية الجدران . أما أنا فكنت أغازلها أبداً . أجواء محرورة لذيذة مرحة ، وتدفق حار ملجم ينبثق اثر حركة أو عبارة . قناة اسطوانية

طويلة . ينفتح فيها قوس بحوالي ربع الدائرة ممتداً حتى النهاية ، يتلاعب داخلها الماء بوداعة ووضوح . كل شيء في العالم على ما يرام . الماء يأخذ لوناً أحياناً ، ولكن عابراً . ألوان زرقاء ورمادية وبيضاء بحسب ما يكون الصفاء أو الإعتكار أو الإثارة . مرة حدّثت عن فنان مات في الستين من عمره ، وقلت لها بلا مبالاة أن ستين عاماً من جلد الزمن رقم لا بأس به . فأجفلت وأمضت دقائق وهي تقنعني بأن العمر المناسب خمس وسبعون . وأن ستين عمر قصير جداً : بل ومحزن جداً . وانه لن يطمئن الإنسان ما لم يعش خمساً وسبعين . وقد نظرت إليها بامعان واستغراب وقلت «لعل أحداً تحبينه له مثل هذا العمر؟» فضحكت وأشارت إلى خيالي الواسع ثم ذكرت والدها . قالت إنه مريض بمرض بسيط متقطع لا يعرف الأطباء علاجه .

ولم نكن نجتمع إلا حول الحديقة. وقد فسرت لي السبب ذات مساء ــ وكان فستانها القمحي يلتصق بحنو وقوة في الأعلى ، ويتكور شبيهاً بالمنطاد في الأسفل ــ قالت اننا لو جلسنا في النادي سيقول الناس اننا نُحب بعضنا البعض ، فهناك لا يجلس غير ذوي النوايا الباطنية . أما المقصف حيث يجلسون إلى طاولات متلاصقة تقريباً ومكتظة بالرواد ، فسيؤدي إلى شجار مع أبيها الذي تحبه كثيراً . أما حول الحديقة فالأمر يختلف : اننا ما دمنا تحت بصر كل طالب في الجامعة فهذا

لا يعني أن بيننا شيئاً سرياً . (بالطبع أن الحب أكثر الأشياء سرّية) . وأضافت ضاحكة :

– كلما كبر البالون كلما ألجم السنة الناس .

ولكي تتم الفصول بنجاح كانت تعمد – وعلمت هذا متأخراً – إلى الطواف حول الحديقة مع شباب آخرين مجازفة ، وأحياناً غير مبالية ، بشعوري بالغيظ ، لا غيرة ولكن رفضاً للتمثيلية كلها .

لون تنورتها البنفسجي يندغم في شفافية الظلام فلا يبين إلا لماماً . سقطت عليه من فرجة في الشجرة بقعة من ضوء المصباح فظهرت عروق الألوان وتمايلت أمام ضربات الركبتين . لوحة طائشة الألوان توحي بأكثر من اللازم . مثل هذه الثواني العابرة كان كثيراً ، وفي مدى المخيلة أقرب إلى الرؤى . وبالتأكيد فان سزي شيء من الروعة . انها شيء لتحلم به لا لتخبر عنه . وقد وقفت هذه الميزة طويلاً أمام تدخل العقل. حتى أني لم أسألها بالمرة ما الذي أخافها من شيء لم يقع . ولم أهاجم أبداً هذه الحبكة اللصوصية التي اتبعتها، إلى أن شعرت بالاطمئنان – كان هذا قبل تسعة عشر شهراً – من تشكل ينبوع من العاطفة غطى على خميرة الحب الجافة الراكدة في قرارتي التي خلفتها آخر من أحببت وراءها بلا ذكريات ، وهي مطامة لم أعد أراها إلا في أحلام النوم .

عند ذاك صارت تضايقني ، إلا أنها لم تعكر اطمئناني .

سألتني يوماً لماذا «أبرم بوزي» فقلت لها ان الضريبة التي ندفعها لقاء هذه الدورات حول الحديقة لا معنى لها ، كما أنها تثير الغيظ . وابتسمت شفتاها الرقيقتان كأنما تتلمظان على طعم المغامرة . لقد كانت ترى ذلك مغامرة فائقة العذوبة. وقلت محتداً : إني أشعر أن السرور الذي يتوالد بي لدى اجتماعنا سرور مسروق كأنما لا حق لنا به . وفسرت هي ذلك بأنني معقد نفسياً ، وقالت ما لم نشعر بهذا الاغتصاب وهذه السرقة لا يكون اللقاء لذيذاً .

ولكن كل شيء تطور — كالعادة — فصرنا نتخذ كرسيين حول طاولة نائية في المطعم . ونأتي تلك الزاوية منذ الصباح فنبقى حتى ابتداء الأكل . ثم نعود بعد العصر فنبقى حتى انقطاع الضوء : نحمل كتباً نقرؤها ، وأحياناً دفاتر نكتب عليها . انما من تراه يستطيع أن يتذكر كل تلك الحكايا المنسية التي نسجتها شفاهنا . آه يا سزي ما كان أحلى ذلك وآمنه . ولكن أية جرثومة تلك التي تعبث بالقلب البشري !

قالت مرة لا تجيد صنع طبخة واحدة . وضحكنا معاً . سألتها كيف تعد نفسها لوظيفة زوجة ، فأغضت بابتسام ، ثم رفعت رأسها وقالت :

— سأضع خدامة . . أعني واحدة تطبخ .

— ولكني اشتراكي ، ولا أقبل بهذا .

– ولكن لماذا لا يكون الطبخ مهنة ، مثل التدريس مثلاً ؟ ألا يمكن للاشتراكية أن تقبل بهذا ؟

– لا تستطيع المبادىء والنظم أن تغير الطبيعة البشرية . بالطبع لا يمكن للاشتراكية أن تسع النفسية التي تأبى إلا الحط من هذه المهنة النبيلة . على أية حال يمكن للأزواج العصريين أن يأكلوا في المطاعم !

– يا عيني عليك !

وبالطبع فقد رفضت هذا . إذا ملأت المطاعم معدة الزوج سرقته . بيت الزوجية أولاً ، وبعدئذ الطوفان ، وإلا فكيف نشعر بالطمأنينة . بيت الزوجية؛ ثم أي شيء آخر : الأدب ، الثقافة ، التمثيل ، الرحلات ، النوادي ، كل شيء .

تأملتهامرة وهي تكب فوقالكتابوتقرأ لكلينا بصوتها الحنون النحيل ،وأنا أتميز حيرة بسبب جرس دخيل على صوتها ، مثير لما هو أبعد من الحنان . تمنيت أن أقبلها في تلك اللحظة . وارتفع جفناها فجأة كأنها أدركت بحس سماوي أنني في انصبابي على الطاولة لا أصغي بل أتأملها . وبنوع من الإدراك العاطف ، المشوب بطريقة خاصة في التعبير تقصدتها ، نظرت إلى قمة رأسها ثم إلى جبينها العالي المتوج بهالة سوداء من الشعر . وعندما انتقلت عيناي إلى وجهها راح لونه يغيض بسرعة . كانت تعجز عن اخفاء مشاعرها الخاصة. ومثل هذا العجز أراحنا سوية . بل ولعل الارتياح الناجم عنه

كان يدفع إلى مزيد من حدة المشاعر . ذلك أني حينما بدأت أتأمل عينيها بعد ذاك، رفعت هي جفنيها راغمة وتظرت إلي . وبعد قليل طأطأت وقد لمع الجفنان بالدمع .

هتفت بها باهتمام مغال : يا إلهي ! سزي ، ماذا جرى ؟

فالتفتت نحو الجدار وقالت : أبي مريض .

قلت : حتى أنه يبكيك ؟

— كلا. ولكنه مريض .

في لحظات كهذه — وهي بسبب روعتها نادرة — تركن سزي إلى الجدار مطرقة صامتة ، مثل غصن بلله المطر . وأقف أنا صامتاً أيضاً مدركاً أنني لن أستطيع غير الارتباك بتدخلي .

بعد الامتحان التقينا وصرنا ندور . فتني صدرها وقد حزمته قميصة بيضاء وشعرها الأسود الذي اتخذ شكل القوقعة . قلت لها مداعباً :

— يبدو أن الفحص قد هرس أعصابك فان شعرك منفوش.

فهزت رأسها تغالب النرفزة بالضحك :

— اوو . . ألست ترى أني خارجة من عند الكوافور ؟

— الكوافور ! لا بد وأنه نسي هذه الخصلة حول الصدغ .

— يا إلهي يا أسيان . هذه عقدة التسريحة !

وسريعاً ما خلفت لها النرفزة شعوراً مغتبطاً بالاحتياز : ان لديها عالماً كاملاً تدخره ، تعرفه جيداً وأجهله جيداً . ملكها الخاص الذي تنبع منه تصوراتها واحتدام عواطفها وثيابها الزاهية . وهو الذي بعد كل شيء جعلها تقول لي في مناسبة ما ان الحب مكافأة العاشق لحبيبه ! ولم تمر الجملة بسلام . إذ نظرت ملياً في وجهها الشاحب كالغسق حتى اضطربت ورفرف جفناها الغزيران . قلت اننا يجب أن نكف عن أسلوب المقايضة هذا ، فالحب ليس تعويضاً انما هو حصيلة للحياة تتكامل كلما ازدادت خبرتنا . وبلعت ريقها بحزن وقالت ان هذا هو فأر «ثورندايك» وليس نحن . ولما قلت أن شيئاً دائماً نكتسبه ولو بطريقة الفأر خير من اعتبارات عاطفية سريعة التداعي ، صاحت تهاجمني دون أن أفهم ماذا تقول تماماً . راحت تنثر الكلمات وتحرك ذراعها حركات نصف دائرية أمام صدرها . وجعلت أضحك فذاب الحماس في الضحك .

قلت : أنت سريعة الغضب .

فلهثت باسمة : كلا . أنت سريع الإثارة .

بعد هنيهة بدلت منحى الحديث :

ـ هذا لأنك متهيجة أحلى .

ـ لا أحلى ولا شيء .

– بلى . إذا ارتعش جفناك وتوردت الوجنتان البيضاوان تغيرت اللوحة قليلاً . أنت مثل اللوحة ألوانك لا تتغير ...

إلا أنها ما لبثت أن قالت :

– أليس الأفضل أن تكون مستقراً ؟ ان طبيعة الحياة ضد طبيعة الانسان . الأولى متغيرة والثانية ثابتة . ولا يعقل أن يعيش الإنسان بطريقة الحياة !

كان الغسق قد أمسى يسمح لمصابيح الحديقة بتوزيع الضوء على وجهها الوديع وبدت كتمثال من الشمع في بقعة منيرة .

قلت :– إن طبيعة الإنسان تريد ثباتاً جديداً في هذا العصر ، إذا رضي لها العقل بأي ثبات .

قالت مغضبة وكأنها ليست ما تقول : لماذا يشوش عقلك حياتك ! طيب نحن متحرران ، كلانا . ما الذي يتعبك أنت من وراء ذلك ؟

قلت : سنرى أي المعاني يمكن لرفضك أن يكسب سلوكك الشخصي .

وبقيت أذكر الجملة وانعكاساتها في بؤبؤي سزي حتى بعد ان غادرتني بزمن طويل .

من بعيد تبدو . انها في وسط الشرفة الواسعة تجلس على كرسي وتطأطىء برأسها ، ويتحرك ذراعها الجيد العاري .

ويلتفت وجهها الأملس كجلد سمكة ، وربما اهتز جسمها الأنيق . امرأة في بيت . وبيت مليء بالأشياء الصغيرة ، واطمئنان يعرو ويدفع الزمن دفعاً متسرقاً . بيت وأشياء وزمن مطمئن . شعر قصير مسرّح وعنق ناعم طويل وثوب بسيط ينفرش على تناسق جسمها . امرأة تسكن بيتاً ، تبدو من الشرفة فتثير الحنين ، تتحرك فيهتز الصبا . إلى متى ينام المتعب في الفنادق والغرف الحقيرة أو يعيش سارياً فوق الشارع يتأمل كلما خطا شباكاً ينفتح على بيت ، ويحاول أن يسبر غوراً في التقاء الجدران . يتأمل النوافذ المغلقة والمفتوحة ويخال امرأة تتحرك في البيت ، ترتب البيت ، تفتح الراديو ، تبتسم ، تقطب ، تنفخ ، تحمل بيدها غرضاً . وأجلس أنا في مكان ما من البيت سعيداً .

انطلقت إلى محل للطرائف فابتعت زجاجة عطر كبيرة . تعشيت بنصف ما معي من نقود . وعندما هممت باتخاذ طريقي إلى غرفتي لقيني أحد معارفي وقال ان أخي يبحث عني وأنه يجب أن يراني فقد يسافر إلى القاهرة بطريق البحر . وهكذا أمضيت ساعتين أدرج على الشارع بحثاً عنه ، ولكن دون جدوى . وأخيراً فكرت بالعودة إلى غرفتي ، لعلني أهذب من فوضاها ، أو أخفي على الأقل الاثنتين والثلاثين زجاجة . وعنفت نفسي لتباطئي في بيع الزجاجات . ثم تذكرت أنه لا بد قد جاء إلى الغرفة وأصابني بعض الارتياح : لقد جاء

ورأى كل شيء .

تحسست زجاجة العطر قبل أن أرقى الدرج وأمسكت بها جيداً . وتناهى إلى أذني جلبة الصغار ، وصوت أبيهم المبلل بالنعاس . وقفت لأتنفس وأصغي . أدركتني فوزية من وراء السلم الخشبي حاملة كوباً من الماء وقالت :

ــ جاء أخوك جارنا . وهو يقول لك يجب أن يراك قبل أن يسافر .

ضربتها على كشحها بالزجاجة ، فارتج الشيئان . التفتت هي إليها ، فابتسمت اذ اختطفتها ، ثم ترجرجت نحو البيت . أمام غرفتي وقفت والسكون عجيب وليالي أيلول اللمياء تلمس الجبين لصيف منطفيء وتنتشر على الجلد فتفعم بالدفء والبرودة كل سم فيه . يعبر الزمن هناك كماء في خرطوم بلاستيكي . ضجة الشوارع هدأت ، وشيء كفقاعات البيرة يخترق الرأس متجهاً نحو الأعلى . والخرطوم يتطاول فيغدو منظراً لتتفرج عليه لا لتشتكي منه . انه يطوي المدينة بمروره السحري ، مزروعاً بالليل والمصابيح . وأنت هناك تنظر اليه ناسياً للحظة عابرة أنه يخترقك أيضاً .

مضى ثلث ساعة ووجهي يطل من النافذة . وبعد ذلك أقبلت فوزية . ثوب النوم الفستقي . الوجه المضرج بالنعاس . جسد في الثالثة والثلاثين . عينان تخدرتا وانتظرتا .

— ٣ —

في التاسعة صباحاً دخلت الجامعة . يومذاك كانت الخلية قليلة النحل . الذين ظلوا من أمثالي هم أولئك المفصولون عن كل مكان آخر ، ولا وجهة لهم سوى تلك الخلية العائمة .

قالت لي سزي بعد أن تبادلنا التحية :

— كدت أذهب ، لماذا تطيل النوم هكذا ؟

قلت : — هذه تهمة جميلة : أنا الفلاح وأنت البورجوازية. لماذا ؟

فابتسمت وأردفت : ألم تعدني بأن تحضر لي « قصة مدينتين » بالعربية ؟

فتغضن جبيني قليلاً ، فيما أمالت رأسها إلى اليسار ورفعت عينيها مسرورة بأنها تدينني الآن .

— أجل ، لقد . . . تحدثنا عن هذا سابقاً . ولكن لم أعرف أنك آتية هذا الصباح .

– اسمع : بعد الظهر ، قبيل المغيب ، نذهب فأدلك على بيت أختي ، سأسكن هناك ثم أذهب إلى اللاذقية . . .

– نلتقي هناك إذن !

– أنت ذاهب ؟ يا للمصيبة . إياك أن تحدثني هناك وإلا حرقت . . سمعت ؟ إياك أن تحدثني هناك . أيّ ! أدلك على بيت أختي وغداً تحضره لي في أي وقت . آ ؟ سأمكث في البيت فلا أخرج .

– أنت ظالمة .

قلت لها ، فابتسمت وأطرقت ، ثم بدأت تمشي . ومن حيث لا أعلم برز فجأة أمين فسلم علينا . مدت سزي يدها فصافحته ووقفت مقابلة له . سألا بعضهما بعضاً كيف الحال والأهل . وسألته كيف حال أخته ، وأين هو طيلة تلك المدة ، وماذا حصل له في غيبته . وانتهت بقولها :

– اشتقنا لك .

وابتسمت كأنها سمحت لنفسها بشيء من الأريحية المحرّمة . قالت :

– سأذهب إلى اللاذقية بعد أسبوع .

فأعلن : نزوركم إذن . أنا أختي على الأقل .

وابتسم . سرنا نحن الثلاثة ، كنت مبتعداً خطوتين . سأل أمين :

– كيفك أسيان ؟

أجبت بابتسامة شديدة التهذيب : عال . أراك سمنت .

فأعلن : بالعكس . خسرت ثلاثة كيلوات أخيراً .

قلت مغالياً ردة بابتسامة : إذن فأنت نحفت .

وضحكت سزي بابتسار ، فشرح أمين :

– عمل متواصل : اسعافات آخر الليل ، عمليات متواصلة . المشافي تخلو دائماً من الراحة . كن أي شيء إذا أردت الراحة إلا طبيباً .

قلت بخبث : ليس هذا فقط : ان التماءك المستمر بالأجسام المعلولة أو بالعمليات يخرّب الصورة الشاعرية لجسم الإنسان في الذهن .

وتخيلت جسم سزي في عملية جراحية .

قال أمين : أنتم يا أخي ، الشعراء ..!

واعترضت سزي بنوع من الدلّة القاسية : اسكت ، انه عمل إنساني .

وقد أطالت الضم على حرف الكاف حتى لحقته واو . ثم أضافت بعد قليل :

– إن عمل الطبيب لذيذ حقاً . تصور كم من النفوس المعذبة ينقذ . .

قلت : « يا سلام ! بالفعل! » .

قالت سزي : هلْ أعددت رسالتك ؟

فاجاب أمين باقتضاب ووداعة : ما يزال باكراً بعد .

وهنا غمرنا صمت . كنت قد فهمت من سؤال سزي الذي لا يسأل ، أن مواد الحديث قد انتهت . نظرت هي إليّ بلا سبب وابتسمت . وفهمت أنها تنفحني ببعض التعويض . وهكذا سرنا مثل هؤلاء الذين يفدون إلى المسرح أو السينما مستقيلين من حياتهم طيلة ثلاث ساعات كاملات ليعيشوا في حياة التمثيل ، أو الصور التي تفتعل لهم مشكلة يعيشونها لا تمت لهم .

قالت سزي : أمس ، حسبت لي زميلتي بالقهوة فقالت إني سأصافح شخصاً غائباً . وها أنت ذا .

فابتسم أمين بغبطة ، وقال ببرود : أرجو أن أكون هاماً إلى هذا المقدار .

وابتسمت سزي .

أيقنت أن عليّ اما وداع الاثنين ، أو البقاء شخصاً ثالثاً على المسرح . . .

بعد هذا لم أذهب لرؤية أخي ، ولم أخرج من الجامعة . كان جرس يقرع في أنحاء جسمي قرعاً موقوتاً رتيباً دون أن يقف . وأمضيت النهار كله هارباً . لعبت بعنف بكرة الطاولة . وخرجت فرأيت ذات الوجه المسرحي والابتسامة

البلهاء ، وسرت وراءها أني سارت ، حتى اكتشفت في النهاية أنني أرقى درج المكتبة . وتوجهت إلى قاعة المطالعة مجهداً ، فأنتقيت مكاناً يقع تحت المروحة وجلست فنمت .

عندما استيقظت كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة. التفت إلى جانبي أهم بالنهوض . ولكنني جلست : كان شعر بلون البيرة ، تخنق انسراحته عند العنق شريطة زرقاء ، ينثني كرحيق النحلة فوق كتف مدور . وكانت انسام المروحة تتعابث به فتنتقل بعض شعيراته الطوال عن كومتها لتنتشر على ذراع عار شديد الصفاء . وتساءلت : هذه البشرة الرهية لم أرها في الدورة الأولى ، فكيف وصلت إلى الثانية ؟

نظرت إلى امتداد ذراعيها حتى الطاولة. كانت ثمة ثلاث زنابق عند أصابعها . وانتقلت أنظر إلى الطلاب الجالسين حول الطاولة . كانوا بين الفينة والفينة يرفع أحدهم عينيه فيتأمل شعرها أو ذراعيها . وفجأة رأيناها تنهض عن الطاولة وتغيب في القاعة . فركت عيني ، وعكف الطلاب على الدرس . وحانت الفرصة فتناولت زنبقة وخرجت . تلك كانت لبنى .

— ٤ —

في ذلك العام كنا قد عرفنا بعضنا بعضاً تماماً ، سزي وأنـــا . الوجه النقي الذي أحببته ، والشفتان اللتان روضت نفسي على رقتهما . عندما تسير إلى جانبي بقوامها الفتّي الرائع ذي التقاطيع المزهوة المفرحة ، الذي عشقته أكثر من أي شيء آخر ، ترتاح شهواتي ويطير من النفس خوفها كضباب صباحي عابر . ماذا كانت سزي عندئذ ؟ بشكلها الجميل ومثابرتها ولين عريكتها ؟ لقد أصبحت مع ازدياد اللقـــاء والتعارف تعطي ذات الأمل الذي أعطته ديمة الحياة في سورية . ان الحوادث لم تصل بينهما برباط ، بل ولم يشعر أحدهما أن له صلة بالآخر . وعرفنا ذلك متأخرين ، بعد أن انتهت الحياة الجامعية .

ولكن هل يغير هذا من الحقيقة شيئاً ؟ لم يحدث لأحدنا قط أن استوقف الزمن ليسبر غور التشتت المرير الذي اتسم به . إنما من الذي يمكنه القول وهو منكب داخل الزمن أن الفصام بين مظاهر حياتنا المتضاربة ليس تعبيراً حقيقياً عن هذه الحياة وعن قصورنا نحن .

ما ألذ تلك البدايات التي شقت طريقها متسرقة الخطى ، حذرة العيون ، وحاولت بين آلاف الكلمات الجامحة أن تتحد في بنية نفسية مغمورة بالحب . لذيذة كانت ، هي ابنة الحياة غير الشرعية ، وموطىء نزوات وسخرية. « الحب مناورة سكرية حالمة للاستيلاء على فتاة » . ولكن برغم كل ذلك ما استطاع أحد أن يخفي هذا « الشيء » الذي كان حباً . كانوا يرون أننا أحببنا بعضنا البعض ، حتى ليصعب تماماً أن توضع أية عصا في دولاب العربة .

هل كان حباً قباها بقبلات فمه ؟ وهل كان ما فيه أطيب من الخمر ؟ هذا الذي من أيام سليمان تطلبه النفس فلا تجده ، وتطوف لأجله في الأسواق والشوارع فلا تلتقي بغير الحرس الطائف في المدينة ؟ ثمانية عشر شهراً لم يحدث فيها أكثر من المصافحة ، وحتى تلك العملية الصغيرة التي لم تمارس كثيراً كانت تتم عنوة عن كل شيء بأصابع هرب منها الحس خوفاً من أن يعبر عن العاطفة . أين تنمو الصفات النبيلة الخالدة ، وأين تبقى نقوشها ؟ وأنا الذي حرصت منذ سنين على ازدراء هذه النقوش واعتبارها صفة بديلة عن النفس الحقيقية ، لم أكن ازاء سزي سوى صورة عن جعفر بن أبي طالب الذي قطعت يده ثم يده وساقه ثم ساقه ثم رأسه وهو ما يزال يحتضن الراية المقدسة ، أو عروة بن حذام الذي حمى الظعينة حياً وميتاً . أي شيء كريه . عشقت جسم سزي الأثيري وتمنيته.

غمرتها بحاجتي اليها وبجميع ما انفجر في نفسي من احساس بجمالها الحقيقي طيلة ثمانية عشر شهراً . ولكنما أي تعبير عن ذلك بحيث يلاحظه الناس ، كان كفيلاً بأن يجعل وجهها المرمري يحمر وأجفانها تضطرب فيما تقول لي :

– إي ، إي ، يا لله ! ما هذه الدونجوانيات ! كان الأفضل أن تكون ممثلاً على المسرح . أنت يمكنك القيام بكل شيء . فلا نستطيع أن نصدق منك أي شيء . ولا يعجبني هذا . يجب أن يكون كل انسان معروفاً ، لا مظنوناً . أنا أريد أن يعرفني الناس بوجه واحد . ولا أريد أن أزعج أحداً . ولا أن أتكلف مع أحد .

وتضيف ضاحكة بارتباك : أما أنت ، فيا لله ! سوف يحارون في حسابك يوم القيامة .

لقد نظرت اليها دائماً ، إلى وجهها وصدرها وساعديها ، بالذل الذي ينضح من عيني محتاج أمام سيده . لم أستطع يوماً أن أشعر أن لي الحق في التفرس بوجهها ، ولم أشعر يوماً ، كيف يمكن ؟ الوجه الذي أحببت ، الشعر ، مشيتها التي أجهل حتى الآن ، إذا كانت فاتنة أم لا ، وانما أحببتها حقاً . كل ذلك كان محرماً علي ان اعترف لنفسي بأني أريده . لعل ما كتبته حتى الآن شيء تافه ، وربما أثار النفور . ولن يكون ذلك غريباً فكل الأشياء الحقيقية التي ترج بوابة النفس لا أجرؤ على رؤيتها .

سزي . المسبحة الموجودة في كل مكان . كانت أيام هارون الرشيد سلوى للعضو الذي لا يشبع حتى في ارتخائه . أما الآن فهي وسط جنات القرن العشرين برتقالة نمت منذ صغرها في زجاجة عادية . امرأة قبّلت بملء شفتيها حبيبها المسلول وقد أصرّ في أنانية رائعة على ذلك ، ثم أسرعت بين الدموع التي لم تكف لحظة عن الإنهمار إلى الممرضة لتطهر لها فمها بأقوى المطهرات . وتمضي الساعات حول الحديقة وحول المريض ، حيث ينظر الناس وتحدق النفس ، وتنقسم سزي وتتضاعف ، تسير متأخرة عني بمسافة سنتمترات قليلات ، تتحدث ، تترن ، فتصل إلى الحدود التي ينتهي عندها اليقين والطمأنينة .

هذه الأحلام الرومانسية العظيمة التي أزكت محبتي للحياة وعلقتني بها تقلصت كبالون منتفخ فض فوه فنفض متصاغراً حتى فرغت أنفاسه وسقط على الدرب . أراها تسير الآن على دروب الجامعة بمشيتها المائلة نحو الجانبين وخطاها البطيئة وقد ارتدت كالعادة ثياباً بالغة الأناقة . ونتقابل فنسير معاً بالشوق القديم ، والشغف ، والتعلق . وأقول لها أو تقول لي « لماذا تأخرت» ويكون فرق الزمن دقيقتين أوثلاث . واتعابث فأهاجم كثرة تأخرها ونقضها لوعودها واخلالها باتفاقاتنا ، فيأخذها الجد والهدوء ، وتشرع بالرد فتغدو كل محاولة للدعابة هزيلة خفيفة الأثر . وربما التقت بنا صديقة فسلمت

أو صديق . وهنا تستوقفها سزي وتستمشيها معنا حتى يمضي الوقت الذي خصص للقاء في حديث عن العشاء الفائت أو الزيارة المقبلة للصديقة. وعندما نبقى وحيدين نسير على رصيف الحديقة. وأسألها سؤالاً ما ، « هل ستحضرين غداً المحاضرات؟» عندئذ تبدأ هي فتشرح باسهاب وروية : « ستأتي رفيقتي غداً . بيننا حديث سننتهي منه . ومن الممكن أن نذهب خارج دمشق ، ربما إلى الوادي الأخضر . ومن الممكن أن نتغدى هناك . وأما في المساء فلست متأكدة من أنني سأجيء ، إذ من الممكن أن أكون متعبة ، أو أنني سأدرس . ان المجيء إلى هذه المحاضرات يسقم روحي . إنها أبلد شيء في الحياة . ولست أصدق متى تنتهي . إن جلسة في دار الطالبات أفضل من جميع محاضرات السنة » . وتكون نبرة صوتها حارة هادئة ، فلا تسمح بغير هذه الجملة « غداً ، لن أراك إذن ؟ » وتسير هي فلا تجيب مستغرقة في لفائف ضجرها . هكذا كانت دائماً ، تنتظر شيئاً لن يحدث . وأقول لها ثانية : « كيف يقبل قلبك أن يكون قاسياً ؟ » فيجيب صوتها الملول بعد برهة ، يجيب وجهها نصف مطرق وحزين « لا أريد أحداً أن يراني » . وهكذا نصل إلى الحدود التي يصير عندها كل شيء وهماً وخيالاً .

كانت تلك الأجواء المحرورة الدافئة تسقط في أعماقي

مطراً من التعب الذي لا ينساه أحد ، تعب اليقين بأنه ليس بطلاً ولا محرزاً ولا كاذباً . فلو أنني تخطيت سزي وشددتها ورائي إلى مجهول اقتحمته أمامها لسارت دونما تردد. ولكن ، أيستطيع ذلك من يعتقد أنه لم يبق في العالم مكان لم يكتشف ولا أرض لم تزرع ؟ وماذا يبقى من سزي عندي ، إذا هي سارت ورائي ؟

وأعود من الجامعة ، سائراً بحذاء النهر الضحل وتحت أشجار الكينا الضخمة . ثم أسقط في الشارع الحافل وقد أحاط بي المتحفان : الوطني وجامع السلطان سليم . وعند حديقة الجلاء يتوهج الضجر والتعب في الليل المتقصف . أسير عبر الشوارع الصلبة إلى باب العمارة المفتوح دائماً . على الدرج الخشبي تسترخي رجلاي في تنقلهما وتزحف يدي على الحاجز المخلع . أمام الغرفة أقف ، وأتحسس جيبي الذي لا يملك ثمن ليلة حب مع فوزية . ولا يطول الوقت ، فأغلق الباب وأفتح النافذة . ودفعة واحدة انتقل إلى العالم الآخر ، عالم النافذة الدائرية المقابلة : تخترق عيناي نفق الشهوة ذاك إلى السرير القابع في الزاوية وإلى بعض أجزاء الغرفة الخفيضة ، ترقبان المرور العفوي لجسد جارتي الجارح داخل ثوب النوم . وتنعقد في حواسي الصلة الحقيقية الوحيدة بهذا العالم . ويتمايل رأسي مع اقبالها ورواحها ، لأعتنقها في مزيد من الصور متزايد الحميا . وتطأطىء هي ، ترفع ذراعها إلى رأسها

فتهرشه ، تلتفت نحو شيء ما ، تدور في الغرفة مختلجة الأعضاء طليقة الشعر . وأخيراً ترتمي على السرير الوسيع فتقلب ذات اليمين وذات الشمال . ويرخص اللحم أخيراً ، وتنبهر الأشياء المقدسة عارية في أماقي العين . تستلقي هناك وهي أضعاف ما هي ، ويتقوس فوقها مخلب عريق لذئب عمره عمر الزمن يمزق الثوب واللحم ويستف أبخرة المعبد المستباح ويضرب ، ويطفر ، وينقلب من فوق قمة عانق عندها الموت نحو بركة استرخاء زئبقية يذوب فيها الدم . . وترتفع يداي إلى جبهتي فأفركها بالأصابع التي لم تاوّث ، فيما يلتصق رسغ اليد الأخرى على الحاجب وقد طفت الرائحة النفاذة على وجهي وأنفي وعيني . وبعد قليل سقط رأسي بين ساعدي وتنفست بهدوء ثقيل .

في اليوم التالي أقفلت الغرفة ، على غير العادة ، كأني أودعتها سراً ، وقصدت الجامعة . ستة عشر الف طالب وطالبة ، ساروا على الرصيف وهم يظنون أن حياتهم ستمطر لهم ذهباً وفضة ، دخلت ذلك المكان الغني النظيف ويداي في جيبي : الشمس تنير الأشجار والدروب ، والشباب يملأ المداخل والأمكنة ، وتحيات ترسل من هنا وهناك ، وتحركات اللاعبين في قاعة كرة الطاولة ، قاعة المطالعة تعج بالمستعدين للامتحانات .

حياني حبيب وسار معي . وفي بضعة دقائق كان يبرم

راحتيه إلى الأمام ويقول بالانكليزية « ثم ماذا ؟ » فأمشي إلى جانبه نصف مصغ ونصف شارد — وجه يوحي دائماً بالاصغاء ويتيح أفضل الفرص لعدم الاصغاء . وتبلل لسانه بجميع مفردات العصر : العبث ، اللاجدوى ، التمزق ، الرفض ، ما وراء الرفض (هذه من صنع حبيب) ، الميتافيزيك ، وأخيراً الانتحار — الأطروحة التي تتحدى ثلاثية هيجل . « انك لا تستطيع ألا تفكر فيه . ماذا تفعل ؟ وما من جواب » ويبرم راحته أمام وجهي بأسلوب من يستنزل الرثاء على بطل ضال لم يتح له القدر صخرة يحملها .

من حيث لا أدري انبثق (أمين) ولم يعن ذلك بالنسبة لي سوى أن سزي ستأتي . صافح حبيباً برزانة وصدق ، وسأله كجزء من التحية « كيفك حبيب » ثم التفت نحوي . وابتسم حبيب ابتسامة من يعرف كل شيء معرفة تدفع إلى الابتسام . نظر إلى أمين بحب عظيم ممزوج بالشفقة . وأخيراً أجابه بكبر حنون « نعيش ! » وإذ ذاك تأبط أمين ساعدينا وسألني بشوق « كيفك أسيان؟» وقبل أن أتم جملتي الضاحكة « أعيش أيضاً » هتف بي « بحثت عنك مساء الأمس كثيراً فلم أجدك . كنا سنصحبك إلى (الوادي الأخضر) . كانت سزي هناك — مع أختها وزوج أختها . . » ودعت الاثنين وقصدت النادي . من هناك راقبتهما طوال أكثر من ساعة يسيران حول الحديقة ، أمين يتوقع أن تأتي سزي ، وحبيب يتوقع حلاً لمشكلات

العصر .

بطريق الصدفة وجدت سزي . دخلت المطعم لغير ما سبب فرأيتها تكنو إلى الطاولة التي كنا ندرس حولها واضعة راحتيها تحت ذقنها ، وقد شردت نظراتها عبر الباب شروداً أشبه بالنوم . لم يكن لديها كتاب ولا أمالي ، كما عرفت بعد أن أتيت إليها . ولم تجب بشيء على سؤالي « ماذا تفعلين هنا ؟ » و « مذ متى جئت ؟ » . كانت ترتدي تنورة بلون الليمون وقميصة بيضاء ، وفوق القميصة كنزة خفيفة الصفرة : أناقة بسيطة إلى أبعد الحدود حتى ليمكن القول أنها لم تكن أناقة . وجهها أيضاً كان في الخريف . شحوب متزايد وضمور تحت الوجنتين . وكان شعرها مسرحاً بضربات قليلات من المشط ووجهها بادي التعب . لقد فرض دخولي بهذا الشكل سؤالاً مشتركاً لكل منا : هل جئت تستعيد شيئاً ؟ أجل ، ها هنا كنا ندرس . ومذ رسبنا في الإمتحان الأخير بسبب الغش لم تطأ أقدامنا ذلك المكان . تقدمت منها بخطوات مترددة وجلست بعد تحية قصيرة . تأملتها دونما شغف إلا أن القسوة والمرارة سقطتا معاً . وأما هي فرفعت يديها من تحت ذقنها ، وأسندت الساعدين على الطاولة حيث أرسلت عينيها في نصف اطراقة ساكتة . استرخيت في جلستي وأسندت فمي على ظاهر يدي ، عندئذ رفعت رأسها إلي بنظرة كبيرة مفكرة ، شبيهة بكثير قبلها ، لتسأل بلا كلام

عنا لم تفهمه جيداً . لكنها هذه المرة لم تسأل وانما عبرت بلا الحاح أو ترقب كأنها بترت بدءاً ونهاية .

مرّ وقت قصير ، حاولت هي التكلم بعض مرات ، وصمتت في كل محاولة . لم تغير جلستها . كان اقتراب كتفيها من جيدها شديد الايحاء . وكانت ليلة الأمس لا تبرح ذهني ، وكل الألم .

قالت : — ماذا حدث ؟ وجهك . . . ؟

فردت بخفوت وهدوء « لا شيء » وأضافت « أحياناً يصيبني الأرق » ورفرف جفناها كأنها أدركت ما أوحت به كلماتها الأخيرة . لكن ذلك لم يعكر الصمت المتحدث الذي ارتحنا كلانا إليه ، ولم يغير من معنى جلوسنا في ذلك المكان . وعندما هممت بعد قليل بقول شيء ، أدارت وجهها وركزت نظرتها باهتمام حقيقي . لم أجد شيئاً أقوله فامتنعت عن الكلام، وخفضت رأسها وعينيها فكأنها تبكي .

ويقول مسعود « إنك لم تقبلها قط ! هذا شيء ؟ .. أعني . . ليس من الطبيعي ألا تقبلها . إذا كنت تحبها فيجب أن تفعل ذلك . وإذا لم تكن تحبها فلماذا لا تفعل ؟ » ويمتد فم مسعود كهفاً يطن بالأصوات متحركاً في خاطر الأشياء ، تارة يكون عزيفاً خاطفاً راعداً ، وتارة يتلوى كحروف من عجين تسيح على وجهي وتستقر في دخان البال . .

. . . وتتحرك قدماي التعبتان على طريق القرية الحجري

نحو ذلك الجزء المنسي من حياتي الماضية وقت ارتكبت معي جميع المحبات والتعلقات قبل أن أصل إلى الشرخ حيث ذاب جبل الجليد الصلب الذي كوّمته العواطف والخيبات وكان كذباً كل شيء . .

ما الذي هز هذي القلوب يوم ذاك ؟ استعادة الثلثين الميتين ؟ لقد فكرت سزي أنها ستحتفظ بكل شيء تريد الاحتفاظ به إذا شعرت في لحظة ما بحاجتها الكلية له . ربما وجدت ذلك يسيراً فدائماً ما أشعرتها بحاجتي لها . ربما تعبت أخيراً ، فسارت إلى جانبي لتدلني إلى بيت أختها وربما أراد قلبها ، كما أراد موسى ، أن يطمئن ، فطلبت أن أوافيها بعد أيام برواية ديكنز « قصة مدينتين » . وابتسمت إذ لعبت بين أضلاعها فرحة الاطمئنان ، ربما أزاحت الستار ، ربما اعترفت لنفسها بأشياء . . ربما كل شيء . ولكنها بعد أن أشارت إلى بيت الأخت من مسافة خمسين متراً أطرقت ثم رفعت وجهها قليلاً مرفرفة الأهداب :

ــ الآن . مع السلامة .

واستدارت نحو البيت عالمة اني منتصب في مكاني ناظر إليها . ونقّر في النفس حزن أكيد . خطوة واحدة ويبلغ الإنهاك تمامه : بعد ثلاثة أعوام في الجامعة وأربعة امتحانات تعود سزي إلى بيت أختها بخطى ثقيلة ، إلى جانبها صديق تقول له : « مع السلامة » عندما يصلان إلى بيت الأخت .

وتمكث أسبوعاً ، وتعود إلى اللاذقية وتمكث بقية الشهور في حريم أبيها ، كأن شيئاً لم يتغير . دراسة في الجامعة وعودة إلى البيت القديم . وتقضي أيامها في زيارات شاحبة عابرة الأثر لصديقات وأسر صديقات وهي لا تفكر لمرة واحدة في أن تقف بوجه هذا الترداد القاتل للأيام والتحركات .

واستقبلت الشارع الغارب حبيساً في كآبة حائرة متأملاً طرفيه المتنائيين: أية جرثومة هذه التي تعب منها القلب البشري .

خطوت خطوة . استدرت وانطلقت نحوها . أدركتها تفتح الباب بالمفتاح . نظرت إلى الباب ثم إليها ورقيت الدرج . كانت هادئة ، وأوقفت المفتاح في القفل .

— ما بك ؟ غراب مذعور !

— من في البيت ؟

قلت ، وكان حلقي جافاً . لم يتغير هدوؤها. لم تختلج ولم تحرك المفتاح .

كان صدرها الجميل يخفق في امتلائه وصباه . ووجهها ينشد كأنه في سبات عميق . انحنيت بارتباك ولثمت شفتيها نصف المنفرجتين . كانتا جافتين كورقة يابسة . وانتفضت من غيابها. فعادت إلى عينيها نظرتهما النافذة المربكة . وصاحت منتصبة معقودة الحاجبين : « ماذا فعلت ؟ » نظرت إليها

بحيرة . قلت : ولكنه باحترام أكيد . وشددت صدرها إلى صدري ، وكانت شفتاها ما تزالان جافتين تماماً .

كانت ترتعش ، وكأنها أرادت أن تهرب من القبلة بالإغراق فيها .

فجأة دفعتني بقوة خلصتها مني . وعادت نظراتها النفاذة الغاضبة تلفحني . وعاد لي تحيري وارتباكي . قالت « أخرج من هنا ! » وبعد برهة : « قلت أخرج من هنا . » ولم يكن في نيتي الخروج . لبثت أحدق إليها بغباء . قالت « لو تعلم كم فقدت الآن . لو تعلم ما أنت الآن . » وشعرت بتخاذل حقيقي ، قلت « انني لا أستحق ذلك . » قالت « لقد فقدت أكثر مما يمكنك أن تقدر . اخرج الآن ! » قلت « أنا آسف . لقد ظننت.. ظننت.. » قالت هي « اذهب ولا تظن شيئاً » . قلت « لماذا؟ إني لن أذهب. » وصرخت هي وقد رفعت يديها إلى جانبي وجهها وهزتهما وأطبقتهما « اذهب ، اذهب . محبة بمحمد اذهب . » قلت « إذا كانت هذه هي المكافأة التي تدخرينها لحبيبك فأنت تعتقدين الآن أنك خسرتها . أي انك لا تملكين شيئاً تقدمينه بعد . القبلة وبعدئذ لا شيء ! أليس كذلك ؟ » فتنهدت ولم تجب .

ربما كان الشجن الذي في نفسها أبلغ من أن يرد على الكلام ، ربما كان شعورها بالخسران أقوى . لقد اخترقت الحدود وفي هذا ما يكفي من الذل . انها لم تظن قط أني

سأكون دنيئاً إلى هذه الدرجة . بل هي لا تصدق . حادث يجرد الإنسان من موهبته . لقد استلذت بهذا الجماع الشائه واستجابت له . فاجأتها نفسها ولم تدر ماذا تفعل .

أحلى الخيارين كان مراً على أية حال. وقد أتعبها ذلك. عالم أعلى جدرانه الجنس ، خرجت عليه ريح خماسينية فتصدع . وطفقت تبكي . استدارت جانباً والقت رأسها على انثناء يديها ، ونحبت . وبين الجدران والدرجات القليلات انتصب جدار من التضاد ممزوجاً بمرارة الخيبة والحزن ، أعدنا استحضاره بعد نبذ طويل . كأن حصالة كل الشهور الفائتة كانت هو وليس الحب . لقد اختلفنا فعيينا عن العاطفة .

قلت : — كثير من القبل يمكن أن يمر على الشفاه ، ولكن قليلاً منها يعلق بالنفس . لي أهل وأصدقاء يعيشون تعيسين لأنهم تزوجوا لقبلة . لقد أخذت حصتي من الشقاء . إني أبحث عن الوئام مع زوجة ، وهذا هو كل شيء . ولكن المشكلة هي أنــــك لا تعرفين ذلك . لقد بقي فمك سليماً وباستطاعة أي رجل أن يقبله دون أن يشعر بغير مشاعر التقبيل . اننا نحن الذين نقدره وليس هو الذي يقدر نفسه .

وعندئذ قررت هي ، منقبضة الوجه كمن شرب شاياً مرة وهو غير معتاد عليها :

— اخرج ، محبة بمحمد اخرج . انك تمثل في كل

شيء ، ولكنك لن تستطيع أن تبرر خلوك من الشرف .

قلت : — أجل . وحبذا لو استطعت .

فنبرت : — وما تزال تهجم على الفتيات كالوحش .

قلت : — أجل .

وهزئت : — وتحاول أن تقول ان هذا هو أنت .

قلت : — أجل . آن أن أهذبه .

قالت : — وبعدئذ تجد أنك صرت نبياً ، بلا عقد .

قلت : — عارياً .

صمتنا معاً . حدقت إليها ، فيما رنت هي إلى الأرض . ولم أعد أراها برغم التحديق .

قلت : — ولكن لماذا نزيد الأشياء مرارة ؟ إذا كانت في قرارتنا بقية من الود فلننج بها . كفى . وداعاً .

فهزئت ثانية : — وأسدل الستار . انك قلت هذه الجملة لا لشيء إلا لكي تسبقني فتخرج قبل أن أطردك . يا الهي ، بعد أن تذهب كيف سأتحمل كل هذه النذالة والكذب ؟

وكان ذلك شكران الختام .

فتحت الباب ورددته ورائي . وقفت عند أعلى الطريق لحظات أتأمل البنايات والأضواء . كان الظلام يهيج في سماء المدينة ، والإبهام منتشراً فوق كل بيت . سرت بخمول إلى الشارع ، ودون أن أدري السبب ركبت التاكسي إلى جهنمي ، إلى قلب المدينة .

الفصل الثاني

– ١ –

في حمص توقفنا لتناول شيء من الطعام . خرجت رفيقتي ، وقد فتحت لها الباب . لحقت بأخي من الباب الثاني ، وقلت له :

– أعتقد أني سأتزوج هذه الفتاة في العام القادم .

ابتسم أخي ابتسامة غير معبرة ، ولم يفه بشيء . التفت إليه في مسيري نحوها ظاناً أنه سيقول شيئاً وابتسم ثانية وسأل : – ما اسمها ؟

قلت : – لم التقطه جيداً .

وصلت اليها وقلت : – هيا .

فرفعت حاجبيها مستنكرة : – ماذا يقول هؤلاء ؟

فقررت : – لا أدري . وانما هيا .

– ألست خبيثاً ؟

– لن أترك فرصة تفلت دون أن أغازلك فيها .

تلكأنا قليلاً . وتحركت عيناها بقلق واعتذار . ابتسمت بخفر مثل من يرد عتاباً . هبت بها ثانية أن تتخذ قرارها . وفي ثوان رحنا نمشي ببطء . بعد بضع دقائق سرنا بالسرعة العادية في حي قليل الازدحام . أخرجت شطيرة من قمع الورق وقدمتها لها ، ثم تناولت واحدة .

قلت : — أرجو المعذرة . سأسألك سؤالاً لا بد منه .

فنظرت إلي باستفهام ، ولم تتكلم .

قلت : — انني لم التقط اسمك جيداً . هل تغفرين لي هذا ؟

فابتسمت بصفاء وأجابت : — مرام . . .

— يا سلام ! اسم عذب ! أنت عذبة كلية .

سرنا على رصيف مشجر متقاربين هادئين . وبعد حديث حول أشياء عابرة تناولنا قدحين من الجيلاتي . عندئذ حدثتني عن بلدتها بيسان ، بفلسطين . وبدت شديدة الولع وهي تتذكر في تلك الظهيرة ودياناً وسهولاً وجبالاً تزدان بالخضرة والشجر . « كنت ألعب بالنطة مع البنات في بستان جدي . وكان البستان مليئاً بجميع أصناف الشجر المثمر . وكان جدي يجلس تحت شجرة التين الكبيرة ويبحث في الراديو عن ألحان الصبا والنهوند وما لست أدري ، قرب الخندق الصغير المجاور للبئر . كان عندنا : عند جدي ،

بئر يا لطيف كم كانت مياهه باردة ، ثلج . وكان يجلس إلى جانبه ويسمع الراديو . ولكن أبي جاء في يوم وقال هيا اننا سنزور سورية لمدة أسبوع . وها قد مضى علينا أكثر من ستمائة أسبوع . . » .

وأخيراً كف جفناها عن الرفيف المضطرب ، واتسقت تعابير وجهها . نظرت إلى المدى البعيد مطمئنة بتأملي وجهها.

قالت : ــ صرت أعرف سورية أكثر من . . هناك . لقد نسيت تلك الدنيا تقريباً .

وأضافت بغير اكتراث « انني أحب سورية » ثم ابتسمت بارتباك وسألت « أهذا عيب ؟ »

قلت : ــ لماذا هو عيب ؟

فأجابت بعناء : ــ لست أدري . لست عديمة الوفاء .. يقولون اني عديمة الوفاء . . ولكنني لا أدري ماذا أفعل . لا أستطيع أن أفعل شيئاً . أحب بيسان ، فلسطين . . انني . . ما الذي أقول ؟

ضحكنا معاً لحيرتنا ، ورن صوتها رنيناً مخنوقاً . في أحد شوارع (حي القرابيس) سرنا . وهيمن علينا الصمت والظهيرة .

قلت : ــ وأنت الآن في أية مدرسة ؟

ــ في الثانوية العربية . بعد الثانوية لن أدرس ، تعبت من الدرس .

– ولكن كيف ؟ لعلك موهوبة في شيء ما !

– العلم طريق طويل لا ينتهي .

وصمتت مرتبكة . رأيت أن تلك كانت الفرصة الملائمة. قلت :

– ماذا ترين في الزواج ؟

فردت بعذوبة : – كل البنات يردن الزواج .

قلت بسرعة : – كلا ، أعني ما رأيك في أن نتزوج اذا وجدنا أننا متفقان ؟

فاضطربت بعمق وردت باسمة : – أبهذه السرعة ؟

– سأتعرف بأهلك أولاً . سوف يتم كل شيء في فترة عام .تكونين قد نجحت في الثانوية ، وأكون قد عينت مدرساً . ولكن يجب أن تنتسبي للجامعة .

لم تبد أنها أنصتت ، وران عليها شيء من نفاد الصبر . وقفنا في فم الشارع ونظرت إليها . تانك العينان الحشيشيتان رفتا قليلاً ، ثم تدلت الشفة السفلى باستسلام كئيب . خلال لحظات عبر بيننا شيء أشبه بالحلم . كان كل منا متعباً حينئذ ، وتأملنا بعضنا بعضاً بذاك التعب . استرخت هي على ساقها اليسرى ، وقميصتها تتفضفض على مد خصرها الرقيق باهمال .

قالت : — لن يعجبك التعرف بأهلي .

وابتسمت تحت احساس بالذنب ابتسامتها التي لا تنسى. بعد لحظات رددت منهنهة « أحبهم كما أحب فلسطين ؛ من غير أن أعرفهم . » وتقابلت أعيننا . توقفنا عن المسير ، واستندت هي إلى شجرة ، مرسلة على طول الشارع نظرة ملولاً . تأملتها بتقبل وادع وتهدلت إلى جانبها ، وكلانا يحس بأنه يغتنم فرصة لن تحين بعد ، قاذفاً بنفسه في يم حرية محرمة .

قلت لها مرحاً: « نحن في البلوى سواء . هيا بنا . » وإذ مشينا أضفت « لنحاول أن نجد بيننا شيئاً يصلنا إلى الأبد . لقد تعبت من كثرة ما أخفقت في ذلك . على اني لم أيأس بعد . »

وهمهمت بغبطة مستنكرة : — أنت خبيث .

تقدمنا بعدئذ بلا كلام . أمسكت أصابعها فاعطتهما بعد تردد . ثم ازددنا اقتراباً من بعضنا البعض ، وأعيننا تمتد على معالم الشارع . وصلنا السيارة فركبنا . وبعد فترة وصل الراكب المنتظر وانطلقنا .

في ربع ساعة أطل علينا السهل الصخري . قلت : — نحن ندعو هذا « وعر حمص » .

وتأملنا الكتل الصخرية الغائصة في الأرض . والتي أفسدت التربة بكثرتها وتشبثها ، ورحنا نشتق منها المعاني .

التقت أعيننا وابتسمنا للاشيء . كان الطفل قد نام وكذلك أحد المسافرين .

طأطأت بذراعي على القضيب الحديدي للمقعد والقيت رأسي بارتياح . كذلك فعلت هي . وجعلنا نتحدث قليلاً ، ونبتسم طويلاً : أتأملها فيما تطفر نظرتها بعيداً . بين الحين والحين تلامس ساعدانا . ولم ننقطع عن عالمنا الجديد . ازداد تأملي لوجهها الشاحب وذقنها الصغيرة البارزة . وبدا وجهها حينذاك مثل ضحى ملأت سماءه الغيوم .

لم أنتبه إلى أنها أغفت إلا عندما التصق خصرها بجسمي ، وأزاحت يدها يدي . كان وجهها غافياً ، وأجفانها ممتدة نحوه — فقط لتثير الدهشة . قبل بانياس وعندها ، حيث لا يهوج البحر أبداً . انعطف رأسانا نحو تلك الزرقة العجيبة . وأخذ صدرها يهتز خفيفاً مع تحرك السيارة على الطريق الملتوي ، متعارماً راعشاً كالموجات التي دفدفت على رمل الشاطىء . وراح الهواء الهاجم من فوق ذلك الامتداد العظيم للماء يقذف بعض شعرها الأسود على عنقي . عيناها تكادان تنفتحان . شفتاها تشدان على بعضهما البعض بابتسامة فأحس أن غيرهما الموت .

بين الروائح المالحة والأنثوية ، بين تماس الساعدين الخفيف ، الشعور الرغيد بمغافلة الزمن ، عبر الحلم مرة أخرى . تداغمت الحواس . انتابتني رغبة في الانتشار حفزها

أن وجود المسافرين كان يمنعها . همست لها فابتسمت دون أن ترفع رأسها أو تفتح عينيها . ابتسمت بدوري وعدت أتأمل البحر من فوق شعرها .

أقول لها « ابتسمي » فتفعل باستنكار وتلتفت بعينيها فقط . وأقول « أتعرفين أنك حلوة ؟ » فلا تتحرك . وتمضي السيارة . « بودي لو أقبل ذراعك » وبعد حين تبتسم ، فأسألها « كيف التقيت بك ؟ » « زعلت ؟ » « قولي أحبك . »

وتقول هي « أنظر أسيان » . « أسيان سوف يرانا الناس ! » ، « يخرب ذوقك » ، « لا ، أسيان » . « ما أخبثك » .

وتجسدت أخيراً في رؤيا غامرة يحس ويشعر بها ولكنها لا تحاط . نادتني باسمي مجرداً ، ولم يبد في ذلك التكلف . وقصت لي كأنما في إصرار عن امكانية التقائنا . سمحت لزندها أن يلتصق بصدري وبجسمها أن يرتمي بحركة السيارة على جسمي فلا تسحبه إلا بعد وقت طويل . . . وطيلة الطريق كانت نصف نائمة .

وفض أغلفة انتشائنا دخولنا مدينة اللاذقية . زعيق الباعة وضجيج السيارات والغبار المنعقد في الجو . في المرآب ركبنا سيارة أخرى إلى بيت أخيها . وبعد وقت لا بأس به استطعنا أن نهتدي إلى البيت . حملت حقيبتها ، وعند باب

الشقة أمرتني بالعودة قبل أن ترن الجرس .

قلت : – لا تنسي يوم الثلاثاء !.

فهزت برأسها وتصافحنا مثل غرباء ، ثم نزلت الدرج عدواً .

— ٢ —

تسلقت الدرج وفتحت الباب . اجتزت الممر الضيق ، ثم نقرت على الباب الكرتوني ودخلت . ورفعت بوران رأسها بدهشة المفاجأة ، وأسقطت المكنسة ، وصاحت :

– ليس صحيحاً !

وهرعت فطوقت كتفي بيديها ، وطوقتها أنا الآخر من الخصر . تبادلنا قبلتين متتاليتين على الوجه ، وضممنا بعضنا البعض بصمت . تراجعت خطوتين باحثاً بارتباك عن كنبة قريبة ، فيما وقفت هي تنظر إلي موكوءة الذراعين على الخصر . على أنها ما لبثت أن تقدمت مني وهي ترمي المازورة مـــن يدها ، وطوقتني من جديد واضعة وجهها على عنقي حيث سقطت قطرتان من الدمع .

– كنت أسأل نفسي دائماً كيف يمكن اغراؤك بالمجيء.

ضحكت بابتسار وشددتها إلي وقبلت شعرها . وعدنا نتبادل أسئلة كانت ترد عفو الخاطر . جلسنا . ونشأ عتاب

خفيف حول انقطاع الرسائل . ليس في الحق عتاباً مألوفاً : اعتذر كل منا متعللاً بظروفه . كلانا كره الصيغة التقليدية من رمي الذنب بوجه أخيه رمية بصر عليها بلطف إلى أن يستنفد الاصرار كل رغبة في الكلام . وفتح الاعتذار باب أسئلة حساسة عن حياتها ، أجابت عليها باقتضاب وهي تسحب الخيط بين سبابتها وابهامها بعد أن أدخلته سم الابرة.

باختصار أجابت : — كل شيء كالمعتاد .

بعد لحظات قالت : — هذه الخنزيرة سميرة ، لقد غشها البائع . اشترت ملف الخيطان بسبعة فرنكات وهو بستة . لقد قلت لها مئة مرة ألا تتهاون في مسائل كهذه .

— أراه نائماً هنا .

والتفتت هي إلى حيث استسلم زوجها لنوم القيلولة متهدل البطن على السرير . ثم عادت إلى عملها . على السرير الآخر اضجع نزار ، ابنهما . وبلمحة عابرة اتخذ الثلاثة مراكزهم في الخيال داخل بيت لا يكاد يتميز بين بيوت مدينة اللاذقية . . عواطف مخيبة تحكمت أخيراً وأصدرت أحكاماً نهائية .

قالت : — كيف تعيش في دمشق ؟ سمعنا أن هذه القحبة تسببت في رسوبك .

— أجل . هذه القحبة تسببت في رسوبي .

ـ أهي نفسها الّتي ستتزوجها .

ـ هي نفسها ـ سوى أني لن أتزوجها .

ـ ما دام هكذا ، . . . أمها .

وابتسمت بوران . انني أذكر الآن وجهها الشاحب وجلد جيدها الرقيق ، هزة الرأس الّتي تعبر بسخط خائر عن الخيبة ، وتلك الرسائل الّتي تبادلناها فترة من الزمن . (انقطعنا عن الكتابة ، شأن كل علاقة لا تحمل عزاء حقيقياً ؛ ولكن بلا ضجيج .) نفسها المعلقة بين التوتر والاستسلام والسخرية في اللحظات الجامحة والجاحدة والمخيبة الّتي تضيع أنانيتها مرة وإلى الأبد في بحر الغيظ واليأس والمرارة . .

— ٣ —

كان منكباً فوق مكواة يضغط على سترة داكنة . وإذ رآني هرع ببنطاله القصير وشرايين رجليه المنتفخة بالدوالي، يفتح ذراعيه النحيلتين ويلفني بهما ، ثم يقبلني بذقنه الشائكة . وسرعان ما أتعبني الجواب عن أسئلته المتتابعة . وقد حاولت أن أشارك في الحرارة التي ابتدرها والتي أضفت على الجو توتراً عاطفياً مريحاً . أخذ يكرر جملة «أهلاً بالهاجر» ويمدد حروفها بنبرة عالية ، فيما يده تعبث بالمكواة جيئة وذهوباً . ويعود يسألني باهتمام متجدد عن دمشق والسر الذي استطاعت به إغرائي فيها .

ابتسمت ، وصمتنا قليلاً . مددت ساقي حتى الجدار وأسندت رأسي إلى المرآة المثبتة على الجدار الثاني . وجعلت أتأمل الصور العارية المثبتة فوق الصنبور والممتدة حتى السقف .

قال أخي فجأة «ولو أسيان ! البيت لنا في القرية . هل

سمعت أنه تهدم ، ليس تهدم تماماً ، وانما لم يعد يسكن . »
وبعد برهة تساءل متفلسفاً « ولو ! أنظر إلى طبيعة حياتنا ، كيف تغير كل شيء نعيشه . كانت المرحومة تقول دائماً . قالت لي إنها ما أن تموت حتى نترك القرية ونهجر البيت . »

وضغط على مكواه بانشغال حقيقي . فدلف الصمت من جديد .

قلت : — ماذا حدث للحمامات ؟

فرد مبروم الشفتين : — ماذا ، غير أنها هاجرت كما هاجرنا نحن .

وانتقل إلى الخزانة فغاص فيها وسحب منها بسرعة واتقان بنطالاً قدمه للرجل الذي وقف على العتبة في تلك اللحظة . قال :

— يدك على ليرة وربع .

وتناول النقود فضم قبضته عليها وهزها في وجه الزبون مهدداً . وابتسم الرجل ومضى .

— أي ، هكذا إذن . أنظر ، أنظر ، المجد لهذا الردف !

— أهي عاهرة ؟

فهز رأسه ، وعيناه تلاحقان الردفين المترجرجين لامرأة تعبر الرصيف الأبعد من الشارع .

— سأقول لزوجتك .

فانكب بجسمه فوق مكواه يضغط على بنطال أحمر ، وهو ينظر إلى الشارع ، يبتسم ويهز رأسه بمرح . تنفست طويلاً وتأملت الصور العارية .

قال أخي : — يقول الناس هنا أنك تزوجت ، وزجتك حبلى ؟

فالتفت اليه : — المعلومات ليست كاملة . لقد ولدت زوجتي منذ شهرين .

— ما اسم الوليد ؟

— « تأبط شراً . »

— آ ، آ . إذن ليس صحيحاً !

قطع حديثنا زبونان آخران تدفقا إلى الحانوت . وفتح الثلاثة معركة شتمية تناولت الأهل والزوجة والبنات . ولم أتمالك من الضحك .

نهضت أبغي الخروج . وعدته بالمجيء في المساء وانطلقت في أسواق اللاذقية . . أصوات تتعالى هنا وهناك من البيوت المتلاصقة تقسم بالسيدة وبرأس محمد . كروش نساء انتفخت إلى الأبد بفعل الحبل المتواصل ، برزت على الأعتاب حاملة أثداء منحلة . صبية يتصايحون مالئين جو السوق المعتم بالشتائم الدينية .

— ٤ —

وجدت أخي الثالث يستعد للصلاة . ومسح عن يديه الماء ، وتمتم ببعض الأدعية . رآني فابتسم باشراق وتعانقنا . لم يضع وقتاً ، فبدأ يعاتبني لانقطاع رسائلي ، موجهاً نفس الألقاب التي كان يداعبني بها أيام الطفولة . بعد قليل من الحديث أعلن أنه سيقيم الصلاة . وسألني أن أصلي معه . تعذرت بأني مجنب وأشحت باتجاه الشارع . لم يلحّ ، وأسرع ففرش قطعة قماش بيضاء ، انتصب ورفع أصابعه فوق أذنيه ، فخفضهما . وبدأ الصلاة .

جلست على كرسي صغير ولفني الصمت . بنظرة عابرة إلى أخي الذي استغرقته الصلاة رأيت عجزيه يبرزان في الجو الكابي . وقدميه تتصالبان بجرابيهما المهترئين ، ليبقى هكذا زمناً أحرجني . وأخيراً قعد . ومرت فتاة لابسة ثوباً يعلو فوق الرضفة تلوح بذراع بليل الابط . تأملتها حتى غابت ، والتفت بخمول ، ورأيت أخي ثانية . نهض هو ، وكبر ، ثم

عقد يديه على بطنه ودنقش رأسه . تعالت أصوات صبية السوق تتراشق بالشتائم الدينية والنعوت . وانقذفت كرة من أمام الحانوت ، وانطلق وراءها بعضهم ، فيما بقي الآخرون يوالون شتائمهم السابقة لاستثار الفريق الأول بها .

— السلام عليكم ورحمة الله . السلام عليكم ورحمة الله .

نهض أخي ، ولف القماشة فوضعها في مكانها الذي لا يتغير .

— وجلّق ؟ كيف جلق ؟

وانتصب وراء طاولة التفصيل . قال : — بالأمس كنت أقرأ في مجموعة من أحاديث الرسول . لقد أحب الرسول جلّق وبارك أهلها . يا الله ! تلك كانت الأزمان الصحيحة . نبي خرج من كهف ، وصحابة خرجوا من بين الرمال فغيروا العالم . تصور فقط ! يا الله !! ماذا فعلنا نحن حتى فقدنا هذه الروح .

وأضاف بعد قليل : — انما أنت سنخطب لك فتاة من القرية . هناك الشرف والوفاء والعاطفة والصفاء . هناك الايمان . نحن نريد الإيمان والشرف . هذا ما ينقصنا .

فهمت ما أراد أخي . قلت : — انه بحث لم يجن بعد . لا ترتبط بالقول مع أحد .

يشير إلى المكان نفسه . لم يكن ثمة غير فجوة بحجم البيضة . و دهشت ! عندئذ ضحك بصفاء مؤكداً أنها بالوعة .

ـ ولكن بالوعة في منتصف الحانوت !! أهي تؤدي لبالوعة بيت الجيران ؟

فرد ضاحكاً : ـ لست أدري . لقد حفرتها فأر .

ـ فأر ؟!

ـ فأر . وهذا ـ الغسيل ـ يمنع الفأر من الظهور : يحمي الأقمشة كما ترى .

وعاد يبتسم . وهو يجمع الصحون فيعيدها إلى مكانها في الدرج .

– أجل . ولكن حذار البنات المتزينات .

استدار حول الطاولة وأخرج طعاماً من بعض أدراجها – باذنجان مشوي : بطاطا مطبوخة بالبيض والبصل ، لبن رائب. ورتب الصحون في صف واحد على حافة البركة الصغيرة – بركة أقامها في منتصف الدكان ووضع فيها سمكات زاهيات الألوان . بدأنا آنئذ جدلاً حياً عميقاً حول اشتراكي في الطعام . وكالعادة انهزمت أمام اصراره .

جلست معه ، فبسمل وتلا دعاء طويلاً اضطرني للامتناع عن الأكل حتى انتهى . بعد البدء بقليل ، وخلال وقت الأكل كله ، أخذ صوته الهادئ المحب يلقي بانتقادات حارة مؤثرة ضد الشباب المثقف . (لقد أضعفت الثقافة عواطفهم الدينية . كيف يواجهون الله يوم القيامه ؟) .

قلت بمزح هادئ : – سيغفر لهم ، إذ لا يعقل أن يعاقبهم بعقاب جهنم المروّع يوم القيامة ، وهم أبناؤه . مهما يكن فهم أبناؤه .

ولكنه أكد لي بأكثر هدوءاً ان الأمر لا يحتمل الدعابة ، وانه لا يمكن الإعتماد على الغفران يوم القيامة .

سألته أين أغسل يدي وفمي ، فأشار أن هنا . التفت حولي فلم أجد شيئاً . وهممت بالغسل فوق الرصيف ، فعاد

— ٥ —

انسحبت ومضيفنا — الذي قلما أدلى برأي خاطىء — إلى غرفة جانبية ليريني مجموعة الاسطوانات التي اقتناها . غرفة سماوية الجدران مايثة باللوحات الكلاسيكية والمقاعد الطويلة المذرّعة . جلسنا قليلاً نقلب الاسطوانات ، ثم وضع كونشرتو الجيتار لرودريغو وتركني إلى البهو .

من الباب وقفت أصغي . وترقرق الزمن على وجوه الحاضرين في أحاديث لا تنتهي . كانت عينان زرقاوان تبرقان بمرح جذاب ، وشعر امرأة يتموج حول الصدغين وبلور الجيد . واسترخى جسم اخرى على ذراع الكنبة، مائلاً إلى الجهة الثانية . انعقدت الجلبة والموسيقى في الاذن ، والدخان والعتمة والضوء في العين ؛ ليختلط فوق ذلك تلقي الحواس النشوي ضمن هذا السديم الغائم . وجه أحدهم تجول يتتبع الأفواه بصمت . ويد آخر أشارت لي أن أخفض الصوت « فالطنين يضايقني » . وشفة امرأة اشتدت كأنها تلج وتخرج في الوقت نفسه . وانزوت زوجة أخرى مدهوشة بطلاقة

الحوار والكلمات . . . وبرقت عينان زرقاوان بمرح وتكومت شفتان شهيتان . . غصت في مقعد متطاول أفرك جبهتي بقرف ، وأصغي اطنانات الجيتار . في تلك اللحظة لم يكن أي شيء مهما . وصار بوسعي أن أكون أكثر انسجاماً ، طالما صرت أقل مبالاة . تقدمت نحوهم ، ورأيت زوجة المضيف تبتسم مرحبة .

قال الدكتور نعيم : — ماذا استفدت إذن ؟ سأدفع للعيادة الفاً ومائتين . وللبيت الفاً وتسعمائة . قلت له اعطني الطابقين الثاني والثالث فرفض . قال انه سيسكن في الطابق الثاني ، وانه يستطيع تأجير العيادة والثالث باكثر من ثلاثة آلاف وثلاثمائة ، ولكنه فضل اعطائي أنا بثلاثة آلاف ومائة. وفي هذا خسارة اربعمائة ليرة . فقد كانت الشقة السابقة تحوي العيادة والمسكن معا بألفين وسبعمائة . وعبثاً حاولت اقناعه بثلاثة آلاف .

وكان المهندس (ل) والاستاذ (هـ) يتبادلان الإتهامات بالتقصير في الزيارة .

قال المهندس :— نحن الذين زرناكم آخر مرة .

وبين الاستاذ : — أنتم ؟ غلطان . منذ عشرة أيام لم نلتق ، وكنا نحن قد زرناكم مساء . و — تذكر أنت : بقينا ساعات !

قالت زوجة المهندس : — ثم مررنا بعدئذ بيومين ورأيناكم

فأعلنت زوجة الاستاذ بمحبة : — تلك لا تحسب زيارة ، انكم لم تقفوا .

قال المهندس : — لقد أمضينا نصف ساعة !

قالت زوجة الاستاذ : — أنصف ساعة زيارة ؟

قال المهندس : — ولكن كيف ؟

وأكد الاستاذ : نصف ساعة ! ليس زيارة .

وصاحت زوجة المهندس : — ألم نشرب قهوة ونتحدث؟

قالت زوجة الاستاذ بروح عالية : — وهل أقل من فنجان قهوة ؟

قالت زوجة المهندس : — انه يعني زيارة .

قالت زوجة الاستاذ : — كلا ، لن نحسبها .

قال المهندس : — ولكن ، كيف يا مدام ؟

قال الأستاذ : — لن نحسبها . زيارة ثانية .

قال المهندس : — ألم نلتق بعدئذ ؟ جئت إليكم نصف ساعة في اليوم التالي .

فرفضت زوجة الاستاذ : — الزيارات تكون عائلية ،

أحضر الست أم غياث معك .

وأعلن الاستاذ متنهداً : ــ انما الآن دوركم .

وردت زوجة المهندس : ــ انما الآن دوركم .

وقالت زوجة الاستاذ : ــ بل دوركم أنتم .

ورد المهندس : ــ كلا ، بل دوركم أنتم .

وقالت سيدة في زاوية البهو لزميلتها ان « الجيبون حلو » فأجابت تلك بجملتين لا ثالث لهما ، الأولى للشكر والثانية لذكر الثمن . وامتعضت السيدة الأولى بسبب الاجابة ، فطفقت تتحدث عن ثيابها هي الأخرى بطريقة أرغمت السيدة الثانية على الإصغاء . وابتسم زوجاهما بلعانة وتهذيب .

شعرت أني فقدت شيئاً ، فجأة ودفعة واحدة ، شاركت في مزحهم ، ثم تسامرت مع الدكتور حول الحياة الاجتماعية وانتشار التحلل الأخلاقي .

تسللت إلى الغرفة فاستمعت إلى أغنيتين لشوبرت . ولم يجدني ذلك ، وعدت إليهم . في منتصف البهو تحلقوا حول شيء ما ، باستثناء رجل وبعض النسوة . كان المضيف يتكلم بانبساط ودعة وقوة .

تقدمت فرآني أخي . وبدا أنه اغتنمها فرصة . قال وهو يسحبني جانباً :

ـ لقد غازلت زوجة الأستاذ سليم كثيراً .

نظرت اليه بدهشة بريئة ، وكنت أعرف أنه سيقول ذلك.

واستدرك بمحبة وثقة : ـ طبعاً أنت لا تقصد شيئاً . ولكن الناس يلاحظون .

ثم لحق بالمتجمعين لنتجنب الحرج والملاحظة . وتابعت تقدمي . فتحت الباب ونظرت إليهم : ملفاف الزمن يدور بينهم ويدور ، وهم يسيحون حوله عائمي العيون . دلفت فصرت في الحديقة ، وفي خطوتين نفذت إلى الشارع . استقلبت البحر الرازح تحت الليل والكهرباء . وكانت الأبنية تتعرى في حقول السكون . ووشيش البحر العميق يعلو في الجو الأبلق . تحسست موضع معوري الدبق ، واضطرمت : متى يعرف أخي انني نذل ، وانني ممثل ؟

— ٦ —

هتف أبو خالد :— ماذا ؟ هل انضممت إلى القافلة؟ قافلة الضياع والتمزق والحزن في كل مكان ؟ أم لعلك فضلت العمل النسائي ؟ سمعنا أنك لففت حولك شلة من البنات في الجامعة ، كلما غابت واحدة واستك أخرى . أنت أفضل حالاً ، فلم تلته بالتفكير القومي . الشباب هنا يستيقظون في المقهى . اهترأت أوراق اللعب . قوافل النضال تقود الزحف المقدس عبر شوارع المدينة . الكونكان والطرنيب . طرنيب ، طرنيب ، طرنيب . سمعنا أن صاحب المقهى سيحيل مقهاه إلى فندق . هها ! هها ! على أية حال : سآتيك هذا العام إلى فرع اللغة العربية . أنت تستغرب ، ما ؟ بعد ربع قرن . ومع هذا فسأسكن معك . أرجو ألا أحرمك من امرأة صاحب الغرفة — لا بد أنك تشتري جسدها بطريقة ما . لكنه سواء عندي . سأسكن معك ! قل لي : هل خطبت ؟ أم تفضل : مثل الشباب الثوريين ، أن تعيش على أعراض الآخرين ؟

وأسير إلى جانب أبي خالد على الرصيف المزدحم ، وقد

تقوس شاربه الضخم فوق صدغي . حديث شجي ساخر عن « قوافل النضال » الناعسة ، تخاله ــ كما يمكن أن يحدث دائماً ــ أحاديث مستفيضة عن الذات : كان يطارد مرة أحد المتهمين بقتل عدنان المالكي فارتمى على زيتونة فأقتلعها . وتميل ساقاه كأنهما تهمان بالالتفاف على بعضهما البعض ، ويسير فينفض من حوله السائرون ، وكتفه الأيمن متهدل إلى الأبد .

قال : ــ تؤكد لي ذاكرتي أنك كنت فيما غبر من الزمان تمارس العمل القومي ، وان كنت أشك في ذلك الآن برغم كل شيء .

قلت متبجحاً : ــ إنني أغوص في ذاتي .

وضحكت ، فضحك معي . عند دورة الخليج الصغير تلوح فجأة بين نهر البشر المتحرك قامة ، وتبرق عينان . طلعة رشيقة تنتصب ، وشفتان قصيرتان تنفرشان بابتسامة . وامسك بكوع أبي خالد ، فيخب نحوها مرتج الكرش ، ونقف معاً . كانت تمشي مع امرأة أخرى . ويتمدد هو نحو الأعلى ــ كعادته عندما يتعرف بامرأة ــ وأخاطب الثلاثة باسماً :

ــ هذا هو أبو خالد صديقي . نضالي قومي من الطراز الأول ، مهدد بالسجن دائماً وسمي أبا خالد تيمناً بخالد بن الوليد . وهذه هي . . مرام .

وبدلاً من أن أقول « خطيبتي » ذكرت اسمها .

هكذا بلمحة عابرة . انسحبت وأختها تلفهما غبطـة متخوفة .

لعل ذلك أعطاه وخزة عاطفية : بدأت كلماته تبتل بالحزن والجدية شيئاً فشيئاً . فارقته لذعة الدعابة وهو يقتطع من كبرياء نفسه تعابير مقتضبة عن خيبته . العالم الذي انهار بسبب ما أسماه « عملية ائتلاف الحس القومي . » وراح يطلق الادانات ، يتهم فيحاكم ويحكم بالموت .

وتحول في لحظات إلى محض وجدان مصدوم بأمنيته الوحيدة .

— ٧ —

كان المساء في آخر دقائقه ، ويكاد يبدأ الليل . اخترقت الساحة ، وفي منتصف شارع هنانو رأيت سزي مقبلة . التصقت عيناي بوجهها الأبيض الوديع . وسرنا نتقارب على الرصيف الخفيف الزحام . كان لا بد أن أضبط عينيها تنظران إلي في مرة واحدة على الأقل . ولم يتم ذلك إلا عندما كدنا نلتطم بسبب تقصدي للمسير أمامها . رفعت عينيها ، وابتسم وجهها راغماً ، وانفرجت شفتاها الرقيقتان . وبنوع من التغمية أطرقت وتابعت خطوها . كل تلك الحركات جرت بحيث لم يستطع أحد من المارة أن يلحظ شيئاً . توقفت متشجعاً بابتسامتها ، وبدأت بمخاطبتها . وهنا أسرعت تقول بذعر :

— لا تحك . لا تحك .

— ٨ —

نهضت بخفة وقد جافاني النوم . لبست ثيابي وانطلقت عبر الشارع . بعد قليل اهتديت إلى المكان . عرجت على خمارة فابتعت بطحة . وعلى الطريق رحت أشرب منها ثم أعيدها إلى جيبي . وكان حلقي يتشقق : في الزوايا المعتمة رحت أشرب. وإذ انتهيت عرجت على خمارة فابتعت أخرى. هبطت إلى البحر وانطلقت شرقاً . وجلست على أحد المقاعد العامة حيث شربت حتى أنهيت الثانية . وبعدئذ سرت إلى جانب الجدران .

وصلت إلى المكان قبل الوقت الذي ظننتني سأصل به . كانت الساعة بعيد العاشرة ، وكل شيء في ذهني يستعد لرؤيتها .

عند الباب استقبلتني ، وأخبرتني أن (حبيباً) في دمشق. أخبرتني بهدوء شف عن عصبية ونبل ، وبابتسامة آسرة حملت تذمراً مزمناً . دعتني إلى الدخول وهي ما تزال تبتسم :

قامة كبرياء في الأربعين ، في القمة المرهوبة للجمال والنضج ، وفي تمامِ حنوّها وأمومتها . ابتسمتَ عن أسنانها الصغيرة البيضاء وألحت بصوتها الرنان أن أدخل . ترددت . مسحت على جبهتي وشعري بسرعة وهممت بالاعتذار . لكنها ألحت من جديد : « ولو : أنت مثل حبيب يا ابن الحلال . ادخل ، أسيان . لا يمكن . » وكنت واثقاً من أنها لا تكذب . إلا أنني خشيت أن يبدر مني بغفلة ما تصرف أرعن يؤذي شعورها . وظهرت صغيرتها (ديانا) عندئذ فسلمت على « عمو أسيان » بطريقة أوحت لي بأني ذو مهابة . أمسكتني من يدي ثم جرتني إلى غرفة حبيب . هناك جلست بين السرير والطاولة ؛ ورأسي يطن فيجبرني على التقطيب كيما أرى الأشياء سوية . (علمت فيما بعد أن العرق الذي شربته من نوع رديء لم يسبق لي تناوله ، وكنت كذلك مشبعاً باستعداد مسبق للثمل .) وجلست ديانا إلى جانبي . لكنني نهضت إلى المغسلة قبل أن تدخل أم حبيب . التقيت بها قادمة فابتسمت وسألتني « أتريد شيئاً ؟ » . لم أجرؤ على النظر اليها . أمسكت بالصابونة وقلت بصوت طبيعي « سأغسل فمي . » ونظرت إليها بعد أن استدارت ، وفكرت في أنها لم تدخل غرفة حبيب .

جلست على السرير . وحمدت انشغالها الذي منعها من رؤيتي وأنا أخبط قليلاً في جلوسي . التفت إلى ديانا التي

تركت الباب وتقدمت ، فداعبت ذقنها الطرية وقبلت خدها الحريري سائلاً كيف حالها . نظرت إلي مغتبطة وأجابتني بلباقة . ودخلت أم حبيب تنظر في وجهي مباشرة وجلست مطوية الذراعين حول البطن . ولئلا أنظر مباشرة أنا الآخر — إذ لم يكن ذلك ممكناً من كلينا في نفس الوقت — رأيت عيني تستقران بنصف نظرة خاطفة على زنديها وذراعيها — زندان يتهدل لحمهما بكهولة وذراعان مليئان أبيضان . كانت ما تزال ترتدي الأسود حزناً على وفاة زوجها . كنزة صيفية بنصف كم ، وتنورة سوداء خالية من أناقة العصر . تكلمت عن حبيب مفسرة تغيبه ومنتقلة بذلك إلى نوع من الاستنكار المشبع بالهدوء والكبر ، لتصله بعدئذ بالحديث عن فلسطين ، وخيبة أملها في الحكومة وفي ابنها. وتأملت خلال ذلك عنقها الجميل الشبيه بعنق أمي . وخطوط السنين التي اختبأت في ثنايا جلده الأبيض . كلها كانت مثل أمي : وجه ضامر وعينان لا تبرقان إلا عندما تغتلي النفس بالانفعال ، ناصية شعرها المختلط فيه السواد بالبياض ، وجنتاها الشاحبتان اللتان تبرزان لينحدر تحتهما الخدان . . وتلك الصرامة المثالية التي لا تقبل المزاح إلا عندما تكون أصغر الأشياء الجدية في أقصى سلامتها، والتي لا تعرف من أين يخترمها العطب السريع . خمنت مسبقاً ما سوف تقول . ولكني نصبت جذعي على السرير وعقدت حاجبي جيداً ، واحتويت وجهها بعيني وتلك الفسحة الصغيرة

تحت الأنف حيث نمت شعيرات بيضاوات . قالت ان سلوك ابنها لا يعجبها : وانها بصراحة لا تستطيع أن تنتظر منه شيئاً من سيرة أبيه ، فهو لا يشعر بأي دين عليه : ولا يسعه أن يفعل ما يفعل الابن البكر في أية أسرة ؛ وأنه أنا من تعتبره ابنها الذي تمنته ، وأنها تتكلم لتعلن بصراحة أنه ما من شيء حولها يحملها على الاعتقاد باستعادة فلسطين .

قلت لها ان فلسطين ستعود حتماً ، وان علينا أن ننتظر تبلور السياسات في العـالم العربي . لم تجب . فبين عدم التصديق والأمل والتعب يموت الكلام . واستدار وجهها إلى النافذة حزيناً صارماً . تكلمت دون أن تنظر إلي ، بصوت ذي رنينين متميزين من الصبا والشيخوخة ، كان خيطاً من القصدير يمتد في بلوره العذب . وأجمل الأشياء أنها لم تكن تشتكي بل تحتج . ماذا حوت نفسها لكي تبدو بكل تلك البسالة ؟ إن عشر سنوات الزهو والريعان من عمرها مرت في قفص من حديد ، ومن غير أن تضعف .

انفرج الجو الآن قليلاً . تمازحنا في الحدود المقبولة التي يرسمها ، ليس العقل بل الاحساس . على أنها حتى عندما مزحت وضحك صوتها أوحت بالحزن : أوحته بروعة ، روعة لا تدانيها روعة في العالم . وأحسست بالرغم من رقة شفتيها أنهما يمكن أن ترويا النفس في قبلة طويلة . ورحت أتصور كيف يمكنني أن أقبل فمها — مع هذين الكتفين

المليثين والصدر الدائري العبل – أتصور بغبطة فائقة روعة الكتفين والغنى المنحدر منهما حتى الصدر وزنديها وكلها – صورة تغذي النفس بأدق الانفعالات وأحرها ولا يمكن أن تنسى . وخشيت من أن أراها ، ولم أستطع أن أراها كلها . وزرعتني البداءات فرقاً ووجيفاً قبل أن تتم في الذهن بنسغها الشبقي العاري . وبقيت عاجزاً عن اتمام أيها ، فليس الا اقترابي منها ما أمكنه أن يستريح في النفس . لقد واقعتها عيناي أكثر من مرة ، مع أنني لم أجرؤ على رؤيتها ، رؤية وجهها . وغرقت بقية الصور في ظلام كالثلج والموت .

نظرت إليها وامتلكتها ، لكن جميع الصور نفرت دونما تردد .

وبدا ثوبها حينذاك قطعة دجى تقف بين العينين والجبل .

نهضت تقول « لم تذق قهوتي منذ أعوام » واستدركت متسائلة « صحيح يا ابن الحلال ! أنت لم تأت البلد منذ عهد طويل ! » وضحكنا ، ثم سارت . تحرك ردفاها المتعبان باتجاه الباب واختفيا . أحسست بشبع وبانزياح عن جسمي أشبه بلحظة هدنة . تراخيت واستندت إلى الطاولة . انتابتني جشأة عنيفة ، ضحكت لها (ديانا) ضحكاً عالياً ، ثم أشعرتني أنها لن تعتب علي بسببها . انتبهت إلى تنفسي وقد اقترب من أن يكون غطيطاً . ولأمنعه من السيطرة مددت يدي إلى وجه ديانا الفتي ورحت أمسح عليه ، ثم على شعرها المسفوح

فوق الكتفين الصغيرتين . ابتسمنا . وبدأت تتحدث . أمسكت بيديها فأسلمتهما بفرح ، ثم من خصرها . ورفعتها في الجو قليلاً وأنزلتها — قصبتان ناعمتان كوجهها بيضاوان أحسست أني في أمس الحاجة لملامستهما .

عندما دخلت الأم كنت قد مللت من التحديق في الأشياء وامتلأ جوفي بالحرارة . ولم أجرؤ على رؤيتها . تناولت الفنجان من اليد الكهلة ، وفوجئت ببعض القهوة ينكب على الصحفة بسبب اهتزاز الفنجان . وابتعدت عنها باتجاه السرير فهبط خوفي منها كما تهبط فورة الحليب . وتعثرت عيناي في التقائهما بوجهها الضبابي المتعذر الرؤية . واستشرت الحرارة والنعاس في ضمير الحزن . جلست هــي معقودة الذراعين على الكرسي المذرّع . وتحركت في الخيال أنصبة الأقدمين المتعفية . وذاب الحزن في عروق النفس لاغياً جميع التلقيات العادية . جلست مقابلاً لها ، واحداً كامداً ، بلا أجداد ولا ارث ، عاشقاً وابناً ومفترساً . وهجمت نفسي عليها تحبها ، تعانقها وتضمها وتغمر رأسها وتجعّد جسدها ، وتستحيل إلى تراب .

وبقيت الأسنان مطبقة فوق الكلمات .

ولم أستطع رؤيتها فرحت أتصورها .

وضعت الفنجان على الصينية . وهممت بالخروج من

سجني بين الطاولة والسرير . لكني عدلت اذ لطمت ساقي بساق الطاولة . قالت « اجلس . ثم عندنا اليوم ، ديانا ، احضري بيجامة أخيك الأخرى . » شكرتها بوداعة وأعلنت تصميمي على الذهاب متناولاً بجرعة واحدة نصف الفنجان المتبقي . وضحكت هي بحنان وعمق وخفوت « لكنك لا تحسن المشي يا ابن الحلال . » نظرت إليها بدهشة ، وبرقت عيناها . وفجأة ضحكنا معاً ضحكاً قوياً عالياً . قلت « لو قلت لي أنك تعرفين ، لوفرت علي جهودي لاظهار الرزانة . على أية حال : أنا ذاهب . » وابتسمت مغرغرة العينين .

تعثرت بالسرير الثاني . مددت يدي تلقائياً لأتفادى الوقوع فجاءت على ذراع كرسيها . كانت قد نهضت لتسندني . لكنني استندت على الكرسي محني الجذع . ضحكت ملء فمي ، ثم أعلنت :

— سأقول لك . أنني انسان مخفق . وكلما تصدع في نفسي أمل جعلته ينهار ، فليس فخراً الاحتفاظ بالآمال المتصدعة ، وبنيت بحجارته أملاً آخر . ولكن الحجارة لم تعد تستطيع إخفاء وجهها القديم . صارت رمزاً للخيبة . اننا نساوم على حياتنا ، ونتعالى كذباً حتى يأتي يوم يفرض علينا الموت نفسه ولا رجوع إلى وراء . هل تعرفين ما هو اليأس؟ أيتها الأم الغالية ؟

أمسكتني أم حبيب بيدي ففهمت أني أترنح . انقلبت إلى

اليمين ، وسقطت ركبتاي على الأرض . وضرب رأسي بحجرها . رحت أغط وأغمضت عيني مجهـــداً . أحسست بأصابعها تندس في شعري . استدارت ببطء وجلست على الكرسي . وتزحزح رأسي ثم استقر بين ركبتيها . أمضيت لحظات نصف مسجى والقولنجات تمزق أمعائي .

قالت هي مختنقة : — إذن ! وأنت أيضاً قوي عليك الضعف .

حاولت النهوض ، وساعدتاني . كانت ديانا تحمل البيجامة عند المغسلة رشقت وجهي ورقبتي بحفنات الماء البارد وأعلنت « على أية حال . أنا ذاهب » . وكانت تبتسم وعيناها مليئتان بالدمع . قاومت محاولاتها لأن أبقى وأنام ، وأصررت على أن أودعها وداعاً .

كان الليل أبلق وهواء الخريف يركض من ورائي وأمامي. احتميت بالجدران وشددت يداً على بطني . ومرت سيارة بضجة فظيعة ، وبعد هنيهات توارت . انعطفت في الشوارع القاحلة . ومن بعيد شع ضوء أحد الحوانيت .

عند أسفل الدرج تعثرت ، وسقطت عليه . نهضت بتلكؤ فرقيت درجتين وتعثرت ثانية . واندفعت من فمي كمية من الطعام السائل ، فأسندت يدي إلى الجدارين . صعدت ثانية ، وتعثرت رجلي بالسائل فانقلبت على ظهري . واندفع السائل ثانية فمرغ قميصي . عندما ارتميت على الدرج أحسست بوجع في ظهري . أحسست أيضاً بالتعب . وأسلمت نفسي .

— ٩ —

قابلت مرام في الموعد الذي حددناه معاً . نادي الضباط ، موقع اللاذقية . شرفة فسيحة تنفتح على البحر وترتفع عنه أمتاراً . وصندوق موسيقي يبعث بأغاني فيروز دائماً . المقدم وزوجته وأخت مرام ، ثم مرام وأنا . الاستقبال كريم . وفنجان قهوة . طلبت الزوجة قهوة أيضاً ، مجاملة لي . مرام في ثوب جميل : عينان خضراوان وجسم من النوع الذي أحبه أو أنحف قليلاً . الحديث مرح وباسم ، يكاد يرتمي في الصمت لولا عنايتي به . استطعت أن أفهم من اعراضهم عن السؤال عني أنهم يتوقعون، أو على الأقل يعرفون ، أني جئت خاطباً . ويقول المقدم على سبيل النكتة « هل هـذه الياسمينات مسروقة؟ .» وتقول زوجته « يبدو أنها مسروقة ، حلو ! » فيترزّن هو ويقول « سرقة — كلا . نحن لا نقبل سرقة . » ونضحك . وأقول بعدئذ محاولاً أن أعرف شيئاً من عادات مرام « وهل كنت تريد أن أحضر لها كتاباً ؟ » ونضحك من جديد ، فيهتف « القراءة ؟ انها لا تفتح كتاباً . » ونضحك

ضحكاً متواصلاً مصقولاً فتقول الأخت « انها تفتحه لتنعس فتنام . » ونضحك مرة أخرى . تغمغم مرام متحيرة « لا يا جماعة ، لست كل هذا . » ويؤكد المقدم « مرام ، أنت لا تقرأين . » فتجيب هي « ولكن القراءة شغلة طويلة لا تنتهي . » وأدرك أنها خائفة فأسرع إلى القول « لا بأس : الياسمين لا يتسقط الندى ، انه يستقبله . » وهللنا للجملة العجيبة. قالت الزوجة « أخ يا مرام ! أتسمعين ؟ » .

رفع المقدم رأسه صوب البحر وابتسم لفكرة طرأت له من دوننا جميعاً . وظل هكذا حتى بعد أن تبادلنا التعليق الثاني والثالث . ومن هناك هتف « يبدو أن لدينا حركة جيدة في الميناء . » صمتت النساء تقديراً لفكرته ، ونظرن إلى الميناء . بعد هنيهة بدأن حديثاً عن الأحذية . شاركت فيه فعلقت الأخت باعجاب « إنه يفهم في الأحذية ! » وقال المقدم « أين هو هذا ؟ فليضع لنا أغنية ما . » واعترانا الصمت . قلت « البحر هادىء هذا المساء » . فابتسمنا . وعدت إلى القول « رائع صيد السمك في ضوء القمر . » وهللت الزوجة للفكرة بحماس كبير . وابتسمت مرام بلا معنى – بوجل وحبور وإذعان .

بعد حوالي الساعة أخذت أرقام الهاتف ، ونهضت فودعتهم .

جئت بوران . رويت لها قصة مرام من أولها حتى ذلك المساء ، وارتميت على الكرسي . وسألت وهي تضغط على المحرك الكهربائي فتنطلق آلة الخياطة « والآن ؟ » قلت «أراني مستمراً لأنه ليس هناك ما يدعو لعدم الاستمرار . » .

وتلك كانت آخر لحظة اهتمام بالموضوع يمكن أن تهبها بوران .

— ١٠ —

قال المقدم : — تبين لي من حديثك أنك على شيء من التحرر والاطلاع على الحياة الأوروبية . ولا أكتمك أني أخشى كونك ملحداً ، فالمنحرفون بتأثير أوروبا عن دينهم كثيرون . وهذا يجعل علاقتك بمرام على شيء من الصعوبة . انها صغيرة ، ولم تتفتح على الدنيا بعد فهي صغيرة السن جداً . انها غريرة وعلى شيء عظيم من الجهل بالحياة . انما المهم دراستها وأنها كما يجب أن تكون : تصلي الأوقات الخمسة وتصوم رمضان وتقرأ القرآن لأمها كل صباح . إنك لن ترى وجه أمها حتى بعد أن تتزوجها ...

وتابع كلامه كأني لم أقاطعه : — نحن أيضاً متحررون . متنورون ، نتطور مع الزمن .. لقد رأيت أنها تمشي وتسافر سافرة بلا ملاءة . ولو كانت فتاة غيرها لما جعلت صلتك بأهلها وليس بها ...

وقال المقدم : — إنك تنوي أن تشتغل بالمسرح . وما

دمت كذلك، أنت ستلحق بك زوجتك في هذا الاتجاه، أليس كذلك ؟ أنا لا أمنعها شخصياً . ولكن علاقتها بأهلها سوف تتحدد ، وربما قطعت ...

قال : ـ المرأة هي المرأة منذ أيام محمد عليه السلام ، ومنذ بدء الخليقة . والرجال قوامون على النساء . للمرأة حقوق ، اعطها لها ، وواجبات ، طالبها بها .

قال : ـ بصراحة ليست تعجبني هذه الأساليب الحديثة بين الشباب والبنات . ومهما يكن فلمرام رأيها . نحن لا نجبرها. لا تعتقد أنني لست متحرراً . إنني متحرر إلى أقصى حد ، أكثر منك . ولكن مرام لا تزال طفلة ، وكما قلت لك على شيء عظيم من الجهل بالحياة .

قلت له . وهي جملتي الوحيدة التي أتممتها : ـ اننا يا سيدي نختلف الآن ـ ولن نتفق ـ حول ما سيجعله الغد زياً قديماً للحياة . كل ما في الأمر أننا نبقى نختلف حتى تنقضي أعمارنا .

كان كل شيء عبثاً حتى إعلان السخط . ودعت المقدم وهو لا يزال منتصباً منافحاً عن كل الأشياءالثابتة . تركت محاولتي لأن أكسب لحظة انتصار على ما هو سخيف كل انتصار عليه . شيء واحد كان مؤسفاً : لقد بدا عالمي باهتاً أمام عالمه ، ولم يستطع أن يكون طرفاً حقيقياً في صراع الأضداد .

— ١١ —

على أية حال . لقد انتهى أمر تافه . وطوقني الشعور المؤلم بضرورة الانفصال : بوران تغسل لي ثيابي ، وتضطر لطهو وجبة في المساء لأجلي . ان عدم اكتراثها الفظيع يظهر أحياناً في انقلابات معاكسة حاملاً ثورة عنيفة لا تمكن مجابهتها .

رددت فكرة عودتي إلى دمشق بسبب نتائج الامتحان كيما أغش نفسي . لكن يقيني من أني لن أعود إلى اللاذقية جعلني أتردد في الذهاب الفوري . وتجمهر كل الضيق والغربة في جو المدينة المكدود . بدأت أكتب رسالة ، ثم أخرى ، وثالثة . نادتني بوران وأنا أفرك جبهتي لنتعشى . كانت تسير في البهو بحيوية عاتمة وقد شاء مزاج زوجها أن يمنعها من الخروج للنزهة . ألقيت القلم ومزقت أوراقي . رأيتها تحمل بطيخة حمراء ، ثم تتقدم من النملية فتخرج بعض الجبن . التقت أعيننا فلم نبتسم . وسارت هي مرفوعة الرأس ، مطبقة الفم ، عصبية . تبعتها إلى السطح ، وكنا راغبين عن الكلام . صعدت هي تضرب الدرج بممشاتها كأنها تعاقب شيئاً . على

السطح تأملت الشمس المتكتلة بالأرجوان وراء غيمات معتكرات . انبثق نزار فجأة ، يتدحرج وراء كرته الكبيرة . وسقط فانقلب مرتين ، ونهض بخفة فلحق بالكرة . عندما أدركها توقف ونظر إلى رضفته . مسحها بيده ، والتفت إلي يهز رأسه بتذمر شجاع . وأقبل فانهال علي بأسئلته التي لا تنتهي . وأقبلت بوران تحمل أدوات الطعام وتطلق زفيراً . قالت : « ألست جائعاً ؟ » وأجبت باقتضاب : « بلى ، يمكنني أن آكل . » وكان الغروب يلون السطح بالأرجواني الداكن . أنصت لحديث بوران المتقطع بصمت ثقيل ، وشاركت فيه بحركات عيني . وتنتهي قصة فأجرض بريقي ، ويقفز نزار على السطح رخي البال .

سألت : — متى تعود ؟

نظرت إليها بدهشة ، فقالت : — قلت إنك ستذهب إلى دمشق بعد أيام . متى تعود ؟

تهنهت قليلاً ، ولقمت قطعة بطيخ . قلت : — لن أعود. علي أن أبدأ عملي في المدرسة .

وشد عروق عنقي وصدري احتقان مفاجىء . صمتت بوران قليلاً . وأحست بثقل الصمت فتحيرت . وبعد قليل عادت تقول :

— أي كلام ؟ يجب أن تعود . ابق هنا حتى تبدأ

الدراسة في المدرسة .

رفضت ذلك برفع عيني : اللتـين بدأتا تجيشان في محجريهما . أما هي فقالت :

— إذا بقيت هنا غيرت جوّك . سوف تتمتع بالبحر ، وبالشرب على السطح في المساء . وسوف أجد في بقائك سروراً لي . ابق ، ونذهب للقرية . وعندنا كثير من الأشياء ، سينما ... مشاوير ... وسنتحدث .

أحسست بضغط قاس على صدري . وكنت مطرقاً . عندما حولت عيني امتلأتا بالماء . وضعت اصبعي فوق حاجبي ثم فركته . ولكن الضغط زاد على صدغي . وهتفت بوران :

— لا ، أسيان . ليس كل هذا .

ففطيت وجهي بيدي ، وصارت هي تبكي أيضـاً . أحسست بتعب عظيم ، وشددت أصابعي على صدغي وعيني . نهضت إلى الغرفة الصغيرة المجاورة ومكثت هنالك ريثما خف ضغط الدمع . وبقي صدري يضيق كأنما بحشأة . ونادتني هي فنهضت وصعدت الدرجات . لم أحدق إلى شيء ، إذ جعل ذلك يضايق عيني .

كان الظلام قد ذر غباره في الفضاء ، والبحر قد صار رقعة من الليل .

الفصل الثالث

— ١ —

فوزية أيضاً . تحت العين واليد ، وفي المرآة العاهرة من ضمير المدينة. الزوجة العبء الذي يحمله أبناء بلادي العاهرون ، تفضي اليه حياتهم وتألم منه ، ويحتزون أعصابهم به وأعصابه . وليس أحد راضياً . لم تكن حياتها تذهب سدى . ولا هي نعت مثل حبيب عبث الحياة ولا جدوى التعب . استلقت على بساط الزمن ولم يسحب من تحتها . لا هي تعثرت به ولا هو التقى بها . ووقف حبيب بأطراف أصابعه على أطرافه يستجوب كل ما ابتدعه البشر . باستثناء لقاء جنسي مع ذات الابتسامة الفجرية : تتنحى الهموم ، تهدأ جائشة النفس ، ويشبع الذهن المتغرب من لمس التحطيم التام لقيم غير ذات طعم . وبعد دقائق ينهي تسريح شعره في مغاسل الجامعة ، ويستدير نصف منحن لعظم طوله ، إلى حيث توقع أن يراها ، هي الضئيلة بين النساء ، المغمورة بشبقها العظيم . ضربة أو ضربتان وتتحول السدود إلى جداول . «انها تريد أن تعيش . أنت تفهم طبعاً . ولكنها لا ترهق أحداً بعالمها ، لأنها

تعرفه مستحيلاً . » .

يقول مجد « كلنا كان يخون . » .

ويتوقف حبيب عن الكلام مدقدقاً إلى حيث رأى أبا خالد مقبلاً ، فيودع بسرعة ويختفي . ويسلم أبو خالد . فيضمني إلى كفتي ميزان مختلتين هما كتفاه . وسرعان ما يخاطبني ذلك الجو الكثيف المضني من صفاء بلدي عميق لا يحاسب مهما اشتد الخطأ ، فتتخلخل كراهياتي ومحباتي ويربض على الصدر عالم نبيل قاحل : أبو أبي خالد وزوجتا أخويه ، وأمه ، والزبدة البقرية وثمانية وعشرون عاماً .

تجولت عيناه حوله . وارتسمت طيّ وجهه الصغير رهبة هذا العالم الجامح الذي يلجه ، منسلة إلى كثافة نفسه المعتدة ، ومندثرة في مطاوي سخريته . احتفت عيناه بكل ما رأتا . وتقدمته مسبحته وبطنه الواسع . وأيضاً مكّن له الصمت الشغوف أن يلملم دهشته . انتصب حتى الأعماق أمام ما اعتقد أنه يواجه به بوابة الخطر التي ولجها فوجد وراءها الجامعة . هنا حيث تنبت التجارب وتولد الأفكار وهو ناء عنها . وأمسك بزندي وشدني إلى الخارج . « لا بد لك من السكنى معي . تركت أهلي وأخوتي . لا بد لك من الحلول محلهم » . وأقول له « إذا كنت قد تركت الشعر فيني وبينك سد الصين العظيم » .

بعد بحث طويل اعتقدنا أن الدلاّل البطين القصير سوف يهدينا أخيراً إلى الغرفة الملائمة . وعرج على طول الشارع يظلع إلى اليسار ، أبو خالد يكاد يلطمه بحركة رجليه العامدة ، وأنا أتقدم الاثنين بأمتار متلفتاً بين الحين والحين . انتقلنا من غرفة إلى أخرى ، من غير أن نرضى معاً بواحدة . ومر الوقت فازددنا جهلاً بنوع الغرفة التي نريد . حنقنا على الدلاّل غباءه وجهله . ولامس أبو خالد بكرشه صدره فجعل يرجف ويتأتىء حائراً كارهاً .

صرفنا الدلاّل ووقفنا تحت شجرة . نظرت إلى الساعة وكانت الثانية . قال أبو خالد إنه لن يتغدى قبل أن يجد غرفة . جلست على حاجز الحديقة الحجري ودخنت سيجارة . قلت ان غرفة ما في المدينة ليست مطلباً يسهل نواله . وقال هو « لم آت هنا لأشعر بالغربة . سأجد مسكناً متحضراً وأدوسه بنعل موحل . » رفعت رأسي نصف مصغ ، نحو المباني البيضاء ، التي اكتظ بها جانب الشارع الأيمن . نفثت دخان السيجارة . وكرهت الالحاح وقتئذ فانتظرت أن يعدل عن عناده ويؤجل البحث .

استمر رأسه يلتفت يمنة ويسرة ، كأنه يتوقع غرفة تأتيه من الشارع وتقدم نفسها . قال « انني أنا من يدوس على وجه الحضارة . » وبرزت طفلة في نحو الخامسة ، فهتفت بها « بس ، بست . » استدارت فأشرت لها أن تأتي . إلا أنها

نظرت قليلاً ثم تابعت سيرها . وغاظني ذلك . قلت له انني أحتاج إلى بعض النوم فاما أن يكف عن عنـــاده أو أذهب فأتغدى . ولكنه لم يتكلم . بقي يلتفت خفي الحرج . وقد أمسكت أصابعه وريقات من سياج الحديقة . ورأى في انتظاري تغيير رأيه فقال « أنتم جيل خرع . تجابهكم المشاكل فتشيحون عنها . » رميت سيجارتي وقلت « اننا لن نجد غرفة إلا بطريق الصدفة وليس الآن وقت الصدف . »

من العمارة المقابلة برز طفل في نحو الرابعة واجتـــاز الشارع . وصل الينا وأمسك بالحاجز الحديدي وأخذ يميل إليه وعنه . قلت له « داذا ، مرحبا » فالتفت ولم يجب . قلت « هل لديكم غرفة للايجار ؟ » وتدلت يداي بين ساقي . وتوقف الصبي عن اهتزازه ، ونط إلى الأرض مهرولاً نحو البيت .

قلت لأبي خالد : « في الأحوال العادية يمضي المستأجر أسبوعاً قبل أن يغدو مستأجراً . » فتقدم مني كاسف البال ، ورفعت رأسي . قال : « هل تعبت أنت الذي سيحرر الأمة العربية ويوحدها ؟ » هززت رأسي وتأملت الرصيف والأمة العربية . وتوقف هو يتابع تلفتـــه اللامجدي . برز الصبي عندئذ وهرع الينا. «تعال معي»، قال، وشد أبا خالد من يده.

حديقة السبكي . وذلك الشارع الأبيض ، وبناياتـــه البيض . القبو المنير الذي احتوانا بقية الشهور الجامعية . القبو الفسيح المنير. احتضننا باتساعه الأبوي ، حيث ارتاحت

أجسامنا على أسرته وتعبت رؤوسنا . هنالك امتد شاربا أبي خالد في فسحة غرفته ، ورفعت ساقيّ على إحدى الكنبات .

عندما جئت غرفتي السابقة بعد يومين لأنقل ما أحتاجه من أشيائي ، جاءني جاري مطوي كمي القميص ، وقد فرغ للتو من وضوئه . تركت السرير والفراش له — تركتها ! — وأنزل الحمال الحقيبتين . وبين أدعيته واعتذاره بضرورة الصلاة ، لملمت أشيائي الصغيرة وخرجت . عند السلم الثاني لمحت فوزية متشحة الرأس بنقاب أبيض ، مستورة الذراعين ، وجسمها الطويل العبل يستند إلى الجدار مراقباً . قلت لها : « بخاطرك يا ست . » فلم تجب ، واكتفت بالابتسام والتحديق . نزلت على الدرج ، وسارت هي إلى المغسلة. وكان ذلك كل شيء

قال أبو خالد : « لا تزعل . سوف تعوض لك صداقتي فرق المنعة » وابتسم بمحبة. ثم لم يضع وقتاً . بعد كلمتين أو ثلاث قال بشرود : « أسيان، تشتتنا . يجب أن نعمل شيئاً . . صارت مشكلة الناس الدولة لا الفقر والجهل والمرض . . » واستمر طيلة وقت الغداء يقرع باب النفس بذكرى الأيام التي أعطت ، وأعطت له ، أهمية مريحة بالتبشير الذي ملأ جوارحه . لقد نشأ وفي فمه لعاب الايمان وبين يديه أمجاد محمد . ولم يعد صعباً عليه أن يفهم ما قاله قائد مصري في لحظة يأس عن العرب الأصفار . وكان ذلك بدء تصدع ملأ وجهه في تلك اللحظة بالكآبة والازدراء .

قلت منسحباً : — اذكر صديقنا أحمد الطويل عندما قيل

له هذا الكلام فأجاب : أنا سلبي تجاه الأحداث . هل تعتقد أن في موقفه شيئاً يشجع ؟ » .

. وأكملنا وقت جلوسنا صامتين ، وقد عاب كل على نفسه هذه النهاية . بعد قليل أنهى هندامه وخرج .

بحضور مسعود انكمشت كومة النبل المتبادل بين أبي خالد وبيني . وصرنا أكثر انسجاماً . « أنا لست وسخاً يا أبا خالد . أنا بطل معاصر . » وعاش كل في غرفته دنياه العظيمة الخصوصية . حتى إذا اجتمع اثنان تعالت الكومة من جديد . وبالشكل الذي أحبته سزي ومرام وأبو خالد معاً . مجموعة المكارم الحميدة التي تقي النفس من شرها الأصيل وفطرتها الموسومة .

مسعود : دون جوان العربي الذي طلب الحب فوقع على الجنس وظل بلا نساء . ودع اصدقاءه في كل مرة أسعفته الصدفة بسيدة أو عاهرة أو فتاة . ملك الجهات الأربع . « سوف أرفع حتماً أول العام ، فهذه هي المرة الثالثة . » وينزل سدارته على عينيه متطلعاً إلى « أبي خالد الجبار . » ويضرب في الشوارع الصاخبة بعنفوان الريح حاملاً في جيبه حبتي نرد ومنفقاً وقته في اللعب وتزويق الكلمات وكتابة القصة . في الليل يأتي أبا خالد المستلقي « كإشارة تعجب مضطهدة » وكتابه على الفراش ، فيدير فوق رأسه المتغافل بطحة العرق وينقط منها على الشاربين المسترخيين . ويرفع أبو خالد عينيه إليه. تمر لحظة سكون. ثم يحدث في وقت واحد

أن ينقذف اللحاف ويثب وتسمع الكلمات « أنا مضاجع حضارتك » ، ويهرب مسعود إلى غرفته . يلتفت هو باحثاً عن شيء لا يجده . وتمضي لحظات ، ثم يقصد غرفة مسعود فيتناول الكبريتة عن الطاولة . يتمتم « هكذا كان يفعل أجدادنا » ، ويغلق على نفسه باب الحمام .

ويصيح مسعود : — يا الله ! انظر إليه ! كل الناس يقصون عاناتهم بالمقص أو يحلقونها .

بعد قليل ينخزل في سريره . واضعاً يديه تحت رأسه ومحدقاً إلى السقف الأملس في وضع سكوني محيّر . ينهي أبو خالد الكبريتة ويعود إلى صمته وكتابه . ولا يلتفت مسعود إلى شيء : لكأن الملهاة التي مثلها مع رفيقه قد انتهت منذ مئة عام . ويرمح القبو في سكون الليل وقد سحّت منه الأضواء على ليل الجنينة الصغيرة . ويهجم النوم على المقل التي ترى دائماً ، فيكفنها حتى الصباح .

في الضحى انهض من النوم للمرة الثانية فأرى البطحة والغرفتين خاليات ، وعلبة الدخان .

أبو خالد بطل الاخلاص والتضحية في العالم . « استاذ ! عندي أب وأخوة وأم علموني الكثير . تصور أن عمري الآن ثمانية وعشرون ، وهم يمنعونني من العمل ، أنا الأصغر . استيقظ في الصباح فألبس ثيابي ، وما أن أضع يدي في جيبي حتى أحس بالنقود . من وضعها ؟ لا أعرف . وزوجة أخي :

تغسل لي ثيابي بنفسها وتكويها ، قبل أن تضع يداً على ثياب زوجها . وزوجة أخي الثاني : لا تذوق الطعام ولا أولادها — يجب أن يكون أبو خالد متصدراً المائدة : وأمي لا تزال تحتفظ لي بالزبدة حتى ولو تلفت » . ويستدير إلى مسعود بالفيض والكسل اللذين ورثهما عن أبيه وأمه وأخوته ، سائلاً كيف حال نسائه . وإذ ينكر الثاني أن تكون له علاقات بالنساء يقول هو : « لقد اعتقدت دائماً أن قصصك عنهن ملفقة » . ويصيح مسعود « فشرت » . ويستتلي عنهن حديثاً شيقاً يختمه بقوله : « ألا أن العلماء اكتشفوا أخيراً أن أفضل شيء هو تقوى الله . ولذلك تركت هذا الشغل » . وما يلبث أبو خالد أن يفاجئنا بقهقهة عالية هارباً من عناء الغضب ، ومحتفظاً لنفسه بحكمه النهائي : ادانة ولا مجال للمناقشة .

يخرج مسعود من القبو عاصفاً باسماً ، ويقصد خمارة تزوده بزجاجة خمر . عند بوابة الحديقة يلمحها ثانية : فتاة لا بأس بها . إلى جانبها سار طفل بالغ الاناقة . وتفرست الفتاة في عينيه لوهلة كأنها تثبت فيهما إيضاحاً معيناً . ثم عبرت أمامه ماسكة يد الطفل بحزم ، وتجنبت رؤيته . وراء خادمة ؟ وتذكر أبا خالد والعرق . الخادمة امرأة أيضاً : وتبع ردفيها . عند الخمارة قرر أن يستجيب لالتفاتاتها . مـــاذا وراءها ؟

« أنا التي أرسلتها » ، قالت السيدة ذات العينين الكبيرتين الباردتين وهي تمص سيجارتها . وأغناها قولها عن أن تكون لطيفة . سربلت مسعوداً بنظرة أيقظت ذئبه في أعماقه . ولوهلة انعكس في مقلتيها ضعف عابر ازاء ذكورته المستيقظة ، ثم عادت نظرتها تستجوب جسمه المسترخي على الكنبة . وقالت عيناها في ابتسامة ظفر عابرة « أحسنت البنت الاختيار » .

أما هو فجلس — مسترخياً ، متفقداً بعينيه أثاث البيت . غنياً بصيده . ضائقاً بوطأة اقتناصها له . وطفق ينفرس في أثاث البيت . أصغى إليها تنادمه ، هي المرأة الشامية الجمال ، ثم تأخذ بيده إلى الحمام وترشده إلى غرفة النوم . « أين زوجك » ؟ « عند أصدقائه » . وطوقت صدره بصدرها ويديها ، وغمغمت وسط زفير طويل : « آه ! يا إلهي » . على أنه بقي يتأمل أثاث البيت الرائع ...

عند عودته التقيت به أمام مدخل البناية. لوّح بالزجاجة وضمني بيده . وإذ أحس بممانعتي للعودة إلى القبو ، أرخى يده ونظر مبتسماً ، متهيئاً . تركته وسرت . وازددت ضيقاً لأني ضايقته ، وان تصرفي بدا عقاباً لتأخره . وأحسست به يستدير ويدخل .

بقيت وحدي . سرت في الشوارع المضيعة بلا قرار . وصلت إلى المقهى فنظرت من وراء الزجاج إلى وجوهه الغافلة.

استرخيت قليلاً على سلاسل المنعطف الحديدية . عند السينما تأملت أيضاً أكداس الناس المرتصة . وسرت بينهم متفادياً حصارهم . هبطت إلى النهر وولجت الحانة . وفي البيت المغلق على بشر حضروا وغابوا اقتعدت كرسياً ، وحسوت عرقاً حتّى العاشرة .

أحسست بالهدوء وبالصبر . تمطيت بلا همّ . دفعت الثمن غير منتظر أي شيء . خرجت إلى الشارع ويداي في جيبي . تثاءبت وبدأت أدندن . وسرت عبر الأزقة والحواري فلم ألتفت حتّى وصلت المقهى .

رأيت أبا خالد يدخن ممتداً على الكنبة ، وأمامه المنضدة وكوب من العرق . رآني فمسح تحت شاربيه مطأطىء الرأس مرفوع العينين . كرهته حينئذ . قال : « انتما خائنان ». وقلت : « ألديك شعر جيد تقرؤه لي » ؟

واسترخى كلانا على مقعده .

وصل مسعود إلى باب الغرفة ووقف أمامه . وضحك من غير أن يفتح فمه . قال أبو خالد باستفزاز : « ألن تحكي لنا إن ضاجعت هذه الطفلة » ؟ وهتف الآخر متحانقاً: « واحد كأنت يضاجع طفلة . كلا لم أضاجعها » . فتأملناه نحن الاثنان ، مزدحمين بالأسئلة . وبقي وجهه خالياً .

قال أبو خالد ورأسه لا يزال على وضعه السابق : ــ قل

لنا الآن ، هل غسلت خلاياك ؟

فزغردت عيناه ونبر : — ويلك ! أنا ملك الجهات الأربع . من الطبيعي أني غسلت .. مع غيرها . ولكن هذب كلامك أولاً . يلعنك رجعي .

قال أبو خالد متلهفاً هادئاً : — حسناً ، حسناً . احك لنا ولكن بغير تبجح . قال رجعي ، قال .

ورد الآخر : — أنت تنظم شعراً عتيقاً وتشتغل بالسياسة.

فهمهم أبو خالد بوجه عديم الانفعال : — افهم . انتما تنز منكما الحضارة نزاً وأنا تطز عني طزاً. أفلن تحكي لنا ؟

نظر مسعود باعتراض . على أنه اختار أن يتحدث : — ماذا ؟ دخلنا الحمام سوية . وخرجنا عاريين . أكلنا دجاجاً مع نبيذ إيطالي شديد الفخارة — إذا صح التعبير . ونحن طبعاً نستمخ طيلة الوقت . ثم أوينا إلى غرفة النوم السحرية . . ستائر حرير ، ألوان ، سرير عريض يتســع لحوت ، موسيقى .. لن أصف .. تصورني أضاجع امرأة على أنغام الموسيقى! هذان اللذان في اسميهما بيت وموز .. ولكني كنت مهذباً معها دمثاً إلى أبعد مدى . احترمتها ، واحتويتها . ليس هذا فقط . بل إني عاملتها كسيدة حقيقية . وفي ختام الأمر كله اغتسلنا ثلاث مرات . وجئت . وهذا هو كل شيء .. لا أستطيع أن أفصل .

يهتز أبو خالد ويحتقن وجهه بالغضب . هذا هو الداء كله — داء العرب — الأخلاق . كيف يحيا امرؤ قيس عصرنا وليس في قلبه ولاء . وأين هو عروة بن حذام حامي الظعينة حياً وميتاً ؟ هل أصبح يضاجع حمياته ؟

ولم يكن غضبه موقود النار . أحس ان هذا هو التعليق المناسب فقال له بالنبرة المناسبة . «هل تذكر كيف تغتسل النساء في القرية ؟ حول النبع ! في قريتنا يتدفق النبع عند خانق جبلي شبه منعزل عن المسالك» . وضحك بغبطة منتصرة : مضيفاً : «هنالك تغتسل النساء عاريات وأنصاف عاريات ومن هنالك يمر شخص واحد فقط فلا يذعرن منه لثقتهن بأنه لن ينظر إليهن — أنا» .

طنت كلماته في الغرفة أقوى وأضخم من بالونات سزي التي تلجم السنة الناس : سكت مسعود فلم يعترض ، وسكت فلم أجد فائدة من الاعتراض . وأخطأ السكوت فأعطاه مزيداً من الانتشار . ازداد كلامه عن الأخلاق ، وعن خيبة محمد بنا — نحن الذين لا يهمنا أمر الوطن والقيم الإنسانية ويكتب مسعود في احدى قصصه : «ان نيفاً وربع قرن عاشه زاد الهوة بينه وبين المرأة عرضاً وعمقاً ، وعاشت في عالمه ضمن زاوية مبهمة لا يتحرش بها الخيال ولا الشبق» . الحب جدول ، سرير سملوي . والمرأة هي الروح ، الأثير الذي يستنشق ولا يرى . درة وراء سبعة محيطات . وأزعجه أن

حكاية مسعود ابتذلتها ، وأنها غير ما تجسدت في خاطره . قلت له فيما بعد أن غضبه من أجل الأخلاق يفسر تركيبه النفسي . فنظر إلي بعطف أكيد ومحبة وغفران ، وانبلج الصدق في وجهه — صدق حار متدفق — وهو يلملم أصابعه أمام وجهي ليريني مدى الألم الذي أخترم قلبه ، ليس لأن مسعوداً تمتع « فليهنأ مسعود ، وانما لأن أبناء بلادي يفتقرون إلى ثوابت نفسية هي الأخلاق » .

ولم يكن الصدق صادقاً ، ولكن أبا خالد كان .

قال مسعود : — هذه هي مصيبتك : ليست لديك مصيبة . أنت تنبل .

صاح أبو خالد : — سأضاجع أرباب حضارتك .

والتقط يد مسعود بسرعة ولواها وراء ظهره ، متحكماً هكذا بحركته . ثم تركها بهدوء قائلاً : « أنتم خرع ، هذا الجيل . » ورد مسعود مكايداً : « وأنت لا تحمل سوى هموم رجعية . أرأيت كيف امسّح احساسك بالمرأة ؟ تمر ازاءها وهي عارية فلا تلتفت إلى عورتها ! والنتيجة هذا الشعر الرجعي الشبيه بجوزة لبها مسوّس . »

ابتسم أبو خالد وهو يعود إلى مجلسه : « شعر رجعي ، هه ! ما هو الشعر ؟ هذه الانصاف الحمل ! » وأصر مسعود :

« والله شعرك رجعي يا أبا خالد . » فرفع يده بخطابية : « أنا لست شاعراً . ولكن قصيدة لبدوي الجبل تساوي جميع ما خرج من هذا الشعر الهجين . ماذا تفهمون من الشعر أنتم ؟ » وضحك متابعاً : « انها هناك – ثلاث نقط . أجل – ثلاث نقط . انها هناك – ثلاث نقط . حبيبتي – ثلاث نقط . مليئة بالملاذ – ثلاث نقط . ونحن ننهبهـا ... » واستغرقه الضحك .

ويرد مسعود مهدداً منسحباً إلى غرفته : – لأنك رجعي تنظر إلى السلوك الخارجي ، إلى الشكل فقط . فلو أنني خربشت صفحة كاملة ، ثم محوت منتصفها عمودياً وأريتها لك ، لقلت لي هذا شعر .

لا يجيب أبو خالد . يمضي إلى غرفته ويتناول مجلة « الجندي » . ويدلف كل منا إلى غرفته ، عائداً إلى كتبه وسريره . في بقعة من البهو تتلاقى حزم ثلاث من الضوء فتنيرها أكثر مما أنارت بقية البقع . وتهمد المساحات الأخرى داكنة معتمة غامضة .

عندئذ أغلقت باب غرفتي . استقبلت الليل وكان مؤنساً ، والأشياء كانت محايدة .. والحديقة والسماء البعيدة الصامتة .

— ٢ —

... وكان الضحى صافي السماء حاد الشمس، والأشجار الساكنة في السطوع الجامد تنشر بقعاً من الظلام المتمردة . وقفت تحت احداها واستندت إلى الجذع . قلة من الشباب تحركت هنا وهناك ، والجامعة تجثم خارج العين والذهن في إبهام ، كأنها حكم أعلن منذ دهر بعيد . من لا مكان ظهرت الهام ومزينه وثالثة . وبدا أنهن استفيأن الشجرة فوقفن وسلمن . كيف الامتحان ، وكيف الأحوال ، وكيف أي شيء ..

وكيف يمكن وصف تلك اللحظات ؟ عندما وقفت كأنها أرغمت على ذلك ، مطرقة فوق سياج العشب ، عابثة بوريقات منه ومنتظرة أن تتحرك زميلتاها . ورفعت رأسها بخفة لتؤكد أنها ليست كذلك . اختلج ذيل الحصان الذهبي فوق عنقها الطويل : اختلجت كميته ، واختلج طوله ولونه . واختلج الجسم الفارع فوق الأرض الحارة منتشراً على مدى العين

المتعبة . تكلمت الفتاتان ، وأنصتت هي . وابتسمت ؛ وبدون أن أدعي الصدق أو التهذيب تحدثت إليها – بشغف وتهيب كأني أغامر بدخول كنز مسحور المغامرة التي أحلم بها . وابتسمت هي ، ابتسامة ليست فاتنة ولا آسرة . انفرجت شفتاها المرنتان في زاوية وجهها الصغير فلعبت به حيويـــة العمر والجراثيم . انني أذكر الآن وقفتها ، وذلك الوجه النير الذي لم تمل يداي من احتضانه ، وشفتها السفلى التي تجيع بقدر ما تشبع ، وابتسامتها الحفرة ، وطولها وشعرها وساقيها المليئتين ، وثوبها السعيد وذراعيها الطويلتين وخاتم الزواج في بنصرها ونفاد صبرها الذي لا طائل وراءه ...

قلت : « والآنسة لبنى ، هل زعلت ؟ »فسألتمم؟ قلت وأجبت بشغف : « سرقت لك يوماً وردة . » وابتسمت ملء وجهها ونظرت : « كنت أنت ؟ » وابتسمنا جميعاً .

قالت : « كلا . » وما زالت تبتسم ...

ما جدوى الشوق الآن وما نفعه . جوانح تضرب في الريح حتى العياء . لقد رأيتها زوجة وقفصاً من الروعة ، وصيغة من المدينة ، وحلماً ، فاستهوت نفسي جميع تلك المستحيلات . وعندما انسحبت مع رفيقتها ، ودارت حول سياج الحديقة القصير ، إلى أن توارت أخيراً في جوف النادي – امرأة يستريح الرأس إلى أضلاعها ، وشفتها ملء الفم – تنفس

البالون الذي صارته نفسي ، واعتكرت عافيتها في نهويم الحر المنفوش . استندت بظهري إلى الشجرة ونظرت : حدود ولا حدود من البهوت والذبول .

ذهبت وتركت سحابة الشغف ، مليئة بالحسن ولا مبرر لها . أن شيئاً ذا جمال فرح أبدي ، وأن عدم امتلاكه حزن أكثر أبدية . لم أجرؤ على التفكير بها ؛ ولكنها تغلغلت في صدري كما تتغلغل العروق . كانت الأيام الماضية في المدينة ، أيام السكر والثرثرة والضجر والخيبة ، قد اسكتتني فلم تنطق بي رغبة . وجاءت هي فأدفأت عيني بتوهج أحرقهما للتو . ثم مضى كل شيء كما يمضي نسيم في عطفة الشارع الخاوي . وغاب حتى اللون والضجيج .

ويضحك أبو خالد : « هل علقت بالتي يستطيع زوجها إبداعك السجن ؟ » وأنظر اليه متسائلاً ، فيجيب كمن ينفحني بهبة : « لبنى ، زوجة قائد قوى الأمن الداخلي . » وأجد نفسي مرغماً على قهقهة ثاقبة توقفت فقط عندما علق أخيراً : « اضحك على مصيرك ، إذا أفلت منه فلن تفلت من عشاقها . » قلت : « أضحك على قيس القرن العشرين . » .

وها هي ذي رمز البراءة والطفولة التي رآها وقرأ في عينيها غيب حبه . وتتسرب من واعيتي صورة لبنى ولقاءها ، ليمحضها الزمن المسرع ملاءة تشتت تقاطيعها . وتخب الخطى على الطريق ؛ لا نهاية ولا يكف المضض . يقول وأقول حتى

نبلغ رصيف الأعوام والمارّة . ويطل علينا من بين الوجوه الجامعية وجهفتاة شبيهة بدجاجة منتوفة . أكسبه النقّاب العثماني دكنة لمياء سترت ملامحه . تحته تجمع جسد أسطواني تجلبب بالأسود . بجراب أسود ، وكندرة سوداء . وأقبل كل ذلك نحونا يبتسم لا فرحاً وإنما بدافع الواجب . أتعرّف بعائشة فتراني للمرة الأولى . ونبقى دقيقتين أو ثلاث . «كنت مارة من هنا .» «وأنا أيضاً . الصدف أحياناً مواتية .» «كنت ذاهبة إلى المكتبة. ليس لدينا وقت. الدروس كثيرة.» «أجل .» وتنظر اليه بخصوصية ، فيقول كأن نهاية اللقاء قلت : «متى نراك ثانية ؟» «أنا في المكتبة دائماً .» وكأنه أحس بارتواء فظيع فطر قلبه ، ودعها ، وشدني من يدي . وتستأنف الفتاة سيرها ككسوف الحسر . يضحك هو بغبطة منتصرة ، فيما تتزن خطواته على الرصيف ، كأنه سنّمار أنجز مبنى لا يناله العطب . تغيب من وجهه حيوية الاحتفاء بالعالم ليجوس في أقانيمه الشخصية التي أخصبتها الثقة . في لحظة واحدة تنسحب عن وجهه أفراح أبي خالد المعطاء الفدائي لتقتطب هذا الوجه ملذات جدية استغرقته . «هذه التي لا تستضيف أحداً إلى مخدعها ، ولا ترى السينما ولا تكشف عن وجهها النقاب الأسود ليصافحه وهج هذا العالم الزاني . بنت العرب .» .

ثم قال برصانة وإيثار ومتفادياً استغراقاً في خصوصياته

يخرجه : « هل تدري من رأيت ؟ والله عيب يا أسيان . وعدت الفتاة وتركتها . أصحيح أنك زرت أهلها ؟ هذا يعني رغبتك بالخطبة . » وبينما أحدق اليه مستفهماً ، قال أنه التقى أمس بمرام قرب مبنى البريد ، وأنها سألته عني ، ثم اشتكت من أني تركتها فلا هي تعرف أين أكون ولا أنا أعرف عنوانها . ورد بأريحية وسطوة انه سوف يضربني ويجرني من أذني إلى أي مكان تريده وفي أي وقت ، فأجفلت نصف مصدقة « وقد ظنتني عمك ، وقالت كلا ، فقط أريد أن أراه . » واغتبط في سره وأجابها : « بل سأضربه ، فالعربي يموت ولا يخلف بوعده . » .

ووسط كلماته التي لا تنتهي أمام عربي يهمه أن لا يموت خفقت مرام في العين من جديد . استقبلتها بغبطة في مدينة قفراء . وبدت رحلتنا الشبيهة بالحلم واحة حقيقية ملأى بالنباتات اليافعة . اغفاءتها على المقعد ، و « ما أخبثك » .. وأجفلت نصف مصدقة وقد ظنته عمي .. ودعته فوراً وانصرفت إلى مكان ما. على جدار قلة الاهتمـــام الطبيعي ساحت هي ، وجهاً شاحباً وشفتين أنيقتين ، ترفل في بخور نفسها ومدى عينيها الوجل الدؤوب .

قلت : ــ أليست مرام عجينة مثل التي صنع منها آدم ؟ أجل انها كذلك ...

... الشارع يزدحم بالباصات والناس .. المساء والأضواء،

وتلال من الأصوات . والانتظار يغدو وعكة في الجواس . أخيراً وصلت . وسلمنا بحرارة وشوق . وفي جو غيّمت أحاسيسه ورغباته تحركنا : هي رافعة الرأس وأختها مصوبة العينين الينا . انتهينا بعد مسيرة حائرة إلى شوارع « أبي رمانة » الشاحبة ، حيث أمسى العتم نقاباً داكناً يضمها ، ويشف عنها بسرية وغموض. « ما أخبثك » لم تفارقها ، ولا ضحكات أختها الوجلات المضطربات . لم تضحك هي أو تبتسم . وانما تتالت خطاها الشبيهة بتنفسات النوم تدل وتميل بدغدغات فرح غير متحقق . وأدركت ضعفي وخفتي حين قلت لها بعد فترة متبجحاً : « إذا كان أخوتك متشبثين بهذا الموقف المخيف فليس هناك ما يؤخرنا عن الخطبة أبداً . » (هل يمكن أن أودعها وأسير مشيعاً بعـار حقيقي ؟ أم أشق الحواجز الصعبة كحصان أصيل لأنتهي اليها أخيراً وهي تنتظر ، فأضمها إلي وأرفعها بيد واحدة ؟) أسمعتها بعض الموسيقى واغنيتين لفيروز أثناء جلوسنا الكليل في «الموروكو . » لا أحب هذه النظرات ، قالت محرجة وانكمشت خطواتها . ضممتها بيدي مؤكداً : «ستكون بيننا أشياء أغنى . » والتفتت عيناها بسرعة وضجر . تقدمنا ، وبعد قليل نبست : « الحياة طريق طويل لا ينتهي . » .

ما الذي جعلك تقولين ذلك فتزيدين الأشياء ابتراداً ؟ (الزمن يمر ولا أحد خاسر إلا ابن آدم ، تقول أمي . كانت

تبكي لفقدان أبي : بعـــد ذلك اليوم سيتقلص حجم العالم في عينيها وقلبها). وضحكت أختك بابتسار ، وهاجمك حبها كأنك عروس ذللت فقط في ليلة الزفاف ، بودها لو كانت تبرر ما لم نهرب منه نحن . ومن منا أراد حقاً أن يطعن يقينه وملله ؟ وسرنا على الرصيف الخالي وأنا لا أزال مبتهجاً مرحاً، وهي تسلم كتفيها ليدي . وأحار كيف أصل إلى مزيد من الاحتواء والشارع لما يزل شارعاً. قصدنا الزوايا المظلمة ليتيسر لنا الضم : عاشقان صميمان من الشرق يمارسان الحب بلصوصية خطرة مشينة ملذة .

طوقتها بذراعي فاستندت إلي . داعبت ساعدها وزندها وشعرها. وهممت بأن أقبلها فنفرت مؤنبة . أمسكتها من أبطها ، ودلفنا على الرصيف المقفر . شددتها بقوة واشتهاء . شددتها . وأنشدت . وضرب على أصابعي وجيب قلبها التعب .

— ٣ —

زاهيـــة كانت وأنيقة . نحلة طيعة مغرورة ودت لو تبقيني على الكنبة وتحيطني بالرفاهية والرضى . ولأنها نرفزت من أخ وقف في نهايـــة الرواق بثيابه الداخلية ونظر بلا كلام ، (أخي راتب الذي قلع بأصبعه عين محدق إلى زوجته) ، ورأت أخيراً أن طريقها الطويل سوف ينتهي فرقرق في خلاياها الطرب . فتحت النافذتين ثم أغلقت احداهما . وضاء وجهها النضر بابتسامة . جلست على كنبة ونهضت إلى أخرى . ابتسمت دائماً ، وتحدثت ، وهمست ونهنهت .

قال أخوها الأصغر : « إذا لم تكن خطبة وكتب كتاب فالمجيء إلى البيت متعذر ومستحيل . هناك ناس حولنا وبشر . » وحرك عينيه الجامدتين إلى مكان آخر من أرض الغرفة ، فيما ازداد خفقانها هي في المكان ، ولم تستطـــع الجلوس . وطلب الأخ قهوة ولم يبال باحتجاجها بالبكور . « محاولة التحدث مع البنت غير واردة إطلاقاً . وكذلك

زياراتك . سيقول الناس إنك تأتي إلى البيت . ثم ماذا ستتحدثان أنت وهذه القردة ؟» ويحس بما لكلماته من تأثير فيزداد وجهه تصلباً لئلا يبدو عليه اللطف : عليه أن يحمي عرضه من دخيل يكاد يستحق الرجم . «ماذا ستعرف عنا : وأية صحبة تعملها معنا ؟ نحن كما نحن . كل واحد وزوجته . ماذا ستعرف عنا ؟» «نحن ناس مسلمون نعيش بسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ونعيش من تعب يومنا ، وليس لأحد أن يمننا بشيء» .

مرة أخرى حرك رأسه المتدلي نحو بقعة ثالثة من أرض الغرفة ، مصراً متحكماً . «أعرف أني أسد بوجهك الأبواب. ولكني لطيف معك جداً . لو كان راتب هنا أو غيره ...» «كما أنه ليس لك أهل . كيف ستخطب ؟ أبواك ميتان وأختك لا يمكنها الحضور .» «أي نعم . ولكن كل شيء قسمة ونصيب وخظ . قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .» «كما قلت لك ، علي بالذهاب إلى حفلة عرس صديقي .» وبقي ثابتاً مثلجاً لا يختلج كأنه دجاجة تبيض . «سوف أكسر عنقها إذا رأتك بعد اليوم .»

كانت هي قد جلست بإعياء ، وتركت فنجاني القهوة الفارغين . نظرت إلى أخيها ، والتقت عيونهما الخضر فتبادلا نظرة عنف . وهجس في وجهها هاجس أشحبه وأتعبه . خلال الدقائق الثماني التي تلطف الأخ بمقتضاها هي لم يتزحزح في

مجلسه ، ولم يتجشم ارهاق مخاطبتي وجهاً لوجه . وطوال الوقت حظيت أرض الغرفة بعينيه المكبتين الراكدتين . أكثر من ذلك : أضفت صلابته احساساً بالرضى عن نفسه وبالعطف عليّ — أنا : هدف تلك الصلابة . وبدت على وجهه بالرغم من انكبابه ، سيماء رغبة بالتعويض عليّ ، أرسلها اعتقاده بأن جميع التسديدات قد أصاب الهدف .

وفي النهاية أعلن : « ليس الزواج سهلاً كما تتصوره . فيه مسؤوليات عظيمة . هل لديك نقود للمعجل والمؤجل ونفقات العرس ؟ ستشتري فرشاً للبيت ، وثياباً لها وأساور وحلياً ، فهل لديك نقود ؟ وحفلة الخطبة والزواج ؟ حفلتان. » ونظر إليّ فأضاف : « وثياباً لك . »

وأما أنا فشغلت عن الاستماع اليه بمراقبته . فقدت اهتمامي بالرد عليه إلا شكلياً . ولما غابت مرام بسبب القهوة ازددت استغراقاً . من الذي يحظى بمثله مقرراً لمصير البشر ؟ كانت يداه تزحفان على ذراعي الكنبة تقدماً وتراجعاً ، ورأسه الضخم يميل بين الحين والحين إلى أحد الجانبين — انسان يعرف أن يلفظ الكلمات ويتحدث في المعاني والقيم ، طيّ نفسه ثقة بها ، وقدرة على تقرير الأحكام . وهو أيضاً متزوج وله أولاد . يشرب الماء . وله أسنان ووجه وأطراف . يرتدي بدلة وهو يعتقد أنه شيء في هذا العالم ، وأنه لا بأس به . وربما كان أفضل جميع من يعرف في المدينة . أنه يستيقظ

في الصباح فيرتدي ثيابه ويذهب إلى حيث يعمل فيلتقي بآلاف من شباته ، فيتحدثون ويتحركون ويطلقون أحكاماً يوافق عليها وأحكاماً لا يوافق عليها . ويعود آخر اليوم مشبع النفس فيأخذ امرأته وينام ! العالم !.

قال حبيب : « مثله يضاجعون النساء ، ونحن نزني في أنفسنا » .

وعلق مسعود بنبرة : « أخي حياتنا تدفع إلى العهر ! ليس في تقاليد وطنك ما يشجع على احترامها . احضر مرام إلى هنا .. وتزوجها ! ينتهي كل شيء. لأنه إذا بقيت علاقتكما معلقة بصيانة غشاء البكارة ستبقى القيم السخيفة تتحكم بكما . لا تكرر حكاية سزي معها !».

وقال أبو خالد مطبقاً أطراف أصابعه على بعضها البعض: « استاذ ، شأنك الحقيقي مع مرام فقط . لا تتصل بأهلها مطلقاً . هذا مجتمع كامل راسخ وأنت لا تستطيع أن تقاومه . لا تستمع الى مسعود فهو يخرف . » وعلق بغية النكتة : « ليس أسهل من قصة حبي . أننا نتبادل الوقوف معاً والنظرات .. وديني يا أسيان هذا هو الحب » .

نهضت عن الكنبة بنبرة بدت جد مسرحية وقلت : « عزيزي هنا تكمن قضيتك القومية . أنها ليست حكومة تتكلم باسمها . ولكنها الصراع لتفتيت هذه العقول . أنا لا تهمني القضية إلا هنا . »

ورقيت الدرجات الخمس وتقدمت في الشارع . تنفست ببطء وعمق . ودرت حول الحديقة . لم أدر إلى أين أسير . وبعد وهلة وصلت إلى « أبي رمانة . » استندت إلى سور حديقة صغيرة لأحد البيوت . مسحت شعري بيدي ، وأطلقت زفيراً . وطلبت نفسي الهدوء .

رأيت البيوت المنظمة حولي – بعضها غارق في الظلام وبعضها مغلق على أنواره – والشوارع المنظمة . عوالم سحيقة صامتة مفصولة بآلاف السدود والسنين . سرائر عمّقت قراراتها لتخبىء إلى الأبد الصبوات والخيبات التي أعلت بين الناس جدراناً من القيم والتقاليد وملأتها بالنوافذ والستائر : وصاروا يتحركون داخلها : يضاجعون ويأكلون ويلبسون الثياب ويتكلمون في شؤون الدنيا .. وأكثر من ذلك يطلقون أحكاماً !

هكذا تفعل العروق المجروحة الناضبة الدم ، أما الذين تسيل دماؤهم في شقوق أنفسهم فماذا لهم ؟

من لا مكان برز أبو خالد ووقف إلى جانبي . نظرت إلى وجهه المزعج وقلت : « بودي العن شاربيك ، ماذا جاء بك ؟ » فقال بلا ملامح : « لن أتركك » . وأصابني غيظ جديد لم يمكني إظهاره .. أبو خالد وتبل لا بازار له . صار الآن أكثر ثقلاً من الحسوم السابقة . وأصر على أن يلازمني كما يلازم

أهله في بلده كلما ألم بي « هاجس الحضارة » الذي أفسدني .

– أسيان . لماذا تضيع حياتك متقطعة . أنت موهوب وفهمان ، اعمل ليستفيد منك وطنك . الوطن في حاجة لك ، لجميع المخلصين . أليست بلادنا في حاجة إلى ثورة شاملة ؟

– أريد امرأة أعيش معها ثورتي وبعدئذ أنطلق إلى ما هو أوسع . أكوّن أسرة وأنشيء أطفالاً أصحاء .

– عصرنا لا يسمح لك بهذا الترك . هذه قضية صغيرة . أنت للوطن ولست لنفسك .

– عندما أعيش مع امرأة فلا تتمزق علاقتنا أكون قد صنعت ثورة كاملة . خدعتنا الشعارات الكبيرة ، وغفلنا عن قصورنا الشخصي .

– لا أتوقع منك هذا الحصر لنفسك بامرأة . مرام لك . تزوجها . ماذا تنتظر ؟

– لست أحصر نفسي . أريد أن تكون البدايات صحيحة .

وطفق يبث بي شجاعة لم أطلبها ، ويعبّد نحو مرام دروباً لم تستطع أن تخترق جبل اليأس . واستيقظت في خاطره ، ربما فروسية عنترة ومروءة امرىء القيس وعند طرفه مجتمعين . فكرس نفسه ديدباناً مستشهداً يحرس القبو إذا اختطفت مرام ، ويفتك بأي محاول ايذاءنا .

ويفتل معي في الشوارع حتى استسلم أخيراً لنبله المبذول

ومطالبه السياسية .

قال مسعود مواسياً : « لماذا تتأثر ؟ أنا لا يغيظني شيء . إذا وجدت مرام في هذا الجو المسموم ، فمرام أخرى ستوجد في جو آخر نقي . مشكلتنا أننا لا نعيش بالشرف : وانما نتجنب العهر » .

وقالت الأخت : « صبراً لأحكي لك . انها لم تستطع المجيء . سيذبحها أخوها إذا جاءت . بعد ذهابك أمس جاءها إلى غرفة النوم . ضربها ضربها ، ضربها ضربها : حتى وقعت على الأرض ويداها حول رأسها . ولم يشبع . اندفع إلى المطبخ ، وهو يرغي كالجمل ، وفمه مليء بالزبد ، وجاء بالسكين .. أسيان ! .. وعندئذ ، قبل أن يصل إليها أتته أمه . رمت نفسها عليه واستحلفته بحرمة الوالدين التي قدسهـا القرآن . وبحقها عليه .. ورمى السكين صاغراً ولم ينظر إلى مرام .. ان السبيل الوحيد هو الخطبة .. لقد ضربها حتى ازرق جلدها .. وهي الآن لا تجرؤ على الخروج .. السبيل الوحيد هو الخطبة .. لا يغشك أن مرام صغيرة . سوف تطبخ لك جيداً . وستغسل ثيابك . وترتب البيت . وستعيش سلطاناً . ألست تحبها وتحبك ؟ ألم تتفقا من أول لحظة ونظرة ؟ لقد حكت لي عن سفرة السيارة .. انه سوف يذبحها ، أسيان . سوف يذبحها .. انها تجيد كل أعمال البيت ، وأنا لا أستطيع أن أطبخ مثلها الأكلات التي تطبخها ... » .

وعدنا من حيث أتينا ، في زحمة سوق الحميدية والدكاكين المشرعة الأبواب . عند المدخل ودعتني بسرعة وذعر . ثم اندست في الصفوف المتراصة ، وعيناها تجوسان هنا وهناك . خطى مبعثرة . بشر يملأون الشارع . شبح لأخ مسلح يهدد بالظهور . حنق لا مجد . وموعد بغير لهفة .

عدت وحدي . وتخيلت مرام ، عينيها ووجهها وصوتها . عفوية العاطفة ، بكر العاطفة . عجينة بلّور . ضربه بالسكين ويهوى عنقها .

الوقت ضحى ، والضجيج في ساحة الحجاز يغرى بهدوء الجامعة . سرت إلى هناك بتعب وخمول . وقصدت المقصف. كان مسعود يتجول في الحديقة لأول مرة ، وحبيب يتطاول أمام فتاة . في المقصف علت الأصوات التي لا تنبيء عن شيء. رأيت ظهر سزى في المقصف الداخلي فتوقفت . قفلت إلى زاوية المقصف الخارجي ، وتأملت النهر الهادىء المنساب لبعض الوقت .. ولكني لم أتحمل ذلك . انتقلت إلى مكان ظليل ، ومن هناك تقابلت عينا سزى وعيناي . لم أدر هل أذهب فأحيي ، أم أحيي من بعيد ، أم أمعن في إيلام نفسي وانصرف بالتعب والخمول اللذين جئت بهما . كانت تجلس مع أمين وشاب ثان وذات الوجه المسرحي . تابعت مشيتي فوصلت إليهم . التفت أمين فرآني ، وكذلك هي . ونهض بترحاب فشدني من يدي وأجلسني . سلمت بهدوء . ولأن

أمين لا يعرف : قدمتني سزي للفتاة والشاب . كان فنجان قهوة وثلاثة أقداح من العصير على الطاولة .

استأنف الشاب حديثاً عن الثلث العضوي. وفي أسلوب ساخر شف عن جدية عميقة يائسة أوضح لأمين أن ما يعيش منا برغم الفلسفة وحيوية الأمة العربية هو الجهاز الهضمي وملحقاته وخلايا الجسم ، وأن الثلثين الآخرين مطموران تحت جبال من المعاني الميتة لا تلجمها وحسب وانما تفرض عليها سلوكاً شائهاً . كمية الجسم وشكله هما اللذان يقرران العواطف والتفكير ، وشخصية صاحبهما . « فلو كانت سيمون دو بوفوار جميلة لما سمعنا ما سمعناه عن حياتها مع سارتر وعن حياتها الوجودية . انفجار الشعور يحفر سمات هذه الشخصية نهائياً ويدفق العواطف والقيم فيها » . وابتسم لنفسه وهو يرى إلى صمت الحاضرين المشفق .

قالت سزي بدلّة وتوكيد أن كلامه غير صحيح فالعواطف أصيلة لا شيئاً يصنع ، والقيم موجودة بوجود العالم . وتنحنح أمين متسائلاً أن ما معنى النضال البشري إذن . وأحس الشاب بأن موقفه حرج فبرقت عيناه الميتان بالعروق الحمر وقال « يا عزيزي أمين ليس هناك خلود ، ولا معنى لكل نضالك . وان البشر يناضلون ليس من أجل وانما بسبب انعدام القيم » . وخشي أمين لذع مزيد من الكلام فضحك . وربما ذكر نفسه بأنه مناضل عتيق فهدأت جائشته . وضرب الشاب

على الطاولة بقبضته النحيلة وصاح في وجه أمين « كيف تقضي يومك ؟ » ثم أجاب بنفسه على السؤال : معدداً بمرح ظاهر جملة الأعمال التي تستهلك اليوم كله : تثاؤب . نوم . أكل . تغوط ، مقهى . سكر .. وضحكنا . فضحك هو معنا حتى انتهينا ثم صمت . انصرفت عيناه إلى بلاط الساحة . كأن حديثه نكتة رواها وانتهت . واهتدى ذهنه الآن إلى التفكير بشيء آخر لم يعرفه أحد . كانت ذات الوجه المسرحي الأسمر تتأمله باعجاب هادىء يعرف كيف يظهر خلواً حقيقياً من العاطفة . وانصت أمين بطرب وقد رأى في مزاح الشاب حول القومية العربية نوعاً من تطاول الحفيد المغنج على جده الرحب الصبور . وعاد الشاب يقول « عندما انتحر فان كوخ يا عزيزي أمين كانت آخر كلماته : لن ينتهي الشقاء » . وأكدت سزى صحة الفكرة بحماس « ان أكثر الناس لا يمارسون شيئاً سوى الأكل : بل انهم يخربون حياتهم بتخيلات محيرة » . ومالت بكرسيها إلى الخلف ولم تنظر إلي . وأتم الشاب فجأة « ان من أسباب عصبية الشعب في سورية اختصاصه بكل شيء وافتقاره إلى الاختصاص بشيء وحسب » . وخطب مرح العينين « الأخ أمين مثلاً ، طبيب وسياسي محنك منذ عشر سنوات ، وعضو اتحاد الطلاب له أهميته . وهو أيضاً فلسطيني . وهذه وظيفة بحد ذاتها في العالم العربي » . وابتدرته ضحكة مختاطة بصوت نشيج لولا

رؤية الوجه لظن بكاء ــ وضحكها من كل قلبه . قالت سزى وهي تميل رأسها وترفع حاجبيها « طبعاً . أنت شاعر : وبوسعك أن تلعب باللغة . أجل يا عمي . شيء عظيم » . ورد هو « أرأيت ؟ شاعر وحسب . لست أديباً ولا رساماً ولا موسيقياً ، وان كنت إلى حد ما عاشقاً . ولكن هذا اختصاص تكميلي يفيد الشعر » .

وتأمل الشجرات الآن منصتاً لنفسه وقال بشرود ، غير مهتم بسماعنا وبعدمه « المصيبة هي أن العربي الآسيوي أكبر دائماً من حكومته ، وخاصة في سورية . وان شخصيته مثل الدخان .

وعزائي

رفقة لم يصلبوا جساس من أجل خيانة

كلنا كان يخون » .

وضحك أقوى فتحول نشيجه إلى شهيق . والتفتت السمراء إلى مبنى النادي تتشاغل بتأمله ووجهها المبتسم مليء بالفهم . انتبهت أنا لأول مرة إلى صوته . التقت نظرتانا . ووسط سحابة الضحك ابتردت عيناه وسألتنا : ألم تصدق ؟ وتابعت ضحكته امتدادها . ساءلت نفسي ما الذي يهم هذا الوجه المحزون من كل هذا الكلام . وسألت سزى فجأة « تركية ، تركية ، هل أنت ذاهبة إلى دار الطالبات » ؟

نظرت إلى سزى متقصداً ، ونظرت هي . وعتّم وجهها قليلاً ثم تحول متزايد الابتسام إلى رفيقنا ليسمع احتجاجه على دار الطالبات . وبقي الوجه فلم ينظر إلى أمين الذي نبس بوصاية « ستسكن بيت أختها فهذا أفضل » . وأغمضت عينيها بصمت ثم فتحتها أمامها .

كانت في كمال أناقتها . قوامها الجميل يزهو في اعتصامه بالكرسي . وتنورتها الشبيهة بالمظلة تنفرش حولها . وحركت كلمات أمين في الذاكرة صوراً كثيرة وسلاسل من التضاد أمست بتقدم الزمن وشجاً . وبرزت ألحين ذاك جميع الأشياء متشحة بالغربة والسواد . وأمسى الحاضر مولوداً أفطس للزمن الذي أسرع مبتعداً بجميع الروعات .

لوهلة انصرف كل منا إلى نجاواه الشخصية .

ونهض الشاب فجأة يعتزم الذهاب . وجهه مبترد كئيب ، وقامته الأقرب إلى الطول تصدم العين بنحولها . وهتفت سزى بالحاح « مجد ، والله إنك لن تذهب » . فأمال رأسه يتوسل بابتسامة . وما لبث أن قال « والله ان صحبتكم زاد يعز علي خلوي منه . ولكني مضطر إلى طلب السماح » . وردت هي بعند مدل ومحبة حقيقية « لن نسمح لك » . فأمال رأسه نحو الكتف الآخر ، وطلب مرة أخرى ، بأدب والحاح أكثر ، طلباً مبتسماً عاجاله بالتحرك ، ورفع اليد . ومن غير أن يبدو عليه نظر إلى تركية وابتسم .

سرت وجد . وكان الوقت ظهراً . ومنذ اللحظة الأولى برز بيننا الفرق الأكيد الذي أمسى فيما بعد سطوة شدتنا إلى بعضنا البعض : كان يستطيع أن يضحك من أحزانه ويبتذلها ويحتفظ بها أطول ، بينما استغرقت أنا فيها وتمنيت طردها . وبنفس القوة التي رسخت فيها تلك الأحزان رسخت أيضاً العواطف . عالم جامح مهزوز طارده المحال وجرثمه مستحيل مطلوب ووعي حاد للحيف الذي يلحق بجميع البشر . « في نفسي ذعر عضوي » . لماذا اجتاحته العواطف ؟ وأي مستحيل طلب عندما أراد أن يقذف بحياته إلى نقطة المنظور عند الرسامين؟ وكيف يمكن أن يحكي عن وحدته النفسية فلا تتشتت صورتها أو ينظر إلى كابوسها بخفة ؟

على طول الطريق المتغلغل في أعماق المدينة تبادلنا الأحاديث بتدرج غير مقصود . سزى وموجة الحرية المتحببة التي اخترمتها على غير توقع . صمت أمين الواشي بالاحتياز ؟ شيء أعظم من أن يتحدث عنه . وأنا أثير الحنق بالابتسام الأبكم . وأخيراً تركية . وشيء من اللامبالاة المستخفة ، وعينان محبتان كاذبتان . أحبها تسعة أعوام متصلات ، مذ التقاها في الأردن حتى جاءت دمشق . كانت على ميل قامتها إلى القصر غواية للنفس . وجه من البلور الأسمر ، وقوام بديع متسق . وانكبت عليها القصائد والتحايلات . طاردها الحب . ومع أنها لا تبخل فقد ضنت عليه بما قبل بقلته في النهاية ، وبما لو

أعطته في الزمن الأخير لأعطت معه السلوى . « والله يا أخي أسيان إني أحبها ، ونحن الاثنان نعرف ذلك » . ورفع كلا وجهه الباسم ويده ؛ نصف مفتوح الشفتين ، كمن يروي نكته .. ولكن مضت السنوات التسع في تعلق ازداد بازدياد العقم ، وتشبث في أعماقه بتفجيراته المتصلة لشاعرية ممتازة . وغدت تركية رمزاً للعالم ، ليس لكل تلك السنوات فقط بل لأنها صارت مدينة لوجوده الشخصي بكل ما كان عليها ، والعالم معها ، أن تعطيه ولم تفعل .

كانت عجماء كاسمها ، ومصابة بالتلف .

« يا أخي أسيان أنا أيضاً مصاب بالتلف ! وإن نفسي مفتتة ! أنا الذي إلى جانبك : أنا خالي الوفاض من أية قيمة وأستطيع أن أقول طز لكل شيء . وهذا يزعج قلبي » . وأمال رأسه منفرج الفم ، وضيق عينيه برثاء ضاحك . قهقهت عالياً، وخرجت قهقهته في ذروة من النشيج والضحك .

وأتعجب : « ولكن تسع سنوات ولم تحب غيرها !؟ » فيقرر رافع اليدين عاقد الحاجبين : «تسع سنوات !» نضحك . وأقول : « لقد أحببت تسع عشرة فتاة . ورشحت نفسي لخطبتهن واحدة واحدة » . وضحك وضكت ، ورمى يده على كتفي بمحبة وقوة .

تسع سنوات ، وبغية واحدة — يائسة . أهذا هو الذي

أخرج من سرى الدماثة والراحة ؟ (ولماذا يتبعها من أحبتهم . ويلوون الأغصان في نفسها ، ولا يحبونها إلى الأبد ؟) وما الذي كان شعور تلك الغجرية الصماء عندما أرضت ثلثيها الآخرين بثلثها العضوي وبقي السراب في روحها ؟ تسع سنوات . تقصفت ركائز النفس وانحلت عراها ، في وطن رأى في تلك السنين فضيحة تلاحق كلا الأسرتين ، وتدعو إلى التربص له في المنعطفات المقفرة لكي يعاجل بضربة سكين مجهول فاعلها . لم يزعجه ذلك ، وانما أن الأشياء لا تتغير . وزاده سخرية أن هذه الأخلاق التي شرشت منذ الفي عام لا تزال تتعامل معه ، هو الذي لم يعد يطيق مشكلته الأصلية : حبه المردود . وانتشرت القصائد في أجواء عمان — قصائد تقليدية الأسلوب فاضت بخلق حار وحيوية مبدعة . وهربت الأسرتان إلى دمشق دون أن تعلم الواحدة بالأخرى تداركاً لتأزم أردني يهدد دائماً بجريان الدم . في دمشق مزق حبه لها ، مثلما مزق جميع البكارات الأخرى : هذا الشكل المومياني العقيم للشعر ، ليلد الظفر الوحيد الذي حققه لنفسه : شعر حر حر تناقلته الأفواه والصحف .

وعندما يطفو الشجن على قراراته : وتميت الكآبة قيمة الآخرين ، ولا يجد أيما دعوة في ترك غرفته الرهيبة الصمت إلى فناء العالم الخارجي ، يعمد إلى علبة صغيرة صفراء فيضعها بين أصابعه وهو مطأطىء على الكرسي : يتأملها زمناً يطول

إلى ساعة أو ساعتين . يعيا ويتعرى الوجود . وتستحيل نفسه إلى عيون تنظر إلى نفسه ، تنظر بلا رضى وبلا مبرر ، بالشغف المتعب للعاشق يريح عشيقته من آلام النزع بضربة ؟ تتمثل الحياة اليومية المرهقة في دورانها وهدرها ؟ تنظر إلى كمية جسمه وقد صبتها في قالب موحش حقيقة الموت المتربصة وراء المحبات والوجوه ؛ وتمر أمامها صور أمه وأبيه وعيون البشر هزيلة عديمة العزاء لا تكاد ترى ؟ تنظر إلى الله بعتاب شجي إذ أعطى فكان مختلفاً عن البشر . ويستوي لديه قبض العالم وقبض الريح .

تعبث يده بالعلبة ، تقلّبها ، تفض غلافها ، تفتحها .. وتتدحرج على الطاولة حبوبها المستديرة فيتأمل دورانهـا هي الأخرى حتى تستكن وتهمد . يلتقطها ، فيقلبها بعضها بعضاً . وفجأة يجمعها في يد واحدة . يكوّر حولها أصابعه . ويتأملها بمهابة وعزم . ينظر إلى كأس الماء المهيأ أمامه ويعيا فيرمي بها في العلبة وبالعلبة على الطاولة . يدفن وجهه بين أصابعه المتعظمة . وفي غرفته الشبيهة بغار عنكبوت على بابه العناكب ، في السكون الحبيس المعتم وسط العالم ، يخترق الصمت الموتي صوت يجهش ، منهور ، ويتطاول مستنفداً هواء الصدر في زفرة نشيج واحدة . وتهتز كمية جسمه القليلة ماثلة أمام الموت المتأبي ، وقد سقط منها التوسل وأمسى البكاء دفاعها الوحيد .

ويمر الزمن ، فينجلي من قلبه الظلام . كيف ؟ ليس يدري . تتلملم الأشياء بعد السيحان الأقصى . ومرة أخرى يخترق العالم الهامش الذي طوقه به ، ويسطو على خاطره المتعب . ويعمد هو إلى السحساح فيغسل جسمه كما لو كان اتسخ . ويرتدي ثيابه النظيفة المكوية . ويخرج إلى ضوضاء المدينة . هناك يلتقي بصديقه (فلاح) . يسيران معاً ويتحدثان معاً . يقول فلاح : « وحدتك أغلى عليك منا . تستطيع يا كلب أن تبقى في غرفتك ساعات . ونغدو نحن صفرا . لا بأس بقصيدة بعد كل هذا . لم تكتب ! وحق السماء انك موضوعي » . ويرد فمه السقراطي « والله يا أخي فلاح كان يسرني لوقدمت لك قصيدة. سوف تعذر القصور البشري، كان أليس كذلك ؟ نحن كلنا قاصرون » . ويهز فلاح رأسه بطيبة عميقة وثقة . وقد أراحه استعماله لكلمة (كلب) .

في مكان آخر من المدينة يقول حبيب برصانة كهنية وذهنه يجهد في انتقاء الألفاظ : « انني أحترم معاناتك وعزلتك . الموت قضية الإنسان الأولي ، وأنا أعانيها وأعرف أبعادها . لن أفاجأ إذا انتحرت ، وإن كنت سأحزن . أن عجزنا عن إدراك المستحيل عصيان يزعزع ايماننا بقيمتنا » . ويهتف مجد ببشاشة وخطابية : « أنت ترى يا أخي حبيب . المستحيل ! نحن نلهث وراءه يا أخي . المستحيل ! المستحيل » !

ويمر اليوم . وينظر اليه طويلاً ويقول ها قد مر يوم .

يمر البشر . الساعات : لعب النرد ، السينما ، السكر ، توهجات الحب الضائع . (عزيزي عدي : ها قد غلبت . ألم أقل لك لا تلعب معي طاولة . عليك الآن أن تأخذني إلى السينما .. أرأيت كم الفيلم جيد ! يا سلام .. لقد تتبع همنجواي قطرة ويسكي على شفة الكأس ، انحدرت ببطء وتقطع وتردد . على البلور الصامت حتى استلقت على قاعدة القعر ثم هبطت على الطاولة . وكانت عينا بطل القصة مصلوبتين عليها . هذا هو الأدب . أخي مسعود : هل تستطيع أن تكتب قصة هكذا ؟) مثل تلك السخرية والمرح أكسب مجداً سطوته على عوا طف رفاقه وتصرفاتهم : ربما أحبوه ، ولكنهم أحبوا أكثر أن يكونوا مثله . ولم يوجد بينهم من يجرؤ على كرهه . حتى في المدرسة الثانوية التي عمل بها ، حيث تنمو الضغائن بسهولة .

غير أن الوحدة كانت قراراته النهائية . في آخر الليل يعود إلى غرفته ، بترنح مشيته وكآبته الغفل . يستلقي على السرير وسط رياح التصورات والخيبات والملذات التي صادفها . ينظر إلى تركية ، وإليها ، وإليها . ويتقلقل العالم من جديد ، يسيح ، وتذوب الأشياء في نهر احساس بالظفر المر الذي ابتعثه عنده اليائس . وربما انهمر الشعر لبعض الساعة فيعجن تراكض تلك الرؤى والأحاسيس في لبنة تضيف وهما جديدا

من الثقة إلى نفسه . وسيان صار الحال ، يستمط وجهه على الورقة ويمينه على السرير : وفي قليل من الزمن تعلو رجلاه في الجو الهائل الاتساع وتنفتحان ، وتنتصب شعرات رأسه داخل الأرض كأمراس مفتلة . ويدور جذعه ويدور في الفضاء الفظيع ، ولا شيء يثبت منه غير الشعر ، وتتخبط يداه باحثتين عما تمسكان سوى نصال الشوك التي تخترقهما : ويتطاول جسمه في الجو . ويزداد ثقله ، ودورانه ووعي حواسه ، إلى أن يدور به العالم والله وتركية وتقتلع الامراس من رأسه واحدة بواحدة ويغيب داخل الفضاء يستيقظ عند الضحى .

في مكان آخر من المدينة ، في وقت آخر ، يستلقي على سريري مشرعاً سيجارته بغير هم :

— كيف المسرحية والاستاذ فارفا ، أخي أسيان ؟

— بدأنا بالتمارين ولكنها بالانكليزية . لا تقل يا أخي فهي مثل الجدار .

ويهز رأسه باعتذار خفيف طاف على تذكر مفاجىء :

— آه يا أسيان ! كم جداراً يجب تهديمه ليلتقي البشر .

ويسافر بعدئذ في حقول خياله وصحاريه ، مثرثراً

وصامتاً ، يدفع عن قلبه التالف شروش الكآبة ، ويهتف فجأة : « حبيبي أسيان ، وكيف مرام ؟ هل انتهيتما » ؟ ويضيف بمزح مقصود : « أسيان ، اترك مرام . حرام عليك . أنت معقد وهي مقيدة . رحلة السيارة كانت رائعة ، انتهينا . لا تزعل . لكل جواد كبوتان » . وإذ رأى اعتراض أبي خالد من غرفته قال : « هي في الأصل كبوة . لكننا نفضفض القاعدة لتتسع له » . وكانت الكبوتان سزى ومرام : تقاليد النفس وتقاليد الناس . « باستطاعتك أن تكون نبياً بسهولة . ففي كل أفق من حياة سورية مجال للثورة . وهذه هي أزمتنا : كلنا أنبياء » .

– هي تتوقع أنني في اليوم التالي سأخطبها . وتفكر أنه لا فائدة من كونها نبية إذا فقدت بكارة نفسها . والبكارة لا تتزن بغير الزواج . وهي تحب أن تنتهي من ذلك الطريق لكي تتزن أثقال العالم . ولماذا لا يتزن العالم وهي لم تفسد شيئاً فيه ؟ ولماذا لا يفيض وجودها بعطاءات حواء الأولى ؟

– قص لي ، أين وصلت حكايتكما .

استرخيت جيداً ، وقد تقبلت ايثاره أطيراً . غلبتني حاجتي اليه فأرغمتني . قلت :

– هذا ما حدث . بالأمس وفي جميع الخلوات والانفرادات . فتاة تبدو من النافذة . من بعيد اتمنى لو أني

رب بيتها . اقترب فأراها أوضح . شعرها الأسود ينثني فوق كتفيها العبلين ، فوق ثوب النوم . تلتفت نحوي ، أنا العابر فوق الرصيف الدمشقي . وتتأملني بغموض وقنوط ، في ظلمة الشارع الدمشقية . تتأملني وأتأملها ، حتى تكتسب التأملة معنى لطولها ، فتستدير عيناها إلى داخل الغرفة ، وتستأنف القعود في عالمها . هذه من بين النساء ينبغي أن أعتنقها . وفي هذه الليلة .. لأقفزن من النافذة إليها ، وأحرق في أتوني كلس عظامها المجبول من صخور الشرق . وتعبر سيارة مسرعة . تضج وتملأ عينيّ بنورها الغاشي فيتوقف كل شيء . ومن جديد أعبر الشارع المبقّع بالضوء ، إلى شارع مبقع بالضوء ، إلى حديقة مبقعة وبيوت رفعت من حجر لتقاوم أعداد السنين .

مرة ثانية ينشق باب وتلج منه امرأة عظيمة الهيكل من غير سمنة . هي الأخرى ترتدي ثوب النوم . وفي البصيص الخافت للّيل يلمع شعرها الغضاري وعنقها كأنهما التاريخ . يتحرك فخذاها النبيلان بين يد تهتز خلفاً أماما وأخرى تحمل تنكة القمامة . بصمت تصل إلى الرصيف الثاني ، تطأطىء ، تمسك بيديها السلة وتقلبها . هنالك ترمي الأشياء النتنة ، بعيداً ، حتى لا تصل رائحتها إلى البيت ، ريثما يأتي الزبال فيرميها في جوف سيارته . وأقول لها . أنت يا رصيف الثاني ، المفقود . في هذه الليلة بالذات يجب أن أعتنقك . أنت من بين

النساء . متى أطرح ما في شلني ، عروقي ، لأعرف كيف يكون الإنسان في حاله الطبيعية ، وكيف تكون الحال .

تعود إلى الباب ، تغلقه . ويصمت الباب . ومن جديد أعبر الشارع المبقع بالضوء إلى شارع آخر ، إلى غرفتي المبقعة بآثامي ولوائح نفسي . هذه الأشياء متى تستكين ؟ هذه الحاجات البدائية الكريهة . متى تهدأ كي تكتسب علاقاتنا المعاني التي نطمح لها . متى أستطيع أن أقول لمرام كل هذه الكلمات ؟ أريد أن أقول لها .. دعي الحذر والخوف وأفني نفسك في هذه التجربة . سوقيها بالتضحية ، ولا تلجأي إلى الأساليب البوليسية لحمايتها . لا تبرري خطأ ترتكبينه بحجة خوفك منها . عرّي نفسك من المساومات ، عرّيها من الحسابات .. أتعرف ماذا ستقول لي ؟ «ما أخبثك ! » ثم تبتسم بتلك البراءة الساذجة القاصرة التي تتحول إلى عفاف سمج . كيف ! سيقترن كل شيء في ذهنها بالجنس . وكيف يمكننا أن نخلق شيئاً إذا كان علينا أولاً أن نروي رغباتنا الجامحة ؟ أنا متأكد أنها تشتهيني أكثر مما أشتهيها .. وأن الأزمة تنحل بيوم واحد لتأتي بعدها العلاقة السليمة .. يا الهي كم صرت أكره الأسماء والأفعال والصفات وكل هذا الضجيج الذي حولي ..

من غير أن يتحرك عن السرير ، سأل وعيناه ملتصقتان بالسقف :

– وكيف تشعر الآن ؟

أنا الآخر ، مسترخياً مستند الظهر إلى الجدار كنت أسأل نفسي هذا السؤال . قلت بمرح صغير :

– أشعر ؟ أشعر أنك تستجوبني بكسل . وان استرخاءك قد جعل منك قاضياً أو كاهناً . ليست لدي سوى المشاعر . كلمة مبذولة تمر على سطح الذهن فلا تثيره : لا شيء . ليس في نفسي مقياس أو قيمة أفخر بهما . وليست لي علاقة بإنسان . أسير وأجلس وأقف كتلة من الرغبات مفصولة عن كل شيء . كأنني النقطة في الهندسة : لا بد من الاتفاق على وجودها وهي عملياً غير موجودة . تمر بي الأزمات كما تمر العاصفة على جبل أجرد ، فلا أحتفظ منها إلا بمحض الحدوث. لا أفسرها ، لا أنفعل بها . وباختصار ، لا أستطيع أن أجد نفسي في التاريخ ولا في الزمن الحاضر . ولست مقياساً لأي شيء ، مع اعتذاري للرفيق بروتاغوراس .

لم يعبأ هو ببروتاغوراس ، وربما بحديثي أيضاً . على غير انتظار هتف ، مثل من يصلني بحديث سابق أجراه في نفسه بكسل :

– لو أنها تمر الآن ، من هذا الشارع ، وأراها عبر النافذة .

وكفت كلماته ذهني عن الركض وراء سحبه المبددة .

فكرت بتركية — وقد استعرت كسله وتراخيه — تركية الغائبة الحاضرة .

كنت سأشكرها . سأبارك حضورها .

وبدا أنه لم يحتمل عناء التفكير الجدي بها ، أو عناء التعبير عنه . فامتطى سرج ميوله التمثيلية وقعد على السرير يمد أصابعه ويحركها كما يفعل الكاهن :

— أباركك باسم الآب والابن والروح القدس ، اله واحد آمين ، وباسم الله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، الذي يقبل التوبة ويجزي التائبين .

وضحك متناولاً علبة السجائر . ها هو ذا يختار أن يكون كاهناً أمامها . ليهرب من أمنياته المستحيلة ، أم ليدين الثالث العضوي ؟ (الثلث العضوي أخي أسيان ، هو الذي يكوّن المبادىء والمثل والأخلاق ، والعقد النفسية والصبوات والمشاعر ، ويتحكم في الإبداع والسلوك والثقة بالنفس .. خلاياك طريقة انصبابها في شكل وحاجاتها ..) أم لعله اختار في النهاية أن يغفر لها ، هي باندورا التي انحلت إلى دليلة ، عبر ادانة مستترة كظيمة ؟ في جميع الحالات ظل كاهناً : أليس القديس وعاء للألم ؟

هي أيضاً حاولت الانتحار لأن محباً تركها . لماذا ابتلعت خمسين حبة ؟ سألني وأجاب : « لقد تأكدت أخيراً من أن

أحدهم يعشق الترك أكثر مما يعشق الاحتفاظ . الترك ! من بين الجميع أفهمها هو ، قال لها أن جليده غني عنها عصي على نيران أعضائها » .

حباً بالمماحكة ، قلت له : لعلها حاولت الانتحار لغير ذلك . لعلها ، رغم تجارب كثيرة ولعقدة لم تعثر على مثالها إلا في هذا الحبيب . ربما ظنته القمة التي تنتشلها من ترديانها الجنسية ..

وصرخ بي للحال : – لا تسقط عليها تجربتك أنت . أنت لا تعرفها .

وصمتنا برهة .

أخرج من جيبه سيجارة وأشعلها ، ثم نظر إلي بعينيه الواسعتين وفمه المفتوح : تعبير وجهه المربك ، بالهم المستتر فيه والحاجة البيّنة – حاجة وحسب ، لا لشيء ولكل شيء ، حاجة لا تلبيها الحياة اليومية ولا صداقة الأصدقاء . وعمد إلى سيجارته فجأة فنفض رمادها بطيئاً مطرقاً .

قال : – لنتفق على أنها تجمعنا نحن الاثنين . تجمع تعددك وتفردي .. هل فهمت ؟ كثرة تجاربك وتجربتي الوحيدة . وأنها تزيد علينا بقدرتها على المقامرة بثلثها العضوي كي ترضي الثلثين الآخرين . وأن الرجل الأخير هذا قد أذلها وحرمها اكتمال تجربتها ، وهي المعتادة على اذلال الرجال

حتى القطرة الأخيرة كلما اكتشفت خيبتها فيهم .

سألت : ـ متى سمعت بالحادث ؟

فأجاب بدعة : ـ حدث ليل الأمس . وهي الآن في المستشفى .

... مرتين ، إذن ، حاولت أن تنتحر بالأمس . المرة الثانية بالعقاقير والمرة الأولى بالجنس : بعد الظهر جاء بها حبيب إلى القبو . من نظرته حدست كل شيء . ورأيتها تقف إلى جانبه ، صغيرة متخمة بالرغبات ، مبتسمة بتجاهي مثل من تقول : « نعرف بعضنا جيداً . ولست أتظاهر أمامك بالعفة » .

تركت لهما القبو وخرجت . بعد ساعتين عدت ووجدت الباب مقفلاً من الداخل . كذلك بعد ساعتين أخريين . في السابعة فتحته ودخلت . أنرت الغرفة ورأيت حبيباً ملقى على التخت بثيابه الداخلية ، والمدفأة واقدة . لم يتحدث ولم يتحرك . اقتربت منه فتناولت عن الوسادة سيجارة حرقتها قبل أن تطفأ ، ومن يده ورقة. « أحضر لي عشاء ـ دجاجاً ونبيذاً » ، قالت الورقة ببرجوازية .

بعد أكثر من ساعتين تمكن من المشي . استطاع أن يعتمد على طول قامته البالغ الأهمية ليتحدث بثقة مصيرية : « ألا ترى أن هذين الفخذين جميلان » : وضرب على ظاهر فخذه.

صار علي أن أصغي ، بالطبع . هو أيضاً – إلى جانب اهتمامه الأقصى بأهمية أعضائه – وجد في الفتاة مادة لعلم النفس الفلسفي ! (ارادته – كمـــاقال – أن يجامعها حتّى يموت أحدهما أو كلاهما في الغرفة . وسألها هو : لماذا تصدين مجداً ؟ أليس واحداً من مجموعة ؟ وأجابت : هل أترك وجه الحزن هذا ينام معي ؟ ولم يجب . اكتفى بالتمعّن في جملتها وابتسم . ووضعت أصابعها حول عنقه بدلة وابتسام ، ثم قفزت اليه تطوقه . إذ ذاك دخل في السباق القاتل . ومضى فيه متزايد الفخر بكلا جسمه وقوته الجنسية حتّى جاءت لحظته . « جاء المطلق . هل تفهم ماذا أعني ؟ هل مررت بهذه التجربة ؟ الحصول على المطلق » ؟ وبدورة لولبية لذهنه المتعدد السلالم اعتبر أن العملية عمليته هو ، وأن الفتاة التي تحته صارت جثة حقاً . هم بالكف والنهوض لكنها التقطته من حوضه بعار رجاء مشمئز . ولأنه شعر برجولة وثنية لهذا الطلب العبد المتوسل ؛ لأنه رأى فيه تتويجاً لكل فخر الذي أحسه بنفسه طوال حياته ، استمر يضرب بمجذافه في يم لحمها حتّى تعب. وعندما انحسر عنها ، وبالكاد استطاع أن يطلب سيجارة ، وضعت وجهه بين راحتيها ، ولاعبته لوهلة . لم تقهقه ولم تتهاوى على السرير.عادت إلى ابتسامتها الدائمة وشرود عينيها الأبله . لبست ثيابها في غفلان تام عن كل شيء وقبل أن تمضي خائبة وضعت بين شفتيه سيجارة ، وإلى جانبه ثيابه .

شيء واحد فات حبيباً : هدف تركية كان القتل وليس الجنس .

قال مجد مجيباً : «لست أدري لماذا أحبها . ولك الحق في تعجبك . لكني أعرف كيف . أعرف أنها كلما استسلمت لعشيق زدت حباً لها . هي غير مسؤولة .. غير مسؤولة . أعرف .. مثل بلادي التي يحتلها اليهود وأنا صاحبها . وبلادي بفضل عشاقها الكثيرين لا تستطيع أن تكون لي .. هذا الشعب القاتل الذي ينظر إلى غيره دائماً .. كلنا ينظر إلى الآخرين طلباً لحل مشاكله هو . بفضل هؤلاء العشاق صارت بلادي تركية التي تعرف تاريخها . ولكن الثورة، أخي أسيان : الثورة . بلادي وبلادك يجب أن تحترق بالثورة . أحب الثورة . أحب أن أمزع هؤلاء ، قيمهم ، ثوابت حياتهم .. آه يا أسيان ، ها قد دخلنا في الأمور الجدية ، وبهذا الكاهل الضعيف . هل عرفت كيف أحب تركية الآن» ؟ وضحكنا .

يومئذ عجبت ! ما معنى هذه المقارنة والاصرار عليها ؟

فيما بعد علمت كيف مات أبوه موته الفاجع يوم احتلت بلاده ، وهو في بدء مراهقته . لكن هذا الموت لم يفهمني الكثير . وبعد شهرين أو ثلاثة ، جلسنا يوماً واخته في منتصف مقصف الجامعة . المكان محشو بالطلاب والأصوات والدخان ، فيروز تغني أغنية يتكرر منها مقطع «إلى يافا .. إلى يافا» ورنين الموسيقى . تلفتّ ــ أنا العاشق يومئذ . المعتقد

أني بسحبيّ أفيض على لبنى عزاء وحماية ـ لأشير لما أن ثمة أغنية عن مدينتها ! ولكن لم أقل شيئاً . بهتّ لعينيها ووجنتيها التي سبقت احساسي الصغير بالدموع الغزيرة . لم تكن تجهش ولا تنشم ، ولا حتى مقطبة الجبين .

امتلكتني الدهشة . وتلاها تأثر مخجول . وابتسمت هي باعتذار ومحبة : كيف تبكي وسط هذا الحشد بسبب أغنية عن بلاد لا يتذكرها في هذه اللحظة أحد . وتقدمت سعادة الحاضر الحزينة لتحل في وجهها وعينيها إلى جانب الدمع . واستحال وجهها إلى شاشة من الانفعالات المتراكضة وقفت ازاءها عيياً عن الكلام . وعجزت لبنى عن ضبط نفسها .

لطمني مجد برفق ؛ فنظرت اليه . لا تحاول المواساة فتفسد صدق الحزن ؛ قالت عيناه . خجلت ؛ لكني لم أقبل . حركت يدي باضطراب ولم أدر كيف أمسك بيدها وسط الحشد المنهوم الصاخب من الناس . وفي لحظة تضاعفت انفعالاتها : مدت هي يدها وأولجتها بين أصابعي . وابتسمت مرة أخرى وكفكفت دموعها .

الموت بالثأر ، وموت أبيه وموت فلسطين . هذا الجو العابق بالموت . الوطواط الذي فر في الليل تاركاً فلسطين لنعال تتار القرن العشرين ، تاركاً أباه في التراب والتراب الأب ، إلى تراب عمان ودمشق .

تسع سنوات ومحبة واحدة . لو أيقن أنها خاسرة لكف

عن الطعن في جسم العالم . سوف لن يعترف ، فليس في وسعه مقابلة الفقدان الأخير . وقفل راجعاً طفلاً منهوراً يتعلق بثياب أمه يمسكها ويتبعها وهي منصرفة عنه . وولى زمان الطفولة ، فغدا كاهناً .

يقول مسعود : « لو كان العالم جسد امرأة : لدنا حريرياً لكان مجد شوكة فيه » . وربما كان أكثر من ذلك لدى مسعود الذي لم يطالب العالم بأي معروف ولم يهتم كمجد إلا بما توفر له غالباً : كأس وامرأة وكتابة .

ويتقلب جسم الزمن المتعدد الطيات فوق اهتماماتنا فلا تلبث أن تضمحل أو تزهو أو تفترق . ويبقى القبو محجتنا كلما بخلت علينا المدينة بالسلام . هناك تلتقي الاهتمامات من جديد وتتلاقح . ويعلن مسعود : « أنت كلما أنشبت مخالبك في حياتك كلما أنتجت شعراً جيداً . هل لك في كأس الآن » ؟ ويستسلم مجد لاستعراضيته الشخصية فينهض ويعانق مسعوداً . يتناول البطحة فيفرغها في ثلاثة أقداح . وتبرق عينا مسعود بالألفة والسلام : فيما ترتفع يد مجد ووجهه فوق حبال اجتماعنا راقصين مراوغين . « أخي مسعود ، في صحتك . سوف يجهض خمرك قصيدة كان يجب أن تولد في هذا الصمت .. كلا ، كلا .. انها لم تتم شهرها التاسع بعد » . ويلتقي رشف الخمر بالكلام وبالضحك . يهدأ مجد على أريكة شعور مريح بأنه سيد الاهتمامات . ويهدأ مسعود إذ يحس بأنه

سيد المهتمين ، يهتف : « نخب مرام » . فأقفز عن السرير اليه ونلطم الكؤوس .

يجرع مجد من كأسه ثم يدور في الغرفة . هنيهات ويصل إلى النافذة . يقف تاركاً وراءه حبالنا والغرفة كلها .

وينهنه مسعود آنئذ ملقياً بيني وبينه إرثاً من أعوام الطفولة بنظرة واحدة . يسحب من جيبه الجريدة ؛ مثله عندما سحب دفتر أخيه المليء بالرسوم قبل أعوام . القصة عن مرام بالطبع : «ذيل العنزة وذيل الغنمة » . عندما ارفّع في أول العام سأعيّن في دمشق . سيزداد تفرغي للقصة .. وسأبذه أكثر لأصير كاتباً » . ولم يطلب توكيداً لما قال أو مجاملة . كفاه أنه قال ذلك هو الذي لا يبلو صديقاً برغبة . وظهرت عليه مخايل القوة فابتدر حديثاً بموضوعية : « من يكتب عن مجدد يكتب رواية مشتتة . حياته ليست سلسلة .. بل حفر ومطبات وبقع ضوئية . الحادثة لا تهم لأنها لا تمثل حياته . كانا لا نطرح أنفسنا من خلال الحياة اليومية لأننا نعتبرها غريبة عنا وليست الحياة التي نحلم بها . لذلك الحادثة اليومية التي لا ننتمي لها ولا هي مشحونة بانفعالاتها . المهم عالم مجد الداخلي . والمهم أيضاً كيف نقتنصه فلا نقع في ثرثرة تيار الوعي : هذا هو السؤال » .

يتقدم مجد عندئذ ويصيح : « مسعود ، أنت جنرال ! » ويهتف مسعود : « أنا ملك الجهات الأربع . ولكن العلماء

اكتشفوا أخيراً أن أفضل شيء هو تقوى الله » . فيغصغص ذاك بنشيج ضحكته ، ويجرع بقية كأسه . يتأبط ذراع مسعود ويشدد أمامه إلى حيث يجدان في بعضهما البعض رفيق كأس يؤنس العالم من حول صاحبه . وفي إحدى الزوايا نصف المضاءة من حانة أبي معروف يجلسان . يتقدم أبو معروف غير مبال بهما فيثير إعجاب مجد باستقلاله الرخو . توضع أمامهما الصحون الثلاثة ، وبطحة العرق أيا كان نوعها . يتناخبان بمرح ونشاط ، في سحبة من حديث فني . ويقول مجد بعد لأي : « في كل مرة أشرب العرق تجهض في عروقي قصيدة » . وتفيض عينا مسعود باهتمام حقيقي : « لماذا تشرب إذن » ؟ فيدفدف مجد إلى زاوية ما مجيباً بوحشة : « يكثر الطلق ولا ولادة » . يغتنم مسعود الفرصة ليشيد بشعره اشادة تمنح الاثنين الرضى ، وتهيء الوقت لأن يشعل سيجارته ويعلي رأسه : « ماذا أعمل يا أخي مسعود ! إن مفاصلي تصرخ كما في نوبة أفيونية : شعر ، شعر » . ويضحك ماذاً لسانه بين أسنانه ، ويهزهز رأسه . يضحك الاثنان بقوة وإصرار ، مسعود ليرضي نفسه بتذويبها ارضاء لمجد ، ومجد لكي يفتت الصمت والضجيج في دخيلته . ويتقدم الليل فيحيطهما بالخصوصية . يحسو مجد العرق ، ويبادله رفيقه الأنخاب بصخب عاقل . ويشرق هو بشهيقه لنكتة أجاد مسعود روايتها . وينظر إلى رواد المكان فيزعجه أنف واحد منهم حتى

أنه يغير من جلسته . ثم يحسو العرق من جديد موقناً أنه قد قطع شوطاً مريحاً في ابتذال نفسه . يسترخي على كرسيه انتظاراً للشوط المتبقي . يحسو ،يضحك ، تزغرا عيناه . ويزداد مسعود كبراً . يتأمل رفيقه المعجون بالنقمة السائخة ، المتحرك أمامه كطفل رويت جميع حاجاته ولم يرض ، فيحمد نفسه لأنه ليس كذلك . ويسنلك العالم . يلتفت إلى تاريخه وقد تبرر الآن اضفاؤد على ما يحيط به : الجيش الذي كان دائماً دربه إلى الفخر ، والنساء اللاتي كن دائماً دربه إلى الرضى .

ويسأله مجد مغوياً : « أخي مسعود ، ألا تحب النساء » ؟ ويهتز هو : « أنا ملك النساء » . ويقرر مجد : « أنا ذاهب إلى المبغى . فان تذهب معي قم حالاً » . وربما يجد مسعود أن الجملة قليلة الاحتفال والدعوة . ويخشى إذا ما رفض أن يترك بغير اهتمام . يقول : « في حياتي لم أدفع فرنكاً واحداً في المبغى . ولكن لأجلك أنت سأذهب . لأجلك أنت فقط ، والا لا أذهب أنا » . ثم ينطلق إلى جانبه بساقيه الطويلتين وخطاه العسكرية القصيرة ، وقد شعر بالغبطة لأنه أكرم صديقه . يبلغ الاثنان الباص . يركبان . وعند ساحة الجمارك العامة ينزلان : مسعود ملجلج المسير ، ومجد نشيطه ومسرعه . يخترقان الشارع إلى عطفة واسعة ملأتها السيارات الصامتة . يجتازان حلقات الرجال المتحركة هنا وهناك إلى مبنى ضخم

يشقه رواق وسيع ذرّ فيه مزيد من الرجال ، وارتفعت الأصوات المهمهمة. يغوران في الرواق فيزداد اللغط وأصوات زحف الأقدام التائهة . وعند النهاية تقف على الأبواب الثلاثة المفتوحة ثلاث نساء بقميص نوم وبلا قميص . ويفتل حولهن الرجال برؤوس ثقيلة دوّارة تتأمل الكتل اللحمية المنفوخة والسيقان التي ضاع طولها في عرضها . أخّ مسعود ، وبعد تأمل قصير غمغم : « ياه ! العمى ، ما أقرفهن! » والتفت مجد إلى اليسار مسرعاً ، وقامته تختجل إلى الجانبين وتشق طريقه بين الناس . صعد الاثنان الدرج تاركين رواقين آخرين في الطابق الأرضي بعض أبوابهما مغلقة . وبرزت من الأبواب الأخرى نساء لبسن مايوهات بقطعتين غاصت تحت اللحم ، ووقفن على الأعتاب منحرفات الأوراك ، أعينهن لا ترى الرجال ، ووجوههن العجماء مستنقعات بالضيق والتعب .

صعد الاثنان إلى الطابق الثاني ، ومجد لا يزال في سرعته المترنحة . وقرر مسعود على غير توقع : « عندما تخرج تراني عند موقف الباص » . وكان بين اهتمام مجد واهماله التام لعزم رفيقه شعرة . ورأى أنه لا بأس من التوقف عن هرولته ، وقد فطن إلى أنها ربما ضايقت مسعوداً . قال : « أخي — مسعود . خذ حريتك . لي صديقة هنا ولن أطيل » . ويفترق الاثنان في الزحمة وطول الرواق . وتضيع عيونهما بين العيون الممتصة واللحم المعروض . يتابع مجد هرولته مرتاحاً لهذا

المجتمع الحالي من التقاليد . فينعطف ويدور بين الرواقات والرجال بطيئي الحركة . وتخرج امرأة عظيمة الردفين : تمشي في آخر الرواق إلى حيث انعطف هو . ويتخذ الرجال مواقف يرونها منها ويخفون أيضاً رؤيتهم . كانت جميلة ، وربما أجمل نساء المبنى . وقد أسدلت على المايوه فستاناً أسود يشبه المنخل ، لا يخفي شيئاً ولكنه يضفي دكنة خفيفة على لجين لحمها . ولكن أي جمال ! سأل مسعود نفسه . « انها ملذة . طبقات من اللحم المكدس . وها هي تهرول ، تظن أنها ستسحر العالم . يا الحي ما أقرفها » . وطفق يتأمل الباقيات بالاحساس ذاته . هكذا شعر بالراحة اذ استطاع أن يزدري المرأة وينجو من قبضة شهوته التي طوقته ولم يع . وأخذ ينظر إلى أجساد المومسات باحتقار ملذ ، ولم ينسحب . خطا ببطء بين الرجال وقد غار رفضه وراحته . بعد لحظات شعر بالأسف : كيف يأتي إلى هذا العالم المتنكر ليس للعالم وانما للنفس البشرية . وكيف بعد عدد لا بأس به من مخادع زارها سيداً يسترخص الحب والجنس ويستلقي عــلى سرير عجول يختصر الحواشي ونصف اللب في عملية مقسرة . هنا حيث ابتسر كل شيء إلى الحد الأدنى . ووصل إلى الطابق الأرضي باستقلال أكبر . لقد صان نفسه ، وأراحها من حكم أخلاقي شعر بضرورة اصداره ولم يرغب . هذه البؤرة ؟ والأدهى من ذلك أنه برغم القسر والوحشية تدفع النقود .

ولماذا يرتاد المكان وهو يعلم أن نفسه لن تتقبل . هكذا هو دائماً : لا يعرف ماذا يريد . وخرج من الدار كريم النفس منقبضاً . العالم .

سارت المرأة بين الموج البشري اللاغب إلى الغرفة . كان مجد قد رمى ثيـــابه إلا المعور . ووقف متهيباً في محراب الجنس . ودخلت المرأة : فأحس بالدعة لبساطة النظر اليها . ولأنه قارن كتلة جسمها الميلودرامية بكتلة جسمه . قال : « كيف لحماتك اليوم » ؟ فابتسمت من غير أن تنظر اليه . مدت يدها إلى المايوه فحلته بخفة . ومد يده فمنعها ، وتقدم يحله بنفسه ــ الجنس بالملامسة . لذته التي مارسها بشغف . وسبق المايوه الاثنين فسقط عن الصدر والعجيزة . وهكذا وجد مجد نفسه أمامها . تأمل عريها بخشية وانسداد . كل شيء فيها مثير . « أما أن أنظر بعيني إلى بوابة المطلق التي تمنحني الشعر فان ذلك يوجف قلبي ويرهبه » . واستلقت على السرير غير عابئة بيديه . اللتين بدأتا تتحسسان كثبانها . ووقف يرنو إليها منفرجة الفخذين . نظر باسترخاص وقال مازحاً : « أبهذه السرعة » ؟ فتناولته من يده وشدت معوره ، وهكذا انتفخ بالشهوة . رفع ثوبها إلى ما فوق الصدر ونتعه بضربة ثم أخرجه من حول رأسها . وشدته إليها بسرعة فانشد . وأيقن عندئذ أنه لم يعد ثمة ضراب في نفسه ، وأن ما يعكر عليه صفوه الشخصي قد تحلل في العلاقة المبذولة المقبلة تحللاً أنعم

عليه بمزيد من الابتذال . اطمأن إلى أنه يسعه التمرغ بين « شطي خليج الدنس المطلي بالرحيق » مستقبلاً من كلا الدنس والرحيق ذات اللذة . وراح يطعنها طعنات خفيفة أرسلت إلى أعماقه إحساساً يافعاً لم يفارقه حتى عندما اضمحل بالزواج . استلقى فوق المرأة عارياً من ثيابه وهمومه ليستقبل الجنس – الجنس الخام تحللت قداسته وشف – اللحم . شعر عندئذ أنه لم يعد في الدنيا حائل يردع انطلاقه المريد . وطفا فوق بحر الزمن . ضاغطاً على جسد المرأة الطيّع : متتبعاً في سعيه نحو الله سبحان أصابعه ويديه وذراعيه وجذعه على جسمها البض . وضغوط عظامه المنهورة ؛ وقد استطار كلاً وأجزاء . وانقذف إلى الملكوت . للحظات سرى في عروقه احساسه باقتناص الموت . الغريم الذي طلبه ولم يحصل عليه خلال محاولات انتحار كثرت . أحس أنه قرصان حقيقي . آخاب لحظة قتله لموبي ديك . أغمض عينيه وأركز رمحه فيها وقد تلاشت من تحته . وجعل يضاجعها ويطعنها حتى سقط كل شيء . سقط الوعي واللذة . سقطت الحياة والألم والله والإنسان . وشرنقت حوله غيبوبة الموت .

وهتف إذ ذاك : « هنا يجب أن تتوقف الأشياء . آه ، كم أن الغياب لذيذ». وأفاق . عادت اليه المرأة تعتصره وتغيبه في مطاوي لحمها ؛ وقد أحست بضرباته القوية تتوانى وتغلظ. أحس بالسكون وباستتباب أمن العالم طولاً وعرضاً وعمقاً

وبوجوده . واسترخى على السرير كشريحة لحم ضخمة . وقعدت المرأة فتنشت منديلاً ورقياً ومسحت له مرتين .

كان عليه أن يخرج بسرعة . وعاد إليه الزمن .

نهضت المرأة فلبست المايوه . وخرجت من غير أن يحس أحدهما بالآخر . نهض هو الآخر عن السرير خامد الانفعالات مغسول العروق . أحس بانفراد كوني . وتنفس بعمق . لبس ثيابه بوحشة مستقلة وهو يصفر خفيفاً معجلاً . نظر إلى ما حوله بقوة واستقلال . فتح الباب وخرج . عبر الأروقة الغاصة بالزائرين كريم النفس . وعادت اليه مشيته المترنحة . العالم .

المسا

يمطر حباً وأسى

والأسى حلو ومر

وروى مكدودة الخطو تمر

بقيت ثمة مسحة أخيرة ويكتمل كل شيء : أن يصل إلى حيث مسعود جالس تحت أحد مصابيح الشارع .

— ٤ —

عذراء العرب وراء سبعة أستار . يلمحها الفارس العربي في غمرة حياته المشتتة الباحثة . لمحة واحدة ويتعملق الحب . بنو هلال وسيف بن ذي يزن وحمزة البهلوان والف ليلة وليلة . عذراء العرب يحارب من أجلها الفارس مع قبيلته كلها . تملأ الخيال بكمال وجودها . يكفي الالتقاء والدخول بها لكي يوضع المدماك الأخير في هرم السعادة الأبدية .

وتقول هي : « ها نحن مع بعضنا كما أردت ! »

« أنت لست منهم . فلماذا تسألين هذا السؤال . ليس هناك فرسان . الأستار لا توجد بيننا . توجد فينا .. هكذا قال الشيخ علي أبو عبد الله » .

اخترت الحيطة حرصاً عليها . ولكن كان لا بد من الاقتراب من البيت . ومر الأخ فنظر إلي . في نحو الأربعين ، يختلف عن الأول بحنكه وجسمه المليئين ، ويشبهه بأنه لا

يعرف الأحلام ولا الخواطر . وتقلصت عيناه الخضراوان اذ ميزتاني . ثم تكاثر فيها الغضب . تقدم مني مستطير الجنان ووقف بغير مسافة بيننا . قال مهتز الصوت : « ماذا تفعل في هذه الديار » ؟ وللفور صرت مديناً له بتفسير . قلت : « انتظر خروج صديق من بيته لنذهب معاً » . أحاط ورفيقه بي بهدوء وصاح فجأة : « أنت كذاب .. أنا أعرف لماذا جئت إلى هنا . أنا أعرف هذه الأساليب المنحطة .. » قاطعته بلين : « اهدأ قليلاً فليس الأمر ما تتصور .. » ولكن صوته احتد . وضربت قدمه الأرض . قال : « اهدأ ؟ اهدأ ؟ بودي أكسر رأسك ، أنا .. كلب ، أنت تعمل هذه العمائل معنا ؟ نحن ؟ هل جننت أنت ؟ »

ومر مجد في تلك اللحظة . رآنا فأشاح بوجهه عن الشجار وتابع طريقه . انتبه الأخ إليه . فرمق ظهره المبتعد . وعاد إلي مجنون الوجه . أطبقت يده الثقيلة على صدري فأخرجت قميصي من تحت البنطلون . وبرمت اليد وعلت . فقربتني من جسم صاحبها . والتصقنا ببعضنا البعض . جحظت عيناه واضطرب فمه . وأعجزه الغضب عن الكلام . قلت : « انك تبتعد كثيراً في تفاسيرك . أرخ يدك وأشرح لك كل شيء » . وتمكن من الكلام الآن فقال : « أنت ! أنت ! والله وحرمة رسول الله . لو تطأ قدم رئيس الجمهورية هذه المنطقة لأكسرها . أتعرف من هو رئيس الجمهورية ؟ أملص له رقبته

هكذا » . وشد بياقة القميص حول عنقي . فكرت نصف مختنق : هل سيكون حقاً بمثل هذه الجرأة لو جاء رئيس الجمهورية! وأحسست بالضجر . رأيت أنه قد حان وقت اقتناعه بالعدول عن استعمال القوة . سألته مرة أخرى أن يترك القميص لنتفاهم . ودحرجت له إيماناً دينية بأني أنتظر صديقاً . ولم يجد ذلك « افهم أن لا مكان لك بيننا . أنت واحد منحل كلب ولا أخلاق لك ولا شخصية لك » ..

وظل هكذا حتى ملأ قلبي بالمرارة وحتى اقتنع في النهاية ، ربما متعباً : بأنه أعطاني درساً لا ينسى . آنئذ بدأ يلين . وعندما تركته كان لسانه فقط يهدد بالموت .

بعد أيام رأيت مرام في الموعد المحدد . سارت مع أختها على رصيف سوق الحميدية . وسرت على الرصيف الآخر . اخترقنا السوق المليء بجمهور جذبه الظل . بمشي عسير . انهمكت الاثنتان في النظر إلى الحوانيت ، وصرت ألاحقهما . انتهينا من السوق الرئيسي . وسرنا إلى اليسار . سلمنا بسرعة وكتمان وانضممنا إلى بعضنا البعض . قطعنا شارعاً صغيراً والتفتنا يميناً فيساراً . واجتزنا شارعاً ثالثاً جثمت في منتصف جانبه الأيمن وفوقه المكتبة الظاهرية : حجارة زنة كل منها طن . وجدران بثخن مترين . هناك قلّ عدد المارة وانتشرت روائح الأحذية والشواء والرطوبة . تقدمنا أيضاً في الشارع المتداكن . ومرة أخرى سرنا إلى اليسار . شارع انتهى ،

وشارع إلى اليمين ، ووقفنا عند المنعطف . المكان خلو تماماً ليس من البشر فقط بل من النوافذ والضوء والهواء ، كأنه أعماق إنسان مجرم . ولم يكن للشمس أن تدخله أكثر من خمس دقائق بسبب العلو العظيم لأطنان الحجارة التي صنعته منذ ألف عام . هناك غدا ممكناً أن نبحث أمورنا . كيف لا . والجدران قد ابتنيت منذ ذلك الزمن وبتلك الضخامة والانغلاق لكي تتيح لنا في هذا العصر مكاناً يحكى فيه عن الحب . كان الظل الثقيل مشبعاً برطوبة أرسلت رعدة سريعة في كل منا . ضحكنا لارتجافنا ، وهتفت مرام : « يا الله ! كم هو حلو ! »

واستندت إلى الجدار في ثوب بهي عرّى اليدين والساقين والنحر ، واستدق به خصرها . شعرها على شكل قمة . واشرأب عنقها الطويل النحيل دافعاً بالشفتين المحشوتين نحو جدار آخر نظرت عيناها اليه ولم تنظرا . وثبتت أختها الى جانبها بهدوء عصبي ، منتظرة أن تقول كلمتين فينحل العالم إلى سعادة وتولد يوتوبيا .

لم تقل هي كلاماً كثيراً . وأوحى سلوكها أنها توقعت مني أن أتكلم : المستقبل والبيت وموعد الخطبة والزواج ؟ متى تنتهي هذه الأشياء ؟ وبدا وجهها متعباً بغير اشياء ، منتظراً موحشاً . ضحكت للاطراء والنكتة . واستندت إلى الجدار مثل من قبلت أن تهادن العالم قليلاً : لا بأس ، طالما حملني أخوها الاهانة وحملتها من أجلها . وجعل الحديث يبدأ وينقطع

ليبدأ من جديد ويلقى نفس النهاية . (أخوها الذي عاد إلى البيت يومئذ كأنه الجمل الغاضب . تقدم من النساء وصرخ : من جاءكن إل هنا . وحمداً لله فقد أوصت مرام زوجته سلفاً . فأبدت النساء الدهشة والصمت المحترم . ولم يقتنع هو . وقف أمام زوجته ورمى عليها كلمة الطلاق إن لم تفض بالكلام الصحيح . «ما هذا الذي تقوله ؟ هل جننت ؟» وعندئذ فقط خشع لله وتخافضت سورة غضبه . وحدّث أمّه عما فعل بالذي «لا يتكلم إلا بالفصحى !»)

والآن ؟ ماذا ستفعل ؟

نحن الذين نصنع الواقع والأشياء ونحن نعيشهما . وقبلت مرام أن نلتقي بانتظار شرقي للنهاية المجهولة التي استهدفتها . تتالت اجتماعاتنا في دهاليز سوق الحميدية الرطبة وانفاسها العثمانية . أحاديث مكرورة عن أخوتها السبعة . وسؤال صامت دائم يثير الحرج لا الكلام . «أعيش على الخبز والزيت ولا يهمني ترف المعيشة» . «أحلم بدراجة نارية . وألفّ يدي حول صدرك وأنت تسيرني على طرقات سورية . ونترك هنا إلى مكان ما» . وتزغرد عيناها بفرحة مضطهدة .

«إنهم لا يحبونني كثيراً . وإلا لكانوا زوجوني حتى الآن» . وسيقول لها أخوها قالع العيون : «أنت تلتقين ، أنت وذلك الكلب ؟» وربما حطم لها عظماً بضربة . وتترك المدرسة وترسل إلى أخيها المقدم لستر الفضيحة . «لو أنه ابن آدم يتقدم

لخطيبتك . منذ الف سنة يخطب الناس » . وأقول لها : « يجب أن نقطع علاقاتنا معهم ، فهم جماعة يستحيل معهم الالتقاء . لنلتق حتى يختبر أحدنا الثاني جيداً » . وترد هي نافذة الصبر : «أنا لا يعجبني أحد منكم . الاثنين . وسوف لن آتي لرؤيتك بعد اليوم » .

عندما قبلت باللقاء أخيراً — على مضض وبعد أسابيع شديدة العناء — فلتلبي طلبي . « ولكن إلى ماذا ستؤدي هذه اللقاءات ؟ » سألت نفسها . « ستكون خبيثاً . هذا هو السبب . أف ما أكره الرجال ! كلكم خنازير » . ولكي لا تثير الانتباه سارت ورائي وبيننا مئتا متر . وأكثر من ذلك : لم تقبل بالجلوس في أي من علب النهار . وأمضينا على الشوارع ساعتين .

أخيراً قبلت أن تأتي إلى القبو . « ما دام صديقك أبو الشوارب هناك : فلن تجرؤ على إيذائي » . « انه ليس هناك . قلت له أن يخرج » . ويمضي نصف ساعة آخر . « عدني أنك لن تفعل شيئاً » . « مرام ، مفروض أننا متحابان ونثق ببعضنا بعضاً ! ما هذه الشروط » ؟ « عدني أنك لن تفعل شيئاً » .

أخيراً تضع الوعد في جيبها . ندخل بصمت راهب . ندخل إلى غرفتي ونغلق الباب . قلت أن بودي أن أسمعها ما يبكيها لكثرة ما أضاعت باحضارها أختها . وكنت أعلم أن

ذلك أسوأ ما يمكنني فعله . واضطربت هي بخفقة أمل هزيل . متوقعة أن يسفر ذلك الألم عن الرضى . التقت أعيننا وغلبنا الصمت والكلام والضحك .

جلست على الكنبة فتراجعت تنورتها عن ركبتيها ولم تمطها . وتقوس حوضها التقوس النسوي الجذاب . فيما استقرت يداها البيضاوان على ذراعي الكنبة . أثبتت رأسها فلم تحركه . وغمر شعرها نصف وجهها ، فغدا فمها المطبق أكثر دعوة . نظرت إليها بالتفصيل ، إلى شعرها وفمها وعينيها الخضراوين . ثم إلى بلوزتها وتنورتها وكندرتها . مشيت في الغرفة . وقفت ونظرت إليها . مشيت ثانية . ووقفت . ها هي ذي وفارسها . لا حرب ولا قبيلة . تقدمت منها وتناولت يديها ، ولم تمانع .

— ماذا تريد أن تقول لي ؟ جئت بي إلى هنا لتقول لي كلاماً . لماذا جعلتني أجيء إلى هنا ؟

شيء وحيد أبقى شعرة معاوية : من يشدها حتى القطع . قالت ان أختها ذهبت إلى زوجها في الكويت ، وأنها — مرام — لم تعد تستطيع أن تراني . قلت إني سأثابر على المجيء في الموعد نفسه فان لقاءاتنا بدأت الآن ، بغياب أختها . « أنت خبيث » ، قالت باعياء وابتسامة مقهورة .

جثيت أمامها وعبثت بشعرها فارتد رأسها إلى الخلف واستند إلى الجدار . ومن الشعر إلى الوجه . وتفرست في عينيها

الضجرتين المشيحتين .

– هكذا إذن . كنت أعرف أنك ستفعل بي هكذا . لكني وثقت بك . لهذا جعلتني أجيء إلى هنا رغماً عني .

وتبخرت إلا من ساعدين وصدر وفم . كأنها وكل ما فيها يقولان : هأنذا ، عذار مختوم من الشرق ، لحم لم يمسه البشر ، فخذان لك : أليس ذلك جديراً بالخطبة ؟ ستطفىء نفسك الحاقدة التي لا يخجلها تمزيق كل عذار في العالم ، انتقاماً ، وتصبح إنساناً .. ولم يعد نفاد صبرها امتيازاً تتوهج به في النفس . رأيت عند ذاك جانباً جديداً من نفسي ، ربما وصف بالخوف من مجابهة الفشل . هل أستطيع أن أتركها؟

أمسكت بزندها متأملاً هذا التكوين العضوي . هذه هي المرأة العربية الخالدة ، امرأة السلطان والباشا والامام والتاجر. وفوزية بعد أعوام . نهضت مجرورة بشد يديّ : ضارعة الوجه والفم واليد ، عاجزة الجسم والنفس . ووقفت حيث تعين عليها أن تقف ، تشد جسمها بحيث تمانع ولا تفلت ، وتعطيني حرية في التصرف لم أظن البتة أني سأنالها .

– ما دمنا لن نتزوج .

– بالطبع سنتزوج .

لم أنو تركها ، حقاً . وتوقعت هي أنني في اليوم التالي سأخطبها . أحبت أن تنتهي من ذلك الطريق الطويل لكي يتزن

العالم . ولماذا لا يتزن العالم . وهي لم تفسد شيئاً فيه ؟ ولماذا لا يفيض وجودها بعطاءات حواء الأولى ؟

— أنا بنت شريفة . جيئتي إلى بيتك غلط . لماذا خدعتني ؟

على أنها بدت ميتة حينذاك . ميتة كفنها نفسها ، وضريحها القبو ، ومقبرتها دمشق . واستلقت على ظهرها باعياء حين طال وقوفي الجهم . وحين عدت إليها بعد طواف يائس في اتساع الغرفة رأيتها نائمة . نائمة ، مثلما نامت في السيارة . ومثلما تبدت لتصوراتي . هاربة من كل طريق طويل لا ينتهي ومن جميع المتعبين لها . شعرها تشعث تحت رأسها . ويداها ارتدتا نحو كتفيها .

ولم أجد انسانياً لا لحمها الأبيض السهل ، ولا هي في الرحلة الأولى ، ولا أنا الواقف إلى جانبها كجلاد بريء . تصورت أن بوسعي الاختفاء مع ذلك خارج دمشق . أو النكران ! من سيثبت أنني الفاعل ؟ فليزوجني القاضي بالقوة إذا استطاع .

ابتردت ، وتبرر جبني الأخلاقي بتعال شبيه ببالونات سزى . سقطت عن قمتي التي شدتها بغرور وصرت نبيها . القمة التي تشتتت على ذروتها مفاخر البشر وأطنان حضاراتهم وقيمهم . لم يبق غير الريح تسفي غباراً هازلاً . رأيتني بشكل يدعو إلى الرثاء أتعب مما لم أسمح بدقيقة واحدة تضيع بسببه

ـ الخطوبة العائلية . والبيت والزيارات : والمجامعة ، وهذه الأمور التي انتظرت لها هي جملة (افتح يا سمسم) .

لكنها كانت موضوعاً للشرف ـ يسفك الدم ويثير الإنسانية . وقرر ذلك أخوها (راتب) قالع العيون : بعد إفلاسنا بأيام قرع الباب وفتح له أبو خالد .

ـ أين هذا الكلب ؟

ـ هنا جماعة شرفاء . لا بد أنك أخطأت المكان .

ـ لم أخطىء شيئاً .

ودفع بيديه أبا خالد والباب .

لأن أبا خالد ماثله في القوة . ولأنه اعتبر نفسه حامي الذمار فقد تصدى له بدفعة قوية من يديه . واشتبك الاثنان عند نهاية الدرجات المفضية إلى القبو في عراك عضلي شرس . والمدى وصول مسعود من غرفته متبعاً الأصوات الوحشية أنجز أبو خالد مهمته . واستطاع الاثنان أن يخمدا قوة (راتب) ووعيه . أخيراً جراه إلى الخارج . وركب الثلاثة سيارة أقلتهم إلى القصاع . هناك سحباه ـ وقد أوهما السائق أنه مصاب بالصرع ـ إلى مدخل بناية وتركاه على درج قبوها .

في المساء قال أبو خالد ضاحكاً : ـ ألم أقل لك ؟ هذه هي الرجعية . وخطب : ـ عزيزي . يجب أن تستلم الحكم . وإلا سحقوك . يجب أن تقوم ثورة لاستلام الحكم .

قلت بمرح : – تريد جزاء لفعلتك اليوم . بالنسبة لي ثورتي قائمة ضمن عالمي الشخصي . بوسعك أن تنتشر إذا أردت . اكتب شعراً حراً ، وتصنع ثورة .

قال مناجزاً : – لينين ليس من رأيك .

فصاح مسعود وهو يجرني إلى لعب النرد : – لينين كان عظيماً . نحن عاديون .

— ٥ —

مرض والد سزى فمرضت الأشياء . « كيف حال أبيك ؟» ووقفت هي نصف مطرقة . نصف كليلة . وتراءى لنا الموت . لم تجد ضرورة للابتعاد اذ ذاك . وربما تذكرت لحظات الخوف القديمة التي دائماً ما دفعتها إلى البكـــاء والالتجاء إلي . فأوقفها ضعفها القديم الجديد . وشفت الصلة النفسية اثر ذلك . وزينها الصمت . لم يكن قد قيل كلام بعد : فلا مكان للكدر . « هل نمشي قليلاً ؟ » « اني ذاهبة إلى الدار . » وتصمت . « ستذهبين إلى اللاذقية ؟ هل نراك قبل ذهابك ؟ » وبان على وجهها الهم والتعب فتوقفت عن الوداع . أحست أنها إذا سارت فستسير بنفس عواطفها القديمة وجوعهـــا المزمن : العاطفة التي كرهتها ولكن لم تزيفها . وشحب وجهها بسبب السؤال وحالا . « لنمش قليلاً . اننا لم نصبح أعداء بعد . » فتحركت رجلها بأسى شديد . وسرت . وسارت . كيف يمكن وصفها عندئذ ؟ جميلة دائماً . أنيقة . طيعة .

ملء اليد والصدر .. أم هل يغض الطرف ؟

سزى . قفل الكلمة . لبن الصيف ، صمت الحياة ، زهو الليل والنهار . أغنية الإنسان للضعف والحاجة والسلام . غيظي وغيظ المولودين باستعداد مسبق للغيظ ، وصبوتي وصبوتهم . الهوة التي امتصت ما ظننته بغرور كبير عواطف ؛ وإذا هو بالنسبة لها عجز وخوف . في هذه البلدة النائية أرى الآن جيداً أني لم أعطها الكثير ولا القليل ، وأن كل الاخلاص الذي ملأ نفسها كان صوتاً بلا صدى ، جهداً بددته نماذجي الذهنية .

وسارت إلى جانبي مثل من تخلصت أخيراً من وهم ضللها أمداً طويلاً ، ولكنها لم ترغب ، على الأقل في تلك اللحظات ، أن تكرهه . تستطيع أن تمشي معه الآن فوق طمأنينة التعب .

أحسست أنه ربمـــا كان أفضل لو هادنت الحياة قليلاً بدلاً من رفضي التام لألمها – الرفض الذي لم يلد سوى الألم – وعانقت سزى إلى الأبد . (لقد صار مثل هذا التفكير ممكناً وغير مخيف طالما أنه مستحيل التحقيق) . وسارت إلى جانبي باعياء كأنها تقول : دعنا نتمتع بذكرانا ولكن لا تنشىء لنا حاضراً .

وكان وجهها هادئاً وعيناها محبتين . وكان الهواء المبترد يهب ويتغلغل في شعرها . كما هو الحال ، الصمت والأسى

وحشو الكلمات . والشعور المداهم بشيخوخة النفس . والعيون الاسيانة التي كادت ألا تتوقع شيئاً . والخطى – عندما امتدت فوق الأرض واستجدت فرحاً باهتاً ابترد في عينيها وانتفخ لدي . ابترد بحزن وانتفخ بمكابرة : كل شيء يمكن أن يعود . وهذا الشرخ الرقيق اليافع يمكن أن يلتحم لينجب السلام ويذيب معاً « طبيعة الحياة وطبيعة الإنسان . » أن أحدنا لم يرم الآخر بحجر . ونحن « رفقة لم يصلبوا جساس من أجل خيانة » .

ذلك الشرخ الرقيق اليافع . الشرخ العجوز في أرحام البشر . الذي طالما سأله محمد ماذا أنت ، ورمى بين شفاريه ببعث عربي . ثم بقي الكلب الحي خيراً من الأسد الميت . لقد سألت نفسي كثيراً ما أهمية تجربة محققة . لماذا . وبوسع الإنسان أن يجرب دائماً ويبحث عن البكارات . ولكن الجواب بقي غائباً والخيبات لا تنحل إلى أسئلة . يوماً ما ستقع تلك الخيبة التي لا فرار منها . أو تضيع سنوات الحياة . ويرخص الكلام والضجيج . يغوران في صدوع النفس . وتسيل العلاقات الأخرى على سطحها الكتيم . أنه لخير أن تمنع حدوث الشيء من أن تتحسر لحدوثه .

قالت سزى : – لا أعلم . ربما بقيت في اللاذقية . بالأصل . لا شيء يفرح ، هنا وهناك . ربما كان على الإنسان ألا يعاند كثيراً وألا يأمل كثيراً. هل تجد خيراً في الحياة؟ لا شيء

فيهـــا . سوف أذهب وإذا حدث شيء .. ماذا سيحدث بـــا المي ؟ أنا خائفة .

خرجنا من الجامعة ، صامتين مطرقين . وبين حين وحين يرفع أحدنا رأسه ويرنو إلى بعيد . تميل قامتها في مشيها البطيء . تلتف يدها حول ظهرها وتمسك باليد الأخرى التي حملت المحفظة الصغيرة . خلّفنا وراءنا الجامعة والنهر والشارعين . ويبقى الصمت سيداً ، ونحن ندوس على الرصيف. يشتد على صدورنا . ولا يمكن أن يقال حتّى الكلام العابر . انعطفنا إلى الزقاق الذي انعطفنا اليه في الأيام الماضية . وهناك ركنت الكلمات في مخابئها . بلغنا دار الطالبات واجتزناها في السكون المشبوب ، وعند جذع احدى الشجرات وقفنا .

أسندت يديها إلى الجذع وجسمها إلى يديها . ونظرت إلى وجهها . وقد أطرق مثل الأيام الماضية . ثم ارتفع جانباً . كان كل ما حولنا وما بنا يطن ويدوّم رغم سكونه . ربما تذكرنا ، فخفنا وأسينا . وربما عزّ في تلك اللحظة أن نفترق وقد عنى الافتراق نهاية لم تخطر لنا يوماً ببال . واهتزت في مسامعنا أصداء لا تقاوم برغم خفوتها : فانطرح في وهلة عنف ما ترسب على تلك القرارة الرائعة من أحداث ومحبات أخرى . ليسطع أمام العين رونقها وريعانها .

كنت على نوع من اليقين بأن شيئاً ما قد حدث بين أمين وبينها ، وأن مجرى الينبوع قد تحول إلى بستان آخر . ولكن

لحظات راغمة لا حياد فيها ولا نكوص شدت علي من كل نحو . أحسست أن سزى حبيبتي لي وملكي واني ما أردت منها إلا أن تكون كذلك . وقلت لنفسي أنني يجب أن أعلن مرة واحدة ، بعيداً عن الناس وآرائهم ، بعيداً عن الخوف وعن النتائج ، أنني أحببتها ، حتى ولو كان هذا الحب فاشلاً ، حتى لو تذكرت أني قوقعته بيدي وابعدته بتخاذلي وكتمت تلك الكلمة الصغيرة التي لم يكن أسهل من لفظها ، والتي قلتها لكل فتاة وانسان إلا هي . وقلت :

— سزى ، هل تتزوجينني ؟

فخفقت أجفانها ، وبدأ صوت أنفاسها يعلو . وازداد ارتخاؤها على جذع الشجرة بازدياد لهاثها . ولكي أتفادى اضطرابي أدمت إلى وجهها النظر : أخيراً قيلت الكلمة . وساد الصمت من جديد .

وهتفت منفرجة الشفتين عن ضحكة : — نتزوج ؟ انظروا يا عالم !

قلت بمشقة : — ربما لم يكن هناك لزوم لاعلان الحب . أنا وحيد . مثل غراب عجوز . وأنت تعرفين كل شيء عني . وأنت الوحيدة التي أستطيع أن أقول لها ذلك . هل تتزوجينني ؟

استراح وجهها المطرق . تهدلت خصلة الشعر المنفوشة . وبالكاد تلامحت على محياها إبتسامة خافقة — الهزء عليها أقل

من الفرح لكنه أعمق قوة . تقدمت خطوة فماتت بيننا المسافة . وفي وجهها توقفت العبارة .

على ذلك الوجه الصافي تسلل خطان من الدمع . تحدرا على الخد فالوجنة في توقف وتقدم . وعندئذ خرج الصوت نحيلاً متقطعاً . كان بكاء فوات الاوان . وأسرعت يدها من وراء ظهرها تنتش منديلاً صغيراً ، وتطبق على العينين . لأول مرة بدت بلا كبرياء وكانت أكبر مما تدرك العين . والوت معجلة الخطى حسيرة العنق ، وقد سقط من حولها الشارع والناس والمعاني . التفت اليها مغلول القدمين خاسراً ، وجسمها يرتبك في مشيه حتى انتهت إلى دار الطالبات . وفتحت الباب وولجت .

ولم يكن عسيراً أن يرى كيف تلجلج لسانها بالكلام .

بالطبع كان لي رجاء . لكل الأحياء يوجد رجاء . وأنا لم أمت بعد . وهي ليست آخر أمرأة في العالم . كانت رائعة . الأشياء الأخرى لم تكن . « لأنه من يستثني ؟ » وبالرغم من أن النفس تستريح أحياناً للخيبة وتستلذ بها تبريراً للشكوى ، فقد تذكرت أميناً وعينيه الهادئتين وتأملته . ماذا سيفعل بكل تلك الكنوز . وبعد كم من السنين ، كيف ستحول الأشياء ؟ هل سيبقى جسم سزى فتيـــاً ؟ وهذه الهالة من الطفولة الخضراء ، هل تتصلب في هموم الأمومة والبيت الزوجي ؟ وهل يهجع الاهتمام المميز لها بثيابها ونضارتها ، فيترهل ذلك

الجسم الفني ؟ وطمأنتني الكلمة الأخيرة : لنتزعل قليلاً ثم نعود إلى درجة السلم الأولى .

مقهى الدافانا على الناصية . عندما تمشيت بعد ذلك لم يغر البيت ولا الأصدقاء ، ولا أراحت رؤية العالم . جلست حول طاولة علّني أجد أحداً أعرفه فقط . وبكثير من المراعاة جعلته يلاعبني بالنرد حتى أقبل الليل . ثم ودعته وخرجت . رأسي يطن بسبب الانكباب وعيناي تدوّمان .

فتحت باب القبو بحذر وكذلك أقفلته . رأيت غرفة أبي خالد مضاءة . ومن غرفتي تعالى صوت مسعود ومجد . جلست على كنبة في البهو وقد شعرت بشوق لوجودهما . وأرخيت رأسي على الجدار مرتاحاً أيضاً إلى أنهما ليسا أمامي. رأيتني أحتاجهم جميعهم . وأراحني أنهم حولي . فكرت : وملأني بالراحة جمال وجود البشر .

كان مجد يقول بخطابية لا يحترمها ولكنه لا يتخلى عنها :
— ان حضارة العرب الآن تتوقف على ما يعطيه كل فرد منهم . وأنا مع إكباري للعزيز أبي خالد لا أعتبر العمل السياسي درباً وحيداً يفضي إلى عطاء قومي . علينا أن نتطهر في ذواتنا. نفسياتنا متعبة . أخي مسعود ، وفيها خلل ضخم . يجب أن نتجدد . وأية حركة لا تحمل شكلاً ومحتوى جديدين ليست حضارية . وليست وحدة اثنين هامة بمقدار ما هو هام أن

يتعرى الفرد العربي ويخلق ذاته : يمارس الخلق . هذا هو العربي . هنا ..

وعنى كلامه أن اصبعه تشير إلى صدره . وضحك مسعود مستسلماً . قال :

ــ أنا لا أعرف أن أخطط لكل هذا الوطن . ولكني أعتقد أن كلامك صحيح . حتى يكون أحدنا عربياً يجب أن يعيش تجاربه ، وبنجاح . وهذا هو العربي . مهما كانت مواهبك تظل الشخصية رخوة ومتقلبة حتى تعيش تجارب .

وصحح مجد : ــ يجب أن يخلق نفسه .

فسوّى مسعود : ــ يخلق نفسه بأن يعيش تجاربه .

قال مجد ببطء ساهم : ــ قد لا يستطيع أن يعيش التجربة التي يريدها .

ورد الآخر بمباهاة غافلة : ــ إذن عليه أن ينتحر !

فصاح رفيقه مهللاً . وعلت رنة ارتطام كفين . وبدا أنهما واقفان . صاح مجد ثانية : « كأسك ، أخي مسعود . يوم ترفّع سنحتفل على حسابي . » واعترض مسعود : « أنا الذي سيغرقك في بحر بيرة . » وبعد أن أنهى رفيقه ضحكته أضاف : « لا يهمني الترفيع للنقود ولا للرتبة ، وانما لأني أستحقه . أنا أكره الظلم . ومتى استحق الإنسان شيئاً فيجب

أن يناله ، خاصة إذا توقف عليه طموحه . تلك تجربة على أية حال . » .

بعد صمت قصير ردد مجد : « انني أحلم . ولكن متى تيسر لي أن أعيش تجربة فسأمضي بها إلى نقطة المنظور عند الرسامين . أتعرف ما هي نقطة المنظور ، أخي مسعود ؟ إنها النقطة التي تنتهي اليها جميع الخطوط » .

خرج أبو خالد من غرفته حاملاً كأس بيرة ، ورآني . قال محتفياً : « أهلاً بأسيان . أراك متعباً . » وأجبت أني كنت العب بالنرد . فاسترد سخريته بنعومة : « لو أن أحداً يجمع طاولات النرد في سورية ويحرقها لحدث في الصباح التالي انقلاب على الحكومة . » أحسست بمسعود عند باب الغرفة . والتفت فرأيته يقف بالقميص الداخلي غير مبال بالبرد ، ووجهه يطفح بشراً . في اللحظة التالية ظهر مجد حاملاً قدح البيرة الممزوجة بالويسكي وهتف : « في صحتك . » وتقابلنا نحن الأربعة .

نظرت إلينا باستمرار وخمول . وقلت لنفسي : كلنا نحب بعضنا بعضاً . وأغرقت في استرخائي المريح على الكنبة .

صاح مسعود بأبي خالد : « هل تستطيع أن تنفخ صدرك كالرياضيين ؟ » ونفخ صدره فاتسع إلى مداه المتقن الضخم . أعلى أبو خالد يديه جانباً وضغط على صدره فانتفخت أوداجه

وبرز كرشه الواسع .نهضت أضحك من هنا للمنظر . وجعل مسعود يدحرج أصابعه على الكرش المتقدم مزحوم الفم .

دخل أبو خالد غرفته : « تعالوا اشربوا هنا . » دخلنا وراءه إلا مجداً وقد وقف على العتبة . أسرع مسعود وأمسك ببنطال منامته بخفة ، وجذبه نحو الأسفل فتزحلق حتى الركبتين . التفت أبو خالد مغضباً وخنخن : « أضاجع سماواتك . » وسوّى البنطال ، واستلقى على السرير . عاد مسعود فهجم ثانية وأمسك بالبنطال . وفي لحظات كان الشد والجذب يخضان السرير . تقدم مجد إلى وسط الغرفة . ومددت يدي أشارك مسعوداً مهمته . نزعنا البنطال وأمسكنا بالمعور الطويل . وتعالت شتائمه الوثنية المهددة . التفت مسعود إلى مجد ضاحكاً ، ممسكاً بالمعور ، « سأريك كيف يحرق عانته . » وما زلنا نشد حتى أيقن أبو خالد أننا سننزعه . عندئذ انتفض على السرير بقوة ، وقعد فرفسنا . وقرفص ممسكاً بشيء من جسمينا فتراجعنا إلى الخلف . وفر مسعود خارجاً . بعد ثوان عاد ممسكاً بيديه طرفي المنشفة الحمراء يهزها أمام أبي خالد . واستكبر الأخير أن يرد فتشاغل بالاستلقاء على السرير ، والمنشفة تقترب منه متهزهزة . وما عتم أن انفجر بالضحك هو أيضاً . وتعالى صياحنا في قلب الليل . هتف مجد مشفقاً : « مسعود . » وكان واقفاً في ركن من الغرفة .

تركت وجد مسعوداً وأبا خالد يتعاركان . وصعدنا الدرجات الست إلى الشارع . كان الليل جميلاً والمدينة هاجعة . سرنا على الأرض المبلولة بالمطر وقد طوقت الغيوم المدينة . وعصفت ريح كانون الأول قوية باردة فشددنا الثياب على جسمنا ونحن نسير بصمت . كانون الأول ! الأمطار سقطت عدة مرات ، والبرد اشتد . أشجار الشوارع تعرت من أوراقها . المدينة صارت تنام باكراً .. كأن كل ذلك انكشف فجأة ! كأن استيقاظاً حدث للتو فأنهى كابوساً استمر عدة أشهر — كابوس خلا من الخوارق والفظاعات وكان شديد التقطع والتشتت فأمات في الذهن الفصول والطبيعة وكل ما وراء الحياة اليومية :

قال مجد : — أسيان ، هل أنشأت علاقة لم تستطع انفكاك منها ؟

لم يكن ينتظر جواباً . لفظ ما هجس في خاطره تلك اللحظات . وتابع سيره الرخو . نظرت إلى جملته باستغراب خفيف .

— كلا . كلا . ليس ما تفكر به . أتذكرها الآن . حادثة انتحارها . بالتأكيد تذكرت كل شيء عندئذ . كل ما حاربته بمحبتها العنيفة . رأت أنها أهينت .. هي التي استفزها دائماً صغر حجمها . رأت نفسها حشرة مثلاً . فجاشت عواطفها . لا يقبل الإنسان أن يكون قميئاً . وابتاعت

خمسين قرصاً من أقراص الكارديتال .. أختها كانت السبب في انقاذها .

وانفتح فمه وعيناه . مصلوب الوجه إلى أمام . ربما تذكر هو أيضاً كل شيء ، التأجيل ، والمساومة ، وشقاء فان كوخ الذي لا ينتهي . ورأى أن تركية أصدق منا نحن الذين يبدو أننا نتعشق الصدق ، وأشرف . وأن حتى هذا الحزن أو الألم الذي يعايشنا ممزوج بالمبالغة وردود الفعل — « أنت تعلم مبلغ تضخيمنا للأشياء . بل ولعل حديثي ومحاولاتي للموت ادعاء وتمثيل . » وصمت قليلاً من غير أن يطرق أو يسرع . ثم قال :

— أنت لا تعرف معنى أن يسلم انسان نفسه لعاطفة ، لامرأة ، لوطن ، ويطلق بعد جميع التعلقات والمحبات . أنت تعيش في دوامة وفراغ ، لأنك لا تريد أن تعلق بعلاقة يائسة ، ولسبب ما تخشى الفشل . ولكنك لا تعرف معنى أن تهب نفسك ليأس ، ولا تقل « رومانتيكي » : لعاطفة تستبيحك . هي ولا شيء آخر ، مرة وإلى الأبد . ربما لأني فلسطيني يمتلكني هذا النوع من العواطف . أو لأن نكبتي في وطني طبعتني بهذا الطابع . لو أنني أستطيع أن أستغني عن نبض تلك الأرض القاتلة في عروقي وأحلامي لصار أي مكان مريح وطناً لي . أنت لا تعرف الاهانة التي أصبت بها . وربما توقف ذهنك عن فهم حالتي .. انني هكذا . أسلمت نفسي . لعلني أشد ضياعاً منك ولكن ضياعي مع الانسان الذي ترفض أنت قلته

وعجزه ، مع حبه وكرهه ، قبوله ورفضه . مت ذليل تعلقك به ولا كبير رفضك له . هل فهمت ؟ ذلك أكبر .

قالت : – انما أريد انساناً محمدياً .. انساناً تكوّن في رحم النار ، الهاً ، نوحاً بعد طوفان جبار خالقاً مع الناس علاقات جديدة .

عند ذاك زخ المطر فوق الأرصفة والمباني والأشجار ، وتعالى صوته . لم نسرع ، ولكن مجداً وحوح . هتف :

– أريد أن أتجدد – لأمسك بهذا الحب الذي أصر عليه ، ويؤسفني أني حبيس هذا الجلد . أرأيت كيف تعمد الحية كل صيف إلى مكان قصي عن العيون فتعاني سلخ نفسها ، ويطرح جلداً قديماً جلد جديد تكوّن تحته ؟ هكذا يجب أن تتكوّن نفوسنا . بل ولا بأس من الانسلاخ قبل هذا التكون ، لنحترق ولنتألم ، فتلك هي قيمة عمر الانسان . ما فائدة حياتنا إذا كان حب صغير لحبي أو لحبها لذلك الشاب في هذا المكان الصغير يودي بهذا العمر الصغير . ليكن كل شيء فيه معجزاً ، أيا أخي أسيان .

أخيراً ابتسم ، وقد وصلنا إلى غرفته . عانقني مودعاً وهم بولوج المبنى . التفت إلى الخلف مبتسماً أيضاً وقال : « كلا ، كلا . لا تخف . الليلة لن أموت . سأسلم نفسي للموت ثماني ساعات فقط ، فتلك هي ضريبته . وجفوني تنحني منذ الآن لرياح النوم . وأسفي » .

وافترقنا .

سرت وحدي . الشوارع نفسها مع مزيد من الصمت والوحشة . والليل أكثر جلالاً . من نافذة قبو تبدو . أنها في وسط المطبخ الواسع ، تهتز وتطأطيء برأسها . تبدو من النافذة فتثير النفور . الفنادق والمنازل وكل هذا العالم المقلوب. وعدت إلى الشارع ، إلى حيث يطفو الليل والمطر فوق أنقاض العالم فيقل وشلها في العين . عندما تجوس الاقدام على الشوارع وقد نامت المدينة ، يغمر النفس احساس واحد هو أنها خلجة في عالم متوقف. وأنا هنا أسمع خرير البشر وحفيف اقدامهم على الأرض .

ألقيت رأسي على السرير ، وأغمضت عيني . ازداد انهمار المطر ، فقعدت وتفرجت عليه : قوياً مضروباً بالريح مستمراً . وأدهشني أنه مرا فلاح ا استرخيت مغتبطاً ، منتظراً أن يرن الجرس. ثم نهضت بسرعة إلى باب القبو ففتحته . ورقيت الدرجات إلى الشارع . كانت ثمة قطرات ماء تجمعت في خفضة صغيرة عند السلم ، والمطر والريح يملآن فضاء المدينة .

ألويت . استلقيت على السرير وأغمضت عيني . بدأت أحلم بسزى وغير سزى . بالمطلقة ومرام ، ممن عبرت بهن

وتركت ، يعلم الله أي أثر . محطات ، محطات ، لم تمنح واحدة منهن صدراً للراحة والاطمئنان ولا عقدت صلة لا فكاك منها . ومن يدري إذا كانت بقعة بوران المضيئة ستمر لدي أيضاً وأنا مسافر وراء محاولة مضنية لأعيد علاقاتي بالعالم ؟

الفصل الرابع

— ١ —

لبنى الآن . بين حشد من الأيام الضائعة تنجلي أيامها مثل اللقيا . أيام شتاء روّاها المطر وكفنتها الريح : وانبثت في حنايا دمشق ، في ذمتها وعهرها . الليالي الباردة ، وما هو أكثر من ذلك ، ليالي حصار الطبيعة للخائبين : سهول الغيوم ، والشوارع المحشوة بالريح . من هنا انبثق دفؤها ، ومن السماء السابعة للانسان . لقيا تروّي الجنس والنفس بهزة قامة ، وتبحث عمن تعطيه بغير مقابل .

دفؤها — سكن يتعرى فيه قلب العاشق وجسده ويرفان في العالم . ملاذ ينبثق من بين جمهور ملأ مدرّج الجامعة الثالث حباً بالفن .

« لماذا لا تأخذين دوراً في المسرحية ؟ »

« أنا في الحياة ممثلة : لذلك لا أنجح على المسرح . »

وتبدأ عملية التعرف عبر جو نفسي فضفاض نفخ فيه

هواء كانون الأول البارد الغاضب .

ثم تستنفد عبارات المجاملة . يصل الينا الصمت محمولاً بالفهم والمحال وعدم الاكتراث . وراءه أراقب جدران مجاد التي غابت لوهلة ثم حضرت . وتبطل رقى الكلمات المادحة خلف وجهها المبتسم لكل شيء . عندئذ تعلو هي ، تاريخاً مشروخاً ينزوي على ذاته بألف وجه ضاحك. كلام كثير عبر أذنيها وطوته الذاكرة . ولم يطل به الوقت ، فانضم إلى الخلجات العادية للحياة العابرة . ما نفعه وقد أخفق في رد الخيبة عنها . ثمة دائماً حد لتلقّي هذا النوع من الحياة وبعدها يسري الابتراد إلى أعطاف النفس . في التاسعة عشرة تزوجت ، وكان الرجل أول من أسمعوها ذلك الكلام . وها هي الآن بعد سبع سنوات ـــ سبابتها تنقر على جدار القاعة الخامسة وعيناها الكبيرتان تكملان أطراقها ـــ تجيب بخفوت ، كمن لا تدري هل تعطي ثقتها لسائلها أم تصمت :

ـــ الطلاق .

فأتصوره يأتي البيت عند الثانية والنصف ، يطبع على جبينها الدافىء قبلة باردة ، يجلس على كنبة وثيرة ، فيرمي ثيابه ويلبس منامته ، يتناول الغذاء ، وينام القيلولة . وبينما تأتي هي إلى الجامعة : ملاذها الوحيد ، ينهض هو من نومه ليستقبل فراغاً مزمناً . قد يتجول أو يمضي بسيارة الجيش . وعلى وجهه صمت ورزانة . هو ليس بعيداً عن النكتة .

ويعرف كيف يعلق وكيف يجعل من تعليقه مادة للضحك ، خاصة أمام المجاملين ... ويزور الأصدقـــاء ، ويزوره الأصدقاء .

تستيقظ بي رغبة في الانتشار . بغرور كبير – بصمت أيضاً – أوحي لها أني عزاؤها . ولا تتعبني هي ، فمثل هذه الحماية مطلوب دائماً . تبتسم ملء وجهها وتغمر وجهي بابتسامها . وابتسم ، وأحس بالسعادة . من تراه لا يفتديها ؟ ولأن كل شيء معقد أو مستحيل ، تنهار الجدران بجرة خيال ، وتصبح تلك القامة ، التي لا أعرف حتى الآن كيف أصفها ، بيتي وحقلي وأسرتي . وأعتقد أن ذلك ممكن . وجدت لنفسي مبرراً ، وخفت من نقطة الوصول . أم حبيب وأمي في السادسة والعشرين . وجه ضامر وشعر بدا طويلاً برغم طول القامة . ابتسامة تشع دفئاً وطيباً محالاً ، وتناجز الحروب منها . ثم خطوتان تدعوان إلى متابعة المشي . دعوة . ونمشي معاً .

لبنى – شجرة اللبن . وضمن قضبان دمشق شجرة اللبان المر . وضمن سراديب الجامعة شجرة الزنا . وهي هنا محبة وكارهة لكل شيء ، شأنها شأن من تخفيهم جميع أنواع التعلقات : بمرور الزمن تنحبك الخيوط طوقاً حول العنق ، ينحسر مد العواطف لتبقى الحاجات العارية ، وتنعقد المحكمة في الذهن الغاضب . في ذلك الشتاء شقت طريقها نحو العهر الدمشقي . ازداد انفصالها عمن « لا لذة لديه إلا

النوم » ، وتأكد أن لانتسابها إلى الجامعة أكثر من معنى . كيف لا ، وهي امرأة متزوجة لها ابنتان وبيت كبير ومركز اجتماعي عال ؟ وتبتسم هي . على الأقل لئلا تتصلب قطعة في فسيفساء المدينة المنسجمة . ويقول أبو خالد :

— هيا ! جاء دورك الآن . لعلي إذا وقفت في الصف يأتي دوري أنا أيضاً .

وجهها ستارة زاهية . يتأملها المتفرج فلا يرى المسرحية الرديئة وراءها ولا الظلام وراءه . هي أيضاً تفرجت عليها — وسزى وأمين وفلاح وعدي والشيخ علي أبو عبدالله ، وكل من التجأ إلى الأخلاق باحثاً عن سقطات غيره ليتشفى ويمتلىء بالسمو .

ويمسكها الغيظ أحياناً لكثرة الأعين المراقبة ، كل تحمل سيفاً . الا يفعل الناس شيئاً سوى أن يدينوا ؟ ثم تنسحب بلا ضجيج ولا مقاومة ، وقد وخزها خوف غامض . تترك وتمثل . مرة أخرى تغدو الزوجة والأم . تستلقي على ظهرها ليستلقي عليها زوجها القصير . تغدق على ابنتيها الشرستين الحب . تطبخ . تتسامح عن علاقة زوجها بالخادمة ، وتجلس مع الزوار .

وتقف أمام المرآة في أحيان أخرى : فيعودها التذمر . تمد يداً إلى بقاع جسمها . تتحسسها . لا طرباً ولا زيادة اطمئنان ،

بل بشعور عصبي بالخسران والاغتصاب . وعندئذ تسدل الستارة ، وترتمي هي فوق حد الموسى . هذا الجسد والذات التي تملكه عاجزان عن أن يرتويا وسيمضي بهما الزمن .

وأتفرج معهم فنعجبني الستارة والمسرحية والظلام . ولكن يخيل إليّ أني أراها هي في مكان آخر — حيث أشيائي التي لم تزندق . وأرمي بالباقي في بئر حكاياي .

أتعب من الصراخ بوجه أبي خالد ومن ضحكه الدائم . أقول لنفسي نحن مختلفان . فهو ثابت . ثم تسحبني يده بالقوة نحو كلية الآداب :

— ألا يعجبك أنني اكتشفت صفة مشتركة بيننا ؟ التغيير . كلما غيرت أنت حبيبة غيرت أنا حبيبة .

— فشرت . أنا لا أغير . أبحث .

نصل إلى بقعة بدا أنها معينة . وتقبل الينا الفتاة الملفعة بالسواد وقد ازدادت سمنة . ابتسمت هذه المرة ومدت يدها . ومن تحت النقاب لمع سنّاها الذهبيان . حمدتها في سري لأنها ، كالمرة الماضية ، تمتمت بكلام لم أسمعه مع أبي خالد ، ثم لم تحسبني طويلاً في متحفها . وخبّت نحو المكتبة فتنفست طويلاً . وفتل أبو خالد حولي مهتز الكرش والمسبحة والشاربين :

— كيف وجدتها ؟

ـ ألم أقل لك رأيي منذ المرة الماضية ؟

فازورت عيناه ومد أصابعه نحوي .

ـ أنت ، يقال عنك ذكي ؟

بعد مراضيات واعتذارات لا بأس بها يترك حنقه ويلف ظهري بذراعه ضاحكاً : «هذه غيرها ، يا أسيان» .

هنا ينتهي لدي احتفالي به . أتركه لحديثه الرغيد وانكفىء إلى بئري . ويمضي بي على هواه ، حتى يكاد يجرني إلى لعب النرد . عندئذ أودعه .

في اليوم التالي أجيء باحثاً عنها ، علنا ننتحي زاوية في الجامعة . أبحث بانقباض وخمول ولا أسأل أحداً .

وتمر الأيام ، كليلة لكنها حاملة فرحاً وراحة . تتوالى لقاءاتنا وتطول ، وشيئاً فشيئاً تتخلل نسيج الحياة اليومية . كأنها ماء نستقبل به يقظة النفس لنغسلها من آثار النوم . صرنا مسافرين لا يعرفان غايتهما ، حلا يوماً في منتجع فمكثا للراحة ، ثم لم يفكرا إلى أين يذهبان . عرفت عن حياتها المزيد ، وقد اعتادت أن تتكلم باختصار وبغير حرج ظاهر . وتحت وطأة النكتة كان حزنها يظهر ، متيناً باسماً . وهنا نستقل معاً . نهاجر في أغوار النفس ، تارة للكشف وتارة للتسلية ، فيتفكك زوجها صفة وراء صفة ، ويغدو موضوعاً لا للخوف وانما للشفقة : سبع سنوات مرهقات يحاول عبثاً

فيها أن يمتلك من زوجته شيئاً. ثم لم يكن بد من أن ينصب كلامه المعسول وسجاياه ليحضر الكيد والحقد والثورة. واستعصى علي أن أصدق مناسبات ضربه لها، وأحياناً بالزجاجة؛ ولكن ذلك كان حقيقة.

وضحكت ضحك من لا حيلة لها أمام الكلام المنمق. الحديث عن حياتها الزوجية منحها افتراراً فقط، لا ضحكاً ولا عبوساً. وساعدتها لذة التحليلات وكثرتها — وهي مزية رسخها مجد — على أن تمسك بذلك الخيط الدقيق: عنيدة ويائسة. على الوجه اللامرئي الآخر تحفز حار في كل لحظة. أصغت، نهضت، تقلبت، وردت. وانطلق توقها الضخم للزجل. لنزواته وغراباته وضياعه.. استجابت لأي حافز كي تطرد الشعور الذي لا يطاق بجمود الحياة وخسارتها.

ورحت أرقب بحذر الوليد الجديد الذي رحمه قلبي، ينمو خلال ركام الحياة والذكريات والأماني الماضية. ومنذ البداية بررت لها أي تصرف يخلصها من أسار الشريط الحريري البراق الذي شد على عنقها. على أن الدمية ذات الشعر الذهبي، مثل جميع التعساء الذين يملكون ضميراً ويعلقون حياتهم بلحظة صدق، لم تكن تملك إلا الدموع. كلما شاقها الافلات عقلتها الأمانة. وظلت قيد الأنشوطة. ولذ لنا، نحن اللصين، أن لقاءاتنا تمت بلا مواعيد، وجعلت حياتنا مشبوكة بترقب ممتع لساعات لم تكن من الزمن. أحببنا الصدف التي

لم تتكشف من قبل عن غير المفاجآت السيئة ، وقد ابتعثت الآن فرحاً عفوياً غير مدبّر يحضر بلا مفاجأة ولا ملل .

من وراء سور الجامعة تبدو ، حيوية ، خافقة : فتراني أمام سقيفة النادي . ومن بعيد تلين تقاطيع وجهها ثم يغالبها الضحك : وتهز رأسها باحتجاج طفولي على مجيئنا الدائم غير المتعمد في الوقت ذاته . وفي أحيان أخرى أكف عن النظر إلى مدينة دمشق عبر شباك النادي ، والتفت لأراها واقفة تنتظر أن أنتبه إلى وقوفها . عندئذ تبتسم بفمها ووجهها ابتساماً يزيد شفتيها امتلاء . أنهض ، نتصافح ضاحكين بلا نكتة . أحضر كرسياً ونجلس . اندفاع خفي دائم يخرج الكلام متقطعاً والابتسام . ونضحك ، ونتشاكس . أنظر إليها وقد تكلم الرب الأبكم في خيالي وصاغ جميع الجمل التي يثيرها جمالها . أغرقها في فيض من أحلام اعتبرته وحده حياتي الحقيقية . وتضحك هي واضعة يديها في حجرها ، ثم تنفرج شفتاها ويبرز صدرها ووجهها إلى الأمام؛ ويرتمي رأسها وشعرها إلى الخلف . ووسط الضحك الذي لا صوت لـه تقول : « والله ! هذا كله حكي . » وتصر على قولها باستمرارها في جلستها تلك وبضحكها : مثل طفلة ذكية عنيدة تصر على حقيقة اكتشفتها ففرحت . ثم نتفق على أن ندرس . وينصرف كل منا إلى صفحاته في الأجواء الطليقة للفكر البشري . بعد ربع ساعة ، أكثر أو أقل ، يطأطىء

جذعها في حركة مفاجئة ، وتسأل عن معنى كلمة بالانجليزية. أتأمل الوجه الطفل تحت الضوء الصافي المتدفق من الشباك . غير منتبهة إلى شيء تسأل هي : « لماذا لا تحكي » ؟

وأحياناً أفاجأ بها حيث لا أتوقعها ، في قاعة كرة الطاولة ، مستنداً إلى العمود الضخم مستغرقاً في مراقبة اللعب. بيدي كتاب وبالأخرى زنبقة . تنخطف الزنبقة . وأعجب كيف سقطت وأصابعي ممسكة بها جيداً . قبل أن يتم التفاتي أخمن أنها لم تقع ، بل ان أحداً جثا وخطفها ، وفي اللحظة التالية أرى لبنى تمسك بها . انتابني انفعال شديد ، وقد تعاقبت بضعة ثوان مشحونة . تقدمت إليها وتشابكت يدانا ، وسرنا متلامسي الفخذين مختلي الخطى . ودخلت ذراعي في انحناءة خصرها القريب ، كأننا نهم بجماع غير واع .

حرصنا في كل لقاء على الانفراد . ولحسن الحظ حمتنا العادات الجامعية من التطفل في معظم الأحيان: ليس لأن تأدب الآخرين منعهم ، بل لأن كبرياءهم أبت . اعتدنا أن نصمت أو ننصرف إلى الدرس لدى جلوس ثالث . وقد نزداد انكباباً على العلم ، أو نغمغم برؤوس الشفاه حديثاً مبتوراً بحسب شدة حساسية الجليس حتى ينصرف . نضحك إذ ذاك بلا تعليق ، ونفرح بانتصارنا الصغير . نهب ونبحر من جديد .

على أن تلك الخطة فشلت مع مجد فشلاً مدهشاً : جلس ماداً رجليه رامياً ظهره على ظهر الكنبة الجلدية . واسترخى ،

هو الذي لا يسترخي الا استقماء للحاضرين أو طلباً للعون ممن يحبهم . وبعد قليل رمقنا بحيرة مغيظة ، ثم رفع فمه المطبق نحو أنفه ونشم وقال :

ـ يا اخوان ، والله صحبتكم اليوم « بايظة » .

فازداد خجلي ، وعزمت على استثنائه من غير مشاورتها .

ـ لماذا تضحكين ؟

سألها . وكانت ضحكتها قد كرجت في نبرات قصار متلاحقات ، وهزت رأسها كأنها ناءت بثقل السر الخبيء فيه . وغلبها الضحك ، وغلبها ثانية لأنه غلبها في الأولى . وأخيراً أنت وماءت ، وأمكنها أن تتكلم :

ـ لا يعرف أنك أخي .

التفت إلى مجد بدهشة فظيعة ! ونظر هو ليخمن عواقب جهلي . ونظرت هي إلينا لتستأنف ضحكتها : واجدة فيها صنمين كل منهما مصلاة الآخر .

ـ هو لا يعرف أنك أخي . وأنا لا أعرف أنكما .. يعني .. صديقان حميمان . وقررنا .. قرر كل منا مقاطعتك من أجل الآخر . واستمريت أنا لأرى ماذا سيحدث ...

... في كانون الأول تبدأ الريح القارسة بالسيطرة على المدينة . تذرعها شارعاً شارعاً ، وتلفّ عليها عطفة عطفة . جسد المدينة كله يغدو مهباً للريح . وهكذا غدونا نحن .

ذرعتنا ريح ، ولكن دافئة . ولقد جنيت بها مزيداً من التقدير لحياتي ومزيداً من الثقة بالنفس . رأيت حب لبنى شيئاً خاصاً . ذلك الشعور المدهش بالحيوية والراحة ، الذي امتلك قارة ملذات بلا أسئلة ، وعالماً حراً نيّراً أخصب حتى المعاني الغامضة القلقة التي ننشدها من غير أن نعرفها جيداً : (لم أدر يومئذ بم كنت أفكر . سرت على رصيف يتموج فوقه البرد العاصف . وولجت مخيلتي أحاسيس خامدة لا هدف لها . ثم قفز قوام لبنى بحيوية مفاجئة أمام عيني : على الرصيف الثاني لاح هيكل نحيل طويل في وجهه سأم وانكماش طفولي . وسألت نفسي أين كانت هذه الجنية التي استأثر بها من لم يقترب منها قيد أنملة . تلفتّ ثانية ورأيتها تقف إلى جواره . انتصابة رائعة ، وبسمة غريبة . دفعتني ارادة مفاجئة للهرب . واضطربت مواقع عيني . حين تلفتّ للمرة الثالثة — غريباً ولا علاقة لي — رأيته يمسك بيدها ويتوجه نحو البيت . كرهت يدها . وعلى امتداد الشارع الطويل سرت . ذلك الوجود الممتاز المزروع في مكعّب ، بيت مكعّب ، عقول مكعّبة ، بشر مكعّبين . وها هو يدخل مبتهجاً بزينة بيته الفخمة . وأما هي فتعود ثانية ، وتقف على عتبة الرصيف تجوس بعينيها الفسيحتين عباب الفضاء البعيد ، ربما غير مدركة انها تستدعي بلا رجاء معنىً بهيجاً أو عاطفة مبهمة .

واعتصرت ثيابها الزاهية عيني من بعيد ، كما اعتصرها

الأفق الخاوي . كما اعتصرتنا وقفتها المسكينة : وتطلعها نحو السماء علّ نجماً سيّاراً فيها يبشر بميلاد يسوع جديد) .

ثم جاء دور مجد . جلس يوماً بيننا ، مسترخياً مدخناً ، وقال لها : « اكتبي لي قصة فيها جو سحري أسطوري وقناة تهبط من عوالم الآثار القديمة والخرز الأزرق ، فتجلس معي على مقعد في حديقة الجامعة وتقول لي : قدرك مبثوث في كل قطعة من الطبيعة المحيطة بك وأرواح أجدادنا من قبل محمد ويعرب وأدونيس وأوزيريس تعيش في تصرفاتنا ونزواتنا : فأحس لكلامها معنى واحداً هو أن قدري حضر إليّ » .

لم نفهم ماذا وراء كلماته . ولولا ظهور التعب على وجهه والجدية العميقة لاستسلمنا للاعتقاد بأنها حلم أو مشروع قصيدة لم تلد فخاف على أحاسيسها من التلاشي . تكدرت لبنى ، وقد تعذر عليها أن تخاطب شيئاً من مشاعره المتضاربة . وتأملته حائرة بين أن تظهر التعجب أو فهماً لم تحز عليه . سألت : « ما اسمها ؟ » وأجاب بسرعة : « شجن . » لم نتقدم. وتحكم بنا الضيق ، نحن الثلاثة . قلت : « الحكاية تتوقف على احساسك بحضور قدرك . » وشرح هو ، بسرعة أيضاً : « أجل . الحياة والموت . » وصمت ناقلاً بصره بينها وبيني . وسألت لبنى : « كيف جرت الحادثة ؟ » فتذمر محنقاً : « الحادثة . الحادثة . اكتبي الأحاسيس . الأدب في هذه الأيام لا يستوعب جميع الحوادث ولكنه يحيط بالأحاسيس .

أخي أسيان . أنت . اكتب في هذه القصة . لبنى كاتبة جيدة ولكنها دائماً وراء الحادثة » .

ثم تركنا مخيباً . لم يعثر لدى لبنى على مبتغاه : وقصدني وهو لا يأمل بشيء . وبقيت هي تعالج كدرها بالقراءة. بين الحين والحين تنفض رأسها لترد الشعر إلى ظهرها : ولتبقى في فيء نظرتي الثابتة عليها . رأينا أننا نبرر بعضنا بعضاً ؛ وربما بسبب من ذلك سمعتها بعد هنيهة تنشم . ثم نظرت إلي نظرة خاطفة فرأيت دمعها . وعادت إلى اطراقها . حدث ذلك بسرعة : كان موقفي يعفيها من الذنب الذي أحست به فكبر الذنب على قلبها . سألتها إن كانت حقاً تكتب قصة . فرفعت وجهها وأومأت بالايجاب، محدقة بعينيها الباسمتين . وكانت الكتابة أهم عندي من أسى يوجد مثله كثير . فرحت ، وألححت أن تحضر جميع قصصها لأقرأها . فاستراح وجهها ، ورفعته تغالب حزنها وابتسامها . انتظرت منها جواباً . فبانت أسنانها بشبه ضحكة عصبية خجلى : « كلما كتبت قصة يمزقها » .

في اليوم التالي أحضرت قصة بلا عنوان استغرقت أربع عشرة صفحة . وفي ساعة صحو مد مسعود ذراعيه فوق طاولة النرد المفتوحة وقال : « قرأتها . حاولت أن أخفف من بدائيتها ببعض الحيل القصصية ، رأيت أنها ستفسد . لتتركها كما هي ولا شك أنها نفس جديد . نفس حار يخرج من رئتي

حزن ويأس . لبنى ليست موهوبة فقط بل تملك الوسيلة للتعبير عن موهبتها . أعني هناك موهوبون فقط لا يمكنهم اخراج موهبتهم في شكل فتضيع أو تقصّر . وقد وضعت للقصة عنواناً لا أدري ان كان سيعجبها : عندما ينحب السكون) .

أفرحني مسعود . وأحزنني . من غير أن يقول شيئاً بدا وحيداً . وبعد أن أنهى حديثه سحب ذراعيه إلى الخلف وحرك كتفه الأيمن ؛ ثم جعل يعبث بحجارة النرد . عاودتني وحدتي ووحدة لبنى ومجد وجميع من أعرف . هذا الغراء اللاصق بجلودنا . رويداً رويداً بدأت لبنى تتوارى لئلا أكره منها مواعيدنا التي فصلتني عمن لا غنى عنهم : مسعود ؛ السد الضخم الذي حفظ وراءه ذكرياتي وتعلقاً لا يبلوه الزمن. لقد صار عبثاً وحساساً وضرورياً أن تحتفظ بماض كونته براءة وغفلة وعوز ، أو أن نبني مآرب جديدة عند ذلك السد الذي لا يخصبها ماؤه . وصار مضنياً أن تنشأ المدينة في مكان ثان بعيد ، فالذكريات اقتطعت حصتها من النفس وهربت بها . وأكثر من ذلك ، فقد غنى أي حديث بيننا رتقاً كبيراً . الذي أحزن حقاً تقبل مسعود للظروف الجديدة تقبلاً طبيعياً. لم يشعر أن صداقتنا القوية حالت إلى عاطفة بلا سلوك ، أو أنه شعر ولم يضره ذلك الشعور .

اكتمل الانسداد حين قال بمرح ظاهر : ــ ماذا صار لأبي خالد ؟ كل يوم يأخذني إلى الجامعة ويريني سوّادة جديدة

ويقول « حبيبتي . » ألا يرى النساء اللواتي بلا حجاب ؟ هه ! والألعن أن فتاة في حوالي السابعة والعشرين شهية مثـل الغجريات اسمها (ميغيت) تغازله ! أههه ! هه ! أنظر اليه ! شيء مضحك .

قلت : « ماذا ؟ » منتظراً أن يتاح لي الانصراف بعد قليل .

وأجاب مسعود : ــ يمر أمامها فيفتل شاربيه ويهز مسبحته ، وتتشبث عيناها بوجهه . ويقتربان من بعضهما البعض . وفي ذلك اليوم كادت تلطم به . ووقف ووقفت . العمى ! مثل من يمشي في نومه ! وحملة في وجهها مثل الضبع ليخيفها . وضحك الجميع عليه . وهو مبسوط أيضاً . لأنها تشتهيه ولأنه لا يتعب وراءها . ويتحدث بفخر . ما لنا الآن . كيف هي حياتك ؟

قلت : ــ أنت تعرف حامي القديم .. الذي كنا نتحدث به بين القبور في الضيعة .. أريد شيئاً يكفيني طيلة الوقت .. نوعاً من المثال إذا شئت تسميته .. ذا قيمة في جميع الأزمنة .. ولكن ليس في الذهن ولا في الفلسفة .. عن طريق الناس .. العلاقات الإنسانية التي لها حدوث يومي . لبنى شيء واعد كبير . نحن نعيش بعمق وحذر . وسنحاول أن ننجح . وأنت؟ كيف حال نسائك ؟

— أنا ؟ من قال عندي نساء ؟ قال نساء : قال ، البارحة عضضت الطاولة . ليس في دمشق نساء . هاته النسوة المالئات الشوارع أحقاً يضاجعن ؟ وأسأل نفسي أحقاً ضاجعت في حياتي امرأة ؟ كل شيء أمامك ، ويقف كالجدار ، كالترس. الشارع ، البيوت ، الشجر ، المحلات العامة ، الملاهي : كل المدينة جدار يقف ضدك . ما هذا العمر ؟ .. البارحة عضضت الأرض . اشتهيت امرأة . في البداية تحيرت لماذا أنا متضايق من كل شيء. غريب ! ومرت امرأة فعرفت السبب . خرجت إلى محلاتي المألوفة فلم أوفق بشيء ، وإلى زوجة الطبيب فلم أجدها . لعلها وجدت ضجيعاً غيري . جننت ، لم أعرف الهدوء . وجننت من الجلوس . استأجرت سيارة ودرت في شارع بغداد وغيره ولا امرأة . وكانت عروقي محقونة بهواء مسموم . وأردت أن أحطم كل شيء بدون خوف من المسؤولية . صرت مثل مطاط مشدود . عدت إلى القبو ، وكان مليئاً بأصدقاء أبي خالد . ودخلت قبو القبو ، غرفتي . وصرت أروح وأجيء فيها حتى جننت . وفجأة استرخيت . وشعرت بتعب عظيم منهك . وفرحت من أعماق قلبي لهذا التعب . وبالفعل كان بداية عملية مثل البخر . أحسست بجسمي يبخر وبأعصابي تعود إلى حجمها الطبيعي . وكانت الساعة الواحدة فرأيت أن النوم خير من الجنس .

يومذاك صار كل شيء مفضوحاً معرّى . كان برد مسعود

لو تحدث أربع ساعات . ولا أدري إن كان فعل . ولكني غادرته مشبعاً أحمل عريي وخوفي . لقد ابتدأ تاريخ آنئذ بنفس الاحســـاس الذي خامر مجداً بحضور قدره . امتلأت بالخوف وبالشح والرغبات . ورأيت المسافة التي تفصل بيني وبين الجلد المغضن والوجه الكريه قصيرة إلى درجة مرعبة . وهذه التي وددت لو أنتقم من قدرة جسدها على الهرم ؛ لو أضربه حتى تكل يدي : جلست أمامي تقلب أوراق قصتها بمحبة وتتصفح بعض المقاطع ، ثم تمد بين الدقائق أصابعها فتمط ذيل التنورة المنحسر لكي لا يقول الناس شيئاً. ويندفع عني ظل نخلة فيعود إلي خوفي العريق ، غير قادر هذه المرة على لجم شيء . وينساح مخضوباً بالذعر والالحاح والبدائية ، مخاطباً بالعالم الخارجي الذي وصلني الآن بمثل عالمي ، بلبنى ، بتنورتها ؛ وبمسعود وجنونه ؛ مخضوباً بدم العقل ، معفراً بغبار ذاته .. لماذا لا تجردها يدي بضربة من ثيابها التي لم تترك بقعة إلا وأظهرت صبا وفتوة ؟

ثم ابتردت . ابترد كتفاي وأطرافي . عندما رأيتها تعدل من جلستها ، مطرقة جمة الشعر ، شهية حاضرة ، تذكرت أمي للحظة وليالي القرية القارسة : الأجواء والأشخاص اللذان لم يعرفا طعم الثقة بالنفس ولا اضطراب العالم ، وظنا أن الحب هو الزاد الوحيد في سلة سائحي الزمن ، اللذان ان قدما فعبيداً وان طلبا فمتسولين . أمي الفلاحة التي عرفت القسوة

والتضحية والعرق والحب والصراخ لم تعرف أن تريد، وعندما أرادت لم تعتقد أن لها عليّ الله حق التلبية . من هذه الأضلاع يلد الحلل (لماذا تحدق إلي ؟ سألت باسمة . وأجبتها أني أشتهيها . وأجابت كلا) . نحن نجلد برغائبنا ، بالنوافذ المفتوحة على العالم والشوارع الخالية . نجلد أيضاً بتفاحة آدم . نحاول أن نسترد الضلع الذي دشّن نقصنا . ويعرونـــا البرد الارث والذكريات والبرد .

وتهتف هي : « أسيان ، العنوان الذي وضعه مسعود .. » وتمسك بادية النرفزة . لا العنوان ولا شيء . وتتناول معطفها وتدثّر به . ويقبع جسمها في جحر خوفه . تطرق مغمورة بالاشفاق : عليّ وعلى طمأنينة كمال الثلث العضوي ، وجزع النفس من السكون ، وثورة العقل على الموت . (قالت بعد شهر : ذلك اليوم جربت أقصى صيام . كنت خائفة من نفسي . وأحسست أني تائهة وتافهة . لأن ما شعرت به كان في كل جسمي . ولم أجد أننا نستحق أكثر من العطف ، لا الرثاء ، ولا الهجاء) .

لم أعرف كم كنت محقاً في الوداع الأخرس الذي أنهيت به جلستنا . عرفت فقط أن عليّ أن أنهض إذا شئت أن أقي علاقتنا من المساومة . تذكرت سزى ومرام وفوزية ، والقبل المغصوبة أو المشتراة . وكرهت تجربة أخرى تضعني أمام مزيد من الاستسلام للحاجة أو للاحساس بالتسول . تذكرت

أيضاً نعي أبي خالد للحرية «بين أمة محمد» ورثيت لنا جميعاً .

رثيت للجسد الذي ضل مواطن انفعالاته وفقد وظيفته ، الذي طلبته في لحظة كان يتطهر بها من عهر مارسه سبع سنوات طوال ، مع من ارتمى فوقه بمحض شهوته . وتصورتها في ليالي غرفة نومهما على سريرين ملتصقين تنهار رويداً رويداً أمام دعوات جنس سوقية حيناً وحيناً قسرية ، وتتناولها من الداخل رغبة جردت بفعل الزمن من كل سمو وعاطفة وتلقيها تحت الرمح المسلول بترقب ذلك الجزء الشرقي من شخصيتها الاغتصاب الملذ . وعندما تخرج من الغرفة وتذهب معه في السيارة إلى مكان ما ، يوماً ما ، تجلس في زاوية السيارة طويلة رافعة الرأس لتستبعد الذل الذي عبرها وقد ألقت بها رغبتها على السرير . ولا يضيره سلوكها . هي امرأته على كل حال ، وابتعادها عنه في الشارع أو في الجلوس يقيه حرج المقارنة بين طولها وقصره ، بين أحلامها وشخصيتها العذبة وازدرائه للشيئين .

هو وحده من بين الرجال استطاعت ألا تبتسم له . ثم حوّمت حولها النظرات والمصافحات التي يخص بها الشرفاء من يعتقدون أنها نامت على أسرة أخرى . لم تغضب . خافت . تصورت ظرفاً تلقيها فيه تلك الرغبة العارية على سرير بعيد

ثم تتناولها عنه . وابتردت أعماقها . قد يحدث هذا يوماً .
ابتسمت للرجال . ثم لا شيء سوى الخوف . (ابتسمت له
عندما وقف قريباً منها ، ممتلئاً متوسط الطول . وبحثت عيناه
من وراء النظارات عن كرسي . أشار له رفيقه نحو الكرسي
فرفع رأسه رافضاً : لا أجلس هنا . ثم ذهب . كان الكرسي
يلي كرسيها . والوقت قبيل الغروب .. البرد والعتمة
والهمهمة الخفيفة كل شيء في الطابق العلوي للنادي . وجدتها
هناك مكبة رأسها على الطاولة وكتابها مفتوح فوق تنورتها .
عند الزاوية المقابلة جلس رجل في الأربعين يقرأ . همهمت
لها مرتين أو ثلاث فلم ترفع رأسها . قلت : « الانكباب يؤذي
العينين . » ثم : « أنا حريص على عينيك . » ، ثم : « ارفعي
رأسك البهي عالياً . » ومددت أصابعي مسرفاً في المزاح فلطمت
بشفتيها . رفعت رأسها ويدها بنبرة . ومسحت دموعها ،
وأكبت ثانية ... بعدئذ روت لي ما حدث وهي لا تزال
تبكي . ذهبت إليه وعدت به إليها . « نظري ضعيف والمكان
لا يساعدني على الدرس . » وتلعثم ببقية الكلام) .

بعيداً عن ذلك العالم — أو ربما قريباً منه — طاردت
لبنى . وزادني ثقة أن كل شيء مفضوح معرّى ، نعرفه
ونقاتله : هيكل خشبي قديم حرثنا به وليس الجرار ، أخلاق
ودساتير من وراء العالم وليس القناعة الشخصية ، كتب
الكتاب وليس التجربة ، الوصاية وليس الحرية . ومرت أيام

الشتاء الأولى دافئة هائلة . لقاءات غفل وصحبة وغزل . منحتنا هجرة من ذلك العالم . هجرة طفلانية . خرجنا مثل سنبلتين شقتا التراب وتفحصتا بالقليل الناتىء منهما الهواء والضوء والطقس ، ثم استأنفتا علواً في سديم الفضاء .

وكانت هجرة كجميع الهجرات : نريد وطناً ، « مدينة محمدية » كما قال أبو خالد . قلت لها : « هل تعرفين السر في أزمة آدم ؟ لقد خرج منه ضلع . والسر في أزمة حواء ؟ أنها ضلع . وفي أزمات أبنائهما ؟ أنهم لا يستطيعون ارجاعه إلى مكانه – اما لأن الضلع الذي يقع عليه أحدهم ليس ذاك الذي خرج منه ، وأما لأن عملية الاعادة تصطدم دائماً بما تراكم عبر التاريخ من قيم وعقد نفسية وظروف . وبالرغم من مجيء الأنبياء والرسل ظل الضلع في الخارج واستعيض عنه بمسكنات . » وردت هي بمزح وجد: « أنا لست ضلعاً . وقالت : « المهم . أنا أرغب في أن نتحد ، سواء بالأضلاع أو بالفرن . إذا أردت ذلك فاعلنيه ، وإذا لا ، أعلنيه أيضاً . ألم يحدثك مجد عن نقطة المنظور عند الرسامين ؟ أمضيت ستاً وعشرين سنة باحثاً عنها . وحق الله بحثت عنها مذ ولدت . وأعتقد الآن أني وقعت عليها عندك : أن نتحد بسلام : نبني علاقة ، نتأكد من ملكية الإنسان في الأرض . هذا العالم عدو لنا . يحاول باستمرار أن يجعلنا جزءاً منه مؤقتاً . قولي . »

عندئذ أسلمتني مفتاح المدينة . ليس باطمئنان كما توقعت .

انما بخوف ، بدفء وغربة ووعد وتعب . نظرت إلي عندما أقبل الباص ، ثم استدارت ودخلت من الباب الخلفي . عبرت الممر الضيق فيه باحثة عن مقعد خال وجلست . ومقابل النافذة في الجانب الآخر سكن رأسها غير ملتفت : شعرها الأشقر ينسرح من ربطته السوداء وينزل على ظهرها ، قامتها منتصبة ثابتة كأن الصمت ولد منها ، من فمها وجيدها ووجهها وأنفها .. وبقيت على موقفي أتأملها حتى غاب الباص .

بعد أن سافر زوج لبنى إلى موسكو في بعثة مفاجئة تراخى الضيق الذي أسكتنا كلما تحدثنا عن لقاء . من حيث لا كلام خرجنا في الليالي مع مجد إلى مرسم الفنان (أ) . هناك يتركنا مجد إلى صديقته شجن ليمضي معها ربع ساعة كل ليل خلال نصف الساعة الذي يقضيه خارجاً نجلس مع صديقنا الجديد في جو الفن المسكون بالألوان والأحاسيس الغريبة . وربما شرح لنا لوحة يرسمها فنصغي له . أتأمله ، وأتأملها جالسة في ذلك المكان الغريب . ويأخذني الفن بجديته وبحثه المتعب عن هوية وتعويض فاسترخي في حزن غامض ، وتصور بطيء لخلجات الذعر يفجرها الابداع على مساحة من قماش : للأحاسيس التي تنتقل بارادة مبدعها عن عالمها المخصوص الطاحن كأنها عبرت مطهراً إلى عالم حيادي كان بوسعها أن تفنيه ؛ فتنسكب هناك أسيرة مطلقها وخلودها . وتصمت

لبنى متأملة بدورها عالم الخلق الذي فكك هدر الحياة اليومية عن رتيه .

في أي ذهن يكون زوجها في تلك اللحظات ؟

ويحضر مجد : « أخي الفنان ، ألوانك متشاجرة اليوم . » ويضحك ضحكته المعتذرة المدللة بوجه صديقه ، منتظراً أن يظهر له سروراً لم يتخلخل . ويرد الآخر فاركاً راحتيه أمام وجهه : « شاهد إذن كيف يتشاجر غير البشر . » ويضحك معجباً بجملته .

ثم يعتذر مجد كالعادة بإيصال لبنى إلى البيت . ننطلق وقد يرافقنا (أ) على الأرصفة الباردة عبر حواري وأزقة نصف مجهولة . ألف ذراعي حول خصرها وأشدها إلي حتى تضطرب خطانا . وتبتسم هي قريرة النفس مسلمة خصرها وجسمها . تنخطف بانصاف خطوات لئلا يفسد التحامنا . وفجأة يخيفها مرور عابر يعرفها أو التفات (أ) إلى الوراء . وقد تملص وقد لا تملص — بحسب ما يكون اتجاه عقلي . ونبقى ملتصقين فلا أجرؤ على رفع يدي للمس صدرها أو انزالها ، ولا يخطر لي ، كأن الألوان والظلال والرغائب التي عمدت عروقنا بالفن قبل قليل لم تطلق فيها لذة الحس الضرورية والأساسية ، وانما شفافية أرهبتها روحانية الجنس . لكأنني بعد كل شيء شرقي حقاً .

يغيب الاثنان في سيارة أجرة . وتغيب السيارة في امتداد

شارع بغداد الطويل الغائب في دمشق . وأضع يديّ في معطفي وأرفع كتفيّ ، وألوي إلى القبو . هناك أرتج باب غرفتي ، واستلقي على السرير شاخصاً إلى السقف . شيء من فرح سليمان ومن طهرانية علي يسريان في الذهن الذي لا يتعب . ليس نبياً بالطبع ؛ ولكنه يجب أن يقيم عالماً متيناً في ذاته . وأنهض بفعل البرد . أوقد النار في المدفأة ، وأصطلي قربها . بالتدريج يغرّقني شعور عميق بأن القبو أفضل مكان في العالم ، وأن فيه فقط أعثر على شيء من ذاتي . ففي هذه المدينة الموشحة بألف طيلسان ليس لدى المتعب سوى فسحة صغيرة مطمورة في الأرض يتحادث داخلها إلى البشر ويحلم بهم.

اتفقنا في الأيام التالية على أن أدرسها اللاتينية . كانت الكلمات مشبوبة وعصبية . ترددت هي ، وامسكت أنا عن الالحاح . نظرت إليها بامعان وسكون حتى ابتسمت . ثم أطفأت سيجارتها بأناة . وأعلنت : « طيب » .

في اليوم التالي قرعت الجرس ففتحت الباب باسمة . استقبلتني كما تستقبل ضيفاً يكثر التردد لزيارتها. وقبل أن أجلس انتحت بي ركناً في غرفة الاستقبال لتقول : « أنت لا تعرف دميانة . هي أعمر من مجد . وكادت أن تعنّس ولم تتزوج . إذا رأتنا في وضع كالذي ملأت رأسك بصوره .. والله العظيم إذا حاولت .. إياك .. » .

وكفى ذلك برغم لهجته الطفولية ليحل بي نوبة من أسى

يائس كئيب وخيبة متعبة ، رأيت فيه أفصاحاً عن غياب الحب ، وبدوت أمام عيني مستجدياً . سلمت على دميانة ببشاشة ملائمة ، وأبديت أسفي لانسحابها الضروري . جلست ولبني إلى الطاولـــة وبدأنا نحلـــل اللاتينية . مرت الدقائق جامدة مثقلة . يتقابل وجهانا في نظرة حيادية . ننصرف إلى الدرس . تسنح أثناء القراءة فرصة فأمعن في النظر إلى وجهها وقد أحالته انفعالاتي إلى محض موضوع للتحسس الجمالي .

في اليوم الثالث خرجت هي من ثقب الابرة وقد ضايقها جونا المفتول . قالت : « ماذا حدث ؟ » وانشدت شفتاها على بعضهما البعض بضراعة متقصدة، وضاقت فتحتا عينيها مثل من تحاول ن تظهر انفعالاً . قلت : « انزلقت سريعاً في حبي لك : وكان بودي أن أصنعه بهدوء . المشكلة أني لا أستطيع مقاومة احتياجاتي . » وصمتنا وتركنا الكتاب . هدأنا ، كل على كرسيه . وبدأنا نسمع أصوات غسيل الأواني في المطبخ. صمت البيت والحي ، وبالنسبة لنا ، المدينة أيضاً .

قلت : ـ ما أحلى أن يحب الانسان ويحَب . ما أحلى أن يرقد .. يرقد فقط ، في غرفة لا يراها أحد ، ولا يدخلها الضجيج . ما أحلى أن يحلم بتسرية : بسعادة .. أن يرى غدائرك طليقات كغدائر طفلة شقية وعينيك بلا دموع .. وأن يرتبط بك ارتباطاً أعمى .

... يصعب على الذاكرة أن تطرح بكلمات كيف اختلجت عيناها وتواثبت أجفانها . ثم كيف أطبقت تلك الأجفان ، وأسندت جبهتها على راحة يدها . طوّقت وطرفت الاشياء . سكنت . ذرتها المشاعر بلا عقال . وأحسست بتعب في صدري كأن قلبي قد رفع قليلاً من مكانه. بعد حين همست هي : « أنا أحطم من يحبني ، أتعسه ، أعذبه . » وكان صوتها هامساً راهباً . أحسست بالتعب ، وبأني قد جزت حدود تحملي . واذ دفدفت نحوي عيناها الغائبتان تذكرت حوادث مضت عن مسعود وسزى . سحبت يدي إلى وجهها فاندفع الوجه نحوي ؛ وارتمى جذعها إلى الأمام بانتظار . سحبت بيدي على ظهرها، فوق تحت، ببطء وترهب . وأطرق وجهها وجذعها بغير ارادة . وملكني اندفاع فسحبتها والكتاب والأوراق إلى الكنبة العريضة . طوقت ظهرها والصدر والابـــط . واستغرقت هي ، مطلقة وهجاً مملوكاً مالكاً . وأرجعت ظهرها إلى الكنبة فارتمينا جذعاً لجذع .

بعدئذ استحالت جسمها محرماً محرماً ولم يبق إلا بوابة الشرق . تهاوى من وجهها غبار الانفعالات الأولى وتركه هادئاً، مغمض العينين . واستلقى جسمها نصف مغشي ، غير حريص ولا رخيصاً . وكالعادة عند من يتفجعون لغياب الحس وينسون الانحماس المتاكة : وقر في ذهني أن ما حدث محض لذة جنسية . كان الحب غائباً : استسهلت هي

أن تحجبه لتهتمّ بقضية أخرى ، أية قضية ، وأقبلت عليها وقفاً لخسران حاضر ، أي خسران . وتنكمش لوهلة مسرحاً للأضداد ، هي المرأة ذات الطلعة الآمرة التي روّضت الرجال.

في الصباح التالي تفتح دميانة الباب . ويمضي النهار حديثاً وتناول قهوة . هي ، صامتة . دميانة تعوض عن ذلك بالدماثة والبساطة وتنصرف . ثم ليس لدينا سوى اللاتينية وتقبل عليها كأنها نشيد الانشاد .

أودعهما فتمشي ورائي إلى الباب كاسفة الخطو . تهتف بغتة : « زعلت ؟ » وتصمت صمتاً مطبقاً . « لم أزعل . احترت ! » تهتف : « كيف سيكون الحب ؟ لن نستطيع أن نعمل شيئاً . » ثم تلف يديها على بطنها وترفع كتفيها . تصمت جميع جوارحها ، ويظهر على وجهها عمق عتق السنين . بغتة تهتف : « بالأمس كنت سخيفة . لم أكن أنسجم أو أحب ، وانما أدعي الانسجام والحب . جميع حركاتي كانت مسرفة حتى الافتعال .. أنا لا أعرف كيف . » وصمتت بلا حراك حتى ابتعدت .

دروس اللاتينية لم تتوقف . وتقول دميانة : « أجل . ستحزق أكثر ، العلاقات بينها وبين زوجها . » ثم تنصرف إلى شؤونها الخاصة راغبة عن الكلام . ومرة أخرى ، تجلس لبنى على الكنبة ، حافية وبنصف كم . يتلاشى الحذر والحشية بعد الدقائق الأولى . أمد يدي إلى وجهها دون أن

أجرؤ على نية واضحة ، فتندفع ذابلة العينين ، وجهاً وفماً وصدراً . تتوقع ، ترسل النظر ، تطرق في خجل عابر : وتعتنق فتسرف في الحركة والتنفس . بغير حدود تتضاعف الحياة ومعانيها . في لحظات سريعات تقذف برأسها إلى الوراء نشوة ، وتخرج من أنفها أمأمة وحفيفاً . تتأنث أكثر مما ينبغي ، تعطي وتتلاشى . تمثل ، ربما أكثر مما ينبغي . ثم تنهمر من فمها ثرثرة طويلة يقطعها الضحك وحركات الرأس . تروح في حديث عن سرقاتها يوم كانت طفلة وعن حواراتها مع النساء الدمشقيات ، فيما يخض الضحك جسمها ، ويرمي برأسها طيش مفاجىء نحو جميع الاتجاهات . حتى اذا سكنت أثبتت عينيها في عيني كأنها تقول : ماذا يمكنك أن تفعل ؟

أخيراً نتودع . أغادرها تاعباً وخالي الذهن . وتضيق بي المدينة وأنا أرتد إلى امتداد شوارعها .

في القبو تنغسل الانفعالات العابرة . ويبقى بين الجدران عكر واحد قديم ، عكر ذو حواس خمس وذهن مجرثم .

— ٢ —

استغرقت لقاءاتنا في مسكن دميانة نصف شهر . تصاب الهلام خلالها رانحلت الصبوات الصغيرة إلى وشج . بين احجامات لبنى العجيبة واندفاعاتها المفرطة سطت علاقتنا على التردد وضعف الثقة ومضت قدماً وراء الحلم القديم بالوحدة: بالدائم في مدى الزمن العابر .

لكن مجداً أوقفنا جميعنا . أوقف مسعوداً أيضاً — بالطبع ! — وأبا خالد وتركية .. وزاد المفاجأة أن كلا منا في تلك الأيام — مسعود وأبو خالد وأنا بالإضافة إلى مجد — أبحر على ظهر سفينته بمفرده . لكن مجداً عاد على غير توقع محتضناً خاتم سليمان . فجأة أعلن أمامنا أنه سيتزوج . « أخي أسيان : ماذا سوف تهدينا ؟ » بهتنا : باستثناء أبي خالد الذي هنأه فوراً ، ولم أفلح في معرفة الرفيقة . كل شيء مضى غامضاً صامتاً في الشهر الأخير : سوى لقاءات قصيرة مع شجن وأحاديث عنها أقصر . وزادنا استغراباً ذلك اليقين الصامت

من أن فتاة يقبلها مجد لن تقبل به . استبعدت شجن بالطبع
– البرجوازية الجميلة ، طبيبة الفقراء – لأنها مسلمة ولأنها
نقيض تركية الأقصى الواقف على أبعد مسافة كونية منها .
واستبعدها أبو خالد للفارق الطبقي . مسعود لوحده لم يستبعد
شيئاً : فقط فوجىء، وكان يعتقد أن مجداً لن يعثر على ما
يريد . وقال حبيب : « كل الأسباب واضحة في تفكيري .
ولكن السؤال الذي أطرحه بجدية هو : إلى أين سيؤدي القمع
الدائم للأنانية بصاحبها ؟ وأنا أعني بسؤالي هذا شجن ، إذا
كانت هي المرشحة . » .

ولم يعتقد أحد أن هذا الزواج سيتم .

في النهاية تأكدنا من أنها شجن . « شجن من نوع آخر .
لقد كرست بكارتها نفساً وجسماً لذلك الذي سيهبط عليها
من غيب الزمن .. بحر محيط من العطاء ولا أخذ .. فضاء
منير يخفق فيه جانحاك .. » (قصيدة عن شجن والحرز
الزرق ، عصبية مقطمة بالصمت ، مفتاح اضافي للقبو لأجل
زيارة واحدة لم تتم ، لأن شجن تأخرت عشر دقائق ولم
ينتظرها : « ألا تسامح صديقتك بعشر دقائق ؟ ربما حملت
عذراً ؟ لا بأس ، يوماً ما سأنتظرك ساعات.» وتركية والكاهن
الذي صاره قبل أسابيع . لم تكن كلماته إذن هرباً وادانة ؛
وانما لحبيبة واراها ووارى معها أول لقاء له مع العالم .)
« هل حلمت بعلاقة لا تستطيع منها فكاكاً ؟ » كلا . واستسلم

للحلم الذي هرب منه تسع سنوات متسلحاً بعزيمة أوراها اليأس . كم مرة راودته الرغبة في الانتحار ؟ وكم مرة بكى بسبب وحدته ؟ ذلك كله سر . وصار بالنسبة لنا حاضراً غائباً ، كأنه حجم من ضياء يبحث عن فسحة عتم . وها هو الآن يلتقي بالقيم التي عاش على نفيها . كما يلتقي الصوفي بحضرة الاله : يتحدث عنها . وعبر كل ذاك اتفقنا مرة واختلفنا مرة : اتفقنا في الأيام المحرورة أن ننعي موت القيم في العالم ، واختلفنا الآن في آخر حديثنا عن لبنى وشجن : « شجن هي القيم . » ويضيف بمسرحيته المرجحة : « جاهزة حاضرة .. برشامة خلاص . » وأقول له : « لبنى وأنا نصنع القيم ، لا نكتفي بقيمة الانسان الذاتية . » ويهز رأسه بغفران ونشوة . « آه يا أخي أسيان . أنت لا تعرف . الارادة لا تخلق القيم وانما الرضى . العالم متعب وأقوى من ارادتنا . الرضى : أخي أسيان ، الرضى . » ومددنا يدينا ، كل إلى ظهر رفيقه وسرنا بغبطة . مجد فقط كان يسعه أن يقول أي شيء أو يفعل فلا أشعر بالغربة . لم نبال بالاختلاف ولا بالنزاع . ولم يطلب أحدنا من الآخر إلا الفهم . ففي لحظة لقائنا نستحيل إلى شاهدين موضوع رابطتهما العميقة الانسان في زلله وقصوره . في ذلك المساء صار مجد شاهداً وموضوعاً غمرته لقياه وفاض به نعيمه . ومن غير أن يتلبس بالهدف أشار إلى تركية : « أنتم الثوريين لا تبالون بأية قيمة . حتى الحب والحرية لا يرضيانكم

إذا لم يلتويا بحسب عقدكم النفسية . » ويضحك ضحكته ، هذه المرة بغير اعتذار .

وأقول له : « ان مشكلتهم أنفسهم . »

ويحين موعد زيارته لشجن ، فأودعه أمام بيتها وأعود . رأيتني وحيداً ، وراودني شوق للتجوال . كان علي أن أنفض عني ثقلاً شخصياً غير مرئي .

عزفت عن دخول القبو بسبب من جمهرة شباب احتلوا غرفه الثلاث . وبهدوء خمنت أن هؤلاء رفاق أبي خالد . جدداً وقدامى . تابعت مسيري التائه ، استنشق الهواء وألف معطفي حول جسمي جيداً . النوافذ مغلقة . الشوارع مقفرة . المدافىء في البيوت تجمع شمل البشر. هناك أطفال يلعبون أو يأكلون أو ينامون . وملايين الحكايا .

عصر اليوم التالي ، في جلسة مملة ، اضطررت لقراءة جريدة . كان عنوان الخبر هكذا : « شاب فلسطيني يحاول الانتحار !! » ووقع الالتباس في الاسم ، فبعد كلمة (مجد) جاء اسم الأب مضافة اليه (ال) التعريف بدلاً من اسم العائلة الذي لم يرد . أسرعت اليه في شقته فلم أجده . وتلفنت للبنى فقالت أنها لا تعرف عنه شيئاً . وفي المستشفى لم يأت اسمه في سجل الاسعاف . طمأنتني سجلات المستشفى فمشيت الهوينا إلى الجامعة . هناك بلغ بي الألم توتراً مضنياً . لقد

صدقت الحبر معتمداً على قناعتي الخبيثة بفشل زواجه المقبل ؛ هو الذي أحبه والجأ إليه . وتساقط على أرض من الادعاء تاريخي وثقتي وروابطي . وافعمتني مشاعر الفشل بالكدر والمرارة .

عندما التقيت به ومسعود في الصباح ، كان يغزل في مشيته على « شارع الشعلان » ، وقامته النحيلة تترنح كقامة شيخ صوفي . رأيت عينيه صافيتين لأول مرة ، ووجهه ممسوحاً باهتمام طفيف بالعابرين . سلم علينا بأسلوبه المرح الفياض . ضمّنا وسحبنا معه بغير استشارة ، مخرجاً علبة دخانه . اندمج مسعود بسرعة طارداً تلك الفكرة المروعة من ذهنه . وبقيت شبه ملجم فما ووجهاً . سرنا معاً في حمية خلقها مسعود ، وذكاء مجد : والحقيقة الجديدة عن أن مجداً لم يحاول الانتحار، بل غيره . والتفت الي فجأة وسأل : « ماذا بك ؟ » واضطررنا أن نحكي له كل شيء . ضحك بصفاء وعنجهية ، وصاح : « ما لكم ؟ كأنكم تريدونني أن أنتحر فعلاً ! »

يوم الأحد تم الزفاف . وقف مجد أمام القاضي بغير احتفال . ووقفت شجن هادئة مكتملة . لم يبن منها سوى ساقيها المليئتين (ساقان تنبئان عن الهيكل كله) . وارتمى شعرها الأسود حول رأسها ، متقوساً فوق الجبين وعلى الوجه . عيناها فقط أعطتا انطباعاً طفولياً . أما وجهها المربع وشفتاها

المليئتان فقد أبرزت نضج امرأة .

قضيتان فقط كانتا معقدتين : تلقي العائلة المحافظة للنبأ القاصم ، واجراءات تحويل مجد إلى مسلم . وقد منحتهما الأولى غبطة عادلت تعب الثانية .

قذف بكل أشيائه فوق اليابسة . هنالك تمددت امرأة إلى جانبه ، رضيت به الرضى كله . (تصور قيمة ذلك .) ولا يراودها الغضب أو الضيق أو الخيبة أو الرغبات الشخصية أو الكيد أو العناد أو السلبية . سوف ينام جيداً ويأكل جيداً . في الصباح يأتيه فنجان القهوة وكذلك بعد الغداء . يطالع ، ربما الصحف . ويقول أبو خالد : « كل واحد منكم ينتقي مصيره مشوهاً . أنت من حفرة إلى حفرة . مسعود ، لا يعرف ماذا يريد سوى السكر والطاولة . مجد .. أصلح نفسه الآن . ولكن أنتم، وحبيب، لا أدري ماذا أسميكم . منطلقون بعكس اتجاه الحياة . » وهو الآن ينظر إلى السرير فيراه مرتباً أنيقاً ، ويستلقي عليه فيحس بنظافته ورائحته . وتحت اللحاف يهل عليه الدفء ، فيغمض عينيه وسط تيارات دافئات . ويهجم عليه النعاس بلا ابطاء ، فتحمله جوانح إلى أوطان الدعة والحبور . يغمره سلام العالم وعذوبة الكائنات . يدثر باللحاف ممسوس الحواس بالليل البكر والبال الرضـي والوجود النسوي الكريم .. بالعالم ، ملك يديه . ها هي ذي امرأة سوف يحفر فيها وتحفر فيه حتى يبلغا جميع الأعماق

المقنّعة .

مرت أيام وباب الشقة مقفل . تعين علينا طيلة تلك المدة القصيرة أن نتصور بدلاً من أن نعرف . لم أدر ماذا أقول لنفسي وأنا أسرد مئات التصورات في اليوم . على الأقل انتهت رحلة الموت وبدأت رحلة الحياة . وحقاً فقد اختلجت بنا عاطفة أخف قليلاً من الحسد ، ولو كنا صادقين لصارت حسداً . ها شيء استثنائي يحدث ولا يمكن فهمه . وأحياناً رأيتني أسأل : هل يمكن أن تنهي الصدفة كل شيء ؟ وأحس بالتهديد ، بالكذب ربما . لقد امتلك مجد الدليل المادي على صدقه .. وانطلق إلى لبنى . أراها وأجلس معها وأحبها ، أضمها وأشدها بكل قوتي ، أدمر الاثنين فينا وأعيش الواحد . وأسلط عليها أقصى ما أستطيع من قدرة على الفهم والاستيعاب ، وأنبش الخلل والتوهم وراء اللقاء الغني . كل شيء لديها ، سوى غشاء بلاهة يبرقع الوجود . وبالطبع فضلتها هي ، بنت يسوع التي عرفت التجربة في كلا وطنها وجسمها ، واكتشفت هشاشة ذلك الوجود .

وتوضع نهاية للحوار بين مجد وبيني ، فقد ولج أسوار الزواج الكهنوتية . أعكف بالصمت على درب حياتي ويعكف هو ، لا خوفاً من النهاية ولا تحدياً ، وانما للشهادة . أخيراً نلتقي . نفتح أيدينا ، ونكاد نقهقه من الفرح ، ونتعانق . وعلى الطريقة الشرقية التي أعانته في كل مناسبة

على تفريغ عواطفه . نتبادل قبلاً عنيفة متلاحقة ضاغطة . حتى إذا أخذني الحرج ، فك ذراعيه عن كتفي وقادني من يدي إلى حيث وقفت شجن تبتسم . وجهها المربع هادىء مسرور ، وعيناها اليقظتان هادئتان أيضاً . صافحتها بحرارة . وتلعثمنا كلانا بالكلمات . ثم طفنا في غرف الشقة : مجد يشرح ايحاءات الديكور الأنيق ، وهي تبتسم ، وأنا أشاهد .

نتناول القهوة بغبطة نصف صامتة . أسئلة قصيرة معروفة الأجوبة ، ونسترخي على الأريكتين . ندخن ، ونستطرد إلى « أيام زمان » فننبش منها الاثارة والمعاني ، ونضحك ويهتف هو : « أخي أسيان ، باعتبار أني سأهجر الشعر إلى ما لا أدري ، سأشتغل بترتيب ديواني وأعده للطبع . اتفقنا ، أنا وشجن ، على أن تقضي أنت ولبنى بضع ساعات عندنا كل يوم ، نعمل ونتحدث . ما رأيك ؟ » أجبت أن هذه منحة وليست عرضاً . وقال : « هذا عرض باسم الحريـــة . » وضحكنا ، ومال رأسه فوق كتفه ليؤكد على غرضه المستتر وراء كلامه . وفيما يطفيء سيجارته في المنفضة الفضية تناول عن طنفسة مجموعة مضطربة من الأوراق . قال : « هذه هي ديواني . » وبدأنا نقلبها .

— ٣ —

الشارع قريب من حديقة السبكي . والمبنى ينهض على الناصية . الطابق الأعلى ، الثالث ، يحوي شقة مجد . وعندما ينغلق الباب فعن المدينة كلها . هنالك بدأت الرحلة . منذ مغيب الشمس وحتّى ينتهي الليل يتحول البيت العالي إلى محراب .

كل شيء يتراكض الآن على سهوب الذاكرة معتمراً بالحل والترحال والحيوية الضافية . أريكتان مريحتان أمام جداري الغرفة ، وطاولة معدنية بينهما ، وسفح من الشعر الأشقر ، وانفعالات مهاجرين على أرض بكر مقفرة ، لباس للزمن البديد في عرى حوادثه ومعانيه ، وقوام مفتون رشحت في خلاياه الصبوات الممسوسة يسترخي في جلسة بحرية . سكان ممسوسون . ونستسلم للحظة تغدو أبداً ، أجنة سرت بها دفقة التكون صامتة فيها أقدارها . أن كل ذلك يبدو الآن متعباً . الغرفة : جدران مغطاة بورق صقيل حافل بالرسوم ، والمدفأة

تغرغر نارها ، وعلى الأرض سجادة .. بعد كل شيء تبقى الصور الحسية سيدة الذكريات ، يبقى المكان فلكاً للنفس . وتبقى الصور التي تركتها الحوادث ، لا الحوادث ، لوحات على الطريق الطويل القصير . لوحات تشير للذاكرة عندما تعبر بها ، ولأي عابر آخر ، أن قد مر من هنا زمن وبقيت معان .

لوحة : ينسحب مجد ليشارك شجن في صنع القهوة . بهدوء يغلق وراءه الباب . ونسمع للحظات ثرثرة المدفأة . تقيمني الرغبة الحائرة عن مجلسي لتلتقي أعيننا برهة . وأقول للبنى : « هل تدخنين ؟ » وأقدم لها سيجارة . تبتسم بوجوم . تمسكها بشفتيها . « هل نشعلها كما في السينما ؟ » ونضع عود الثقاب المشتعل بين السيجارتين . تمج شفتاها الدخان . تطلقانه وأنا واقف أمامها . ويهوج شيء مثل حقد نافذ الصبر ، كعاطفة واصل إلى السلطة باندفاعه لا بتطوره . تجمد هي وقد استولى على انفعالاتها خدر عصبي رجها وهي في زجاجة . تغطي عينيها بأجفانها ، وتنفض السيجارة بلا رماد . ثوان ، ويبدأ عناق شبيه بالغسل ، بفصد الدم .

ينشق الباب وتطل منه صينية قهوة . تتلملم لبنى ، وتتناول ما بقي من السيجارتين .

لوحة : شجن ولبنى تقرآن . مجد يتفرس في أوراقه . أنا متمدد على السجادة أترجم المسرحية لفرقة الجامعة . لا

صوت إلا للمدفأة ، وأحياناً تقليب أوراق . يتمطى مجد فوق الأريكة وينقلب على ظهره محدقاً إلى السقف .

لوحة : في المطبخ الضيق نجتمع نحن الثلاثة . أتناول السكين وأبدأ بيشر البطاطا . وتعقب شجن بصفاء : « أعسر ؟ أنظر إليه ، مجد . » يقف مجد على العتبة ويصيح متباهياً : « قولوا لي كيف أساعدكم . » تبتسم شجن وتنظر إليه بحب عظيم . تتناول صينية الومنيوم واسعة وتقصد الصنبور فتضعها تحت الماء . « سيأتي دورك وقت الأكل . » وتنثر في الماء مسحوق صابون ، منهمكة في غسل الصينية . يستدير هو إلى كرسي مريح ملتقطاً كتاباً . ويخرج صوتها المشبع بحنّة ضعف : « أنهيت بشر البطاطا ؟ » فأجيبها بأخذ الحبّات إلى الصنبور وغسلها . أتناول السكين وأقطع الحبات شرائح متوسطة الثخن . وتفتح هي عنبراً فتخرج منه بصلاً : « هذا ما تريد . » وأهتف : « آه ! كم أنت كريمة . » ونتابع عملنا .

يلقي مجد بالكتاب جانباً ويأتي إلينا ، ماداً يديه على جانبي اطار الباب : « أريد أن أعمل عملاً . » وأقول له : « عجبت من ملك يريد أن يعمل . » وتترك شجن بصلاتها مقتربة منه . تلف خصره بذراعيها محبة باسمة . ويقبلها قبلة صغيرة . « ما رأيك لو تشرف على عملنا ؟ » وينظران إلى بعضهما البعض : هو كالنسر فارش جناحين ؛ وهي كالعش باسطة

قلباً . يتعانقان بهدوء وسكينة . وتنسحب بين يديه إلى غرفة النوم .

انتقل إلى البصل فأقطعه . ومن البراد أخرج شرائح اللحم. بطريقة ما أقلي ما بين يدي من مواد . أتهدل إلى جانب الطبّاخ مراقباً بؤرتي النار والمقلاتين .

يقرع الباب فافتحه . لبنى بالطبع . تقف على رأس السلم بمعطفها الوبري الأخضر وكتابها على صدرها . أشير لها باصبعي أن لا تحدث ضجة. تبتسم ، وتتساءل عيناها : « لماذا أنت ؟ ولماذا باب المطبخ ؟ ثم : أنت تطبخ ؟ » وتضحك بقوة ولكن بغير صوت على ما اعتبرته أسوأ بفتيك في تاريخ الطبخ . وتهمس : « وبصل أيضاً ! » وتكرج ضحكتها مخنوقة ملحة ، ويترنح رأسها إلى الأمام كأن نكتة ممتازة قد رويت لها . لا أبالي . أقول لها : « إرمي معطفك ، وتعالي ساعديني في نقل هذا الطعام الفاخر إلى الغرفة . » وتذهب إلى المشجب ، وإذا صوتها يعلو إلى مداه الطبيعي : « والله سوف تأكلون أكلة .. » وتخرج ضحكتها كماء ينصب في ينبوع . وتعود بفستانها الضيق ، بهية فاتنة . تبتسم في توقع وتقترب ، تقف أمامي وقد رأتني ثابتاً أنظر إليها . وأقول لها : « تعرفين ماذا يقول شكسبير عنك ؟ » فتكبر ابتسامتها بالزهو والرضى . وأقول : « يقول : لا يستطيع العمر أن يذبلها ولا أن يسرق تنوعها اللانهائي .. وساعة تتخم محبها يحس أنه جائع أكثر ، يا

الهي ، كم تفرحين قلبي . أشعر بحاجتي لك إلى درجة يصيبني عندها الخوف . أحياناً أفقد متعتي بهذا الحب لأني فاقد قدرتي على الاستقلال عنه . يجب أن تكوني لي . والله أنه يجب . » وأصمت متأملاً وجهها الطروب المسترسل . ثم تطفر من عينيها دمعات وتطرق . أقبلهما بامتنان . (لم أدر يومئذ أن وراء الدموع ، أية دموع ، أسراراً لا تكشفها اللحظة الحاضرة ، لأن الإنسان أكثر دائماً مما يبدو لغيره) . أضمها . وترفع ذراعيها على كتفي مستقيمتين ممتدتين في الجو ، ويرتخي رأسها الى الخلف وجسمها . كأنها ودت لو تطير أو تغفو . ثم تغمغم ووجهها ينشد على كتفي : « تركت البنتين وحيدتين . » ...

نشرع بتناول العشاء . وتسأل شجن حباً بالحديث : « أسيان ، هذا المسمى أبو خالد ، صديقك ؟ » فأجيب : « وصديق مجد . » فتعلق : « مجنون ! » ونلتفت اليها بانتباه . « هذه المرأة ميغيت .. يعني صار التقاؤهما في مكان واحد مشهداً سينمائياً .. هي ، يعني ليست ممتنعة كما يتصور .. أعرفها .. ليحدثها على الأقل بدلاً من البحلقات العجيبة بينهما .. والأدهى ، أنه يتركها من هنا ليلتقي بفتاة محجبة هناك .. يا معين ! مثل بقرة هولندية .. يعني .. أنا محتارة في الواقع .. » وتختم حديثها إذ تجد أن عليها أن تضحك وقد انطلق مجد بضحكته النشيجية ، وضحكت أنا متخيلاً أبا خالد . ويبدو حاجبا لبنى منعقدين : « أبو خالد ؟ سمعت

بهذا الاسم . أهو مباحث ؟ » ونملأ الغرفة ـ مجد وأنا ـ بالضحك ملتفتين اليها . « لو تعرفينه لضحكت مثلنا . » وتنتظر هي نصف باسمة ؛ فأقول : « لا يزال يؤمن أن من الرجولة حرق عانته بالكبريت .. ثم مباحث ؟ » وتضحك هي : « بذيئون . » .

أسأل شجن كيف عرفت ذلك عن أبي خالد . فترد باسمة جدية : « كل الجامعة تعرف . » عندئذ يتناول مجد أوراقه ويسترخي على الكرسي . لكن لبنى تهتف : « أريد كاتو . هذا ليس عشاء .. لا تحملق ! » وتتقدم العيون بطلبها الصامت فأنهض . أنزل السلم الضيق ببطء . وكذلك أعبر الشارعين إلى المخبز . ثم أعود معبأ بالبرد . أقصد المطبخ فآتي بالسكين وأقطع الكاتو . وتهرع لبنى فتتناول قسماً . وأضع قسمين عند مجد وشجن . يتخذ كل مجلسه ، ونأكل بصمت . الزوجان منهمكان في سقسقة خفيفة ، ولبنى تقضم قطعتها . نظرة واحدة ، ويسترخي الجو وينقلب . عيناها كبيرتان غافلتان ؛ ووجهها برم بالصمت الطارئ . استند بمرفقيّ على ركبتيّ ؛ وتسترخي يداي . تفد الكآبة بخطاها السرية ، يشدها استغراق الزوجين في نجواهما الخاصة . ونلتقي في نظرة ثانية خامدة .

تنهض وتأتي إلي على الأريكة . تشد شفتيها على بعضهما البعض : وتضيق عيناها لتظهرا انفعالاً . « ماذا حدث ؟ »

«لا شيء على التعيين . لست أدري .» وتستمر تقاطيع وجهها في الانقباض . وأحار في نفسي . تمد يدها وتضعها على كتفي . ولأني أكره بذل العطف والمشاهد السينمائية . أنزل اليد . يهتز رأسها ، وتتفرس نصف دامعة . ألتفت فأرى مجداً وشجن متعانقين متمددين على الأريكة المقابلة . وتلتفت هي ثم يقبل جذعها نحوي .

يطفو فوقنا الصمت . تغرغر نار المدفأة . وفي لحظات الكآبة تغدو القبلة أغنى وأبقى مما هي .

لوحة : عند العصر أقرع الباب فتفتحه شجن . تبتسم وهي في ثوب النوم . ويبدو البيت هادئاً . أدخل بتردد . وتقول هي : «ادخل هنا .» أمشي وراءها إلى غرفة النوم . من هناك تهمس لبنى وجلة : «من ؟» ثم تكرج من فمها ضحكة مترفزة مغتبطة . وتدس شجن ساقيها تحت اللحاف ، حيث جلست لبنى . «أين كنت ؟» فأقترب وأمسك بأنفها . أخاطب شجن : «هل رأيت أنفاً كهذا الأنف ؟ مثل منقار البلبل .» فتهز لبنى رأسها وتفلت أنفها ضاحكة . وأمسك بذقنها : «هل رأيت ذقناً كهذه الذقن ؟ هلال مكسور .» وثانية تطوح برأسها إلى الخلف فتفلت ذقنها . أمسك بالشعر وألفه على يدي : «وهذا الشعر ؟ أجمل من لحية كارل ماركس .» وتعترض هي ممسكة بالشعر : «لحية كارل ماركس !» فأتعجب : «لماذا ؟ انها أجمل لحية ظهرت في

التاريخ . » فترفع رأسها رافضة ولكن من غير أن تسعفها الكلمات .

ثم تقول فجأة : « والله ، غداً تنساني . » أنظر إليها بلا اهتمام . وتقول : « إي ، إي . ماذا يعني ؟ والله ستنساني . » وأضربها بخفة على وجهها ، فتضحك وأشد شعرها . ترتمي على السرير . أجلس إلى جانبها مثبتاً يديها على بطنها . تسحب شجن رجليها من تحتنا . وتهتف هي مشددة على القسم : « والله !! سوف تنساني . » وأضربها على وجهها فتضحك باصرار . أتأمل الوجه ، والضحكة فيه تخبو برقة وبطء . وتبقى عيناها جذلتين منتظرتين . ويتبين أن شجن غادرت الغرفة . أتناولها من ابطيها وأسحبها فوق السرير . أمد يدي إلى البلوزة أفك أزرارها . توقفني بعنف وتجلس . تشد على وجهها قسوة كارهة ! وتجمّد وجهي شهوة عمياء . « ماذا تريد ؟ » وللحال يسقط في رأسي زوجها .

وكانت عيناها تقولان الكثير . وكنت مجبراً على السماع .

بعد لأي ، ربما بانتفاضة أرسلها اليأس ، أقول : — هل رأيت جسم الرجل ؟ هل لمسته ، وتحسسته بأصابعك ؟

عندئذ تحتقن عيناها ويشيح وجهها . وأفرك صدغها حتى تهدأ . وأشعر أني على نحو ما أستطيع التصرف .

أقول : — ألا تثقين بي فقط هذه المرة ؟ افعلي ما أقول

لك . وأعدك لن أتجاوز شيئاً .

وتنظر باستفهام وتوقع . أحل الأزرار برغم تأبّيها . وانزع ثيابها وهي لا تزال تدفع بمقاومتها الخافتة أمام يدي . ويتحرك وجهها بقنوط ونفور مثل من يقبل على عمل كريه لا يريد رفضه . يتمدد جسمها الرائع على السرير ، جسمها المغتصب الرائع . أنزع سترتي وقميصي . تصرخ وتنهض نحو ثيابها والباب ، فأوقفها . وتقول بمكر : « لا أريد .. شجن هنا . » وأجيبها : « هذه المرة فقط . ثقي بي هذه المرة . » .

أتمدد إلى جانبها . ويطمئنها أننا غير متلامسين ، فتتدثر باللحاف جيداً . ومثل عاملين متعبين ، تخرج أنفاسنا قصيرة مسموعة . أنظر إلى ظهرها : سهل نقي الأديم ، هادىء ممدوح ، وشعر يتبعثر على تخومه كأغمار قمح . سهل مستطيل ممهد التراب .

عرفت أن كل ما بيننا قد تزيله نبرة أعصاب أو نوبة ريب . وفي الصمت الغسقي سمعت أنفاسها بطيئة منتظمة . أخذت تنظر إليّ فعرفت أنها لم تستقل . أشعلت سيجارتين وأعطيتها واحدة . راحت تمصها بسرعة . وجعلت تنفض الرماد في يدي ، فبقيت على استلقائها .

قلت باضطراب مستتر : — مهما كانت تجاربك السابقة ،

انسيها الآن . العري يفيدنا معاً . جسم الرجل والمرأة مجهول بالنسبة لنا سوية . تأمليه وتعرفي عليه .. مع أنه ليس شيئاً استثنائياً . تذكري : أنت تعيشين بحرية ، تملكينها .

تحولت عيناها إلى الجدار المقابل .

سألت : « هل تحبينني ؟ » فهزت رأسها مرتين . وسألت أيضاً : « وهل تكرهينني ، إلى جانب الحب ؟ » فتفرست بي قليلاً ، كأنها تستبطن دخيلتها . قالت : « الآن ، كلا . » قلت : « ألم تستلقي معه في الضوء عاريين ؟ » فهتفت ونظرت إلى مكان آخر . نظرت إليها . قالت : « أبداً . » قلت : « هل نزيح اللحاف ؟ » ولم تجب ، فأزحته بروية .

أنها تنفجر الآن في العين والخيال بكل تلك الحلاوات والفتون منشقة إلى آلاف من الصور .. في استلقائها المستقيم كالحورة ، في مشيتها ، في وقوفها وجلوسها ، في وهب نفسها للعناق والحركة والنقاش ، في الحيوية والخوف والحزن والاهتمام .. في العاطفة الجائعة التي مسها غيب من الاندفاع فلم تعرف أين تتحد .

كيف يمكن تصوير الجمال ؟ وكيف تغني العبارة عن وظيفة الحواس المتفوقة ؟ ثمة شعور يمكن دائماً رصده : الرهبة الممتزجة بالضعف أمام جسد يملأ العين كماله ، طوله ، تكوينه ، منعرجاته ، تلاوينه .. فحتى عندما يكون الانسان خالقاً يتملى بالدهشة والاكبار وجود ما خلق . وجود موشح

بالصمت . والصمت رمح يلد آلاف المشاعر . تمددت هناك كأنها الحياة بعد الموت ، وقد تناهت إليها جميع الخطوط . كأنها المرأة الأولى ، لم تهن ولم تزل ، ولا عكر شفافيتها التفاح والزمن . براءة بيضاء ، لم تعد موضوعاً للجنس إلا بمقدار ما تتحد بآخرها ، ولا لحزازات الأخلاق لأنها خارج ساحة الخير والشر .

تمددنا جنباً لجنب . وضعت يدي تحت ظهرها . وفي السكون الحاد تسللت الينا أحاسيس العري اليافعة . كأننا في ساحة من المدينة ، ولا حرج . بعض الانسام مرت من فوقنا . وأيقظ شريان البرد العابر هزيجاً مستسراً في الجسمين اللذين — ربما لأول مرة — ارتعشا في مجدهما العضوي وجرّبا خيره — ترابان عاريان في الغسق . وآنئذ ولجت مدينتها السرية .

لوحة :

يقول مجد : — العيون ترى دائماً . وأكثر ما تراه ضعف البشر وحماقتهم . هل استطاع الانسان أن يمتلك العالم ؟ المسيح ، ومن قبله ، سفحوا الحب في صدور ملايين البشر ، وأوصوهم به . جميع الأنبياء و الحكماء والقديسين علمونا أفضل التقاليد والأخلاق التي يمكن أن تنظم حياتنا بغنى وطمأنينة . ولكن من تراه منا استطاع أن يعيشها ؟

وتعقب شجن بدعة : — أجل ! من استطاع أن يحققها ؟

ويستمد مجد من كلامها شحنة جديدة فيفرك بأصابعه بين حاجبيه سارحاً :

ــ هذه الطمأنينة العجيبة ! العالم العجيب الموشى بالأساطير الحقيقية . عالم الحب . عالم الحب والنبالة . مطهر النفوس الملوثة ومربع جماحها . انقذف في اتساع الوجود ، في نور السموات والأرض . اغتسل ، انبثق مــن كهوف الذات البشرية . انها ثورة الإنسان . الثورة العظمى ضد الخيانة وعنف الشجار وجليد اليأس .

ويكف عن الكلام ، فيملأ صدره بنفس عميق يرسله خفيفاً هادئاً . وتغرغر المدفأة من جديد . يعرونا السكون ، وتجرفنا الأفكار الشخصية . تتململ لبنى في جلستها تحت وطأة غامضة . تعدو عيناها بين الوجوه باحثين عن خليج يرفثهما ولا عناء . وتزحزح عن هيكلها الطفولي جدية لا قبل لها بها فتجمجم :

ــ ليس هناك غيب اسمه الأخلاق . هناك حاجة وموقف نفساني : إما أن نشعر بالاكتفاء والرضى ، وهذا يعني أنه لا خيانة ، وإما أن الخيانة عملية مخيفة ومعقدة فنحن لا نجرؤ عليها . وفي الحال الثانية لا قيمة لشيء . وأنا شخصياً ، بالمقابل أعني ، لم أجد متزوجاً لا يحلم بغير زوجته .

تبقى الجدية على وجههــا ، لكن نفسها ترتاح . تصمت

وقد سوّت حسابها . ويصمت مجد راحماً في عالمه المختلف .

وأقول : — لا أحد يمكنه الجزم بشيء عن أصالة الأخلاق في الطبيعة البشرية . لكني أحس بالمرارة والغضب ، فليس هناك ما ألمس ثباته وأصالته . القيم وهذه الأشياء كلها طوابع مستعملة .. أنت تذكر حواراتنا القديمة .

ويجيب مجد : — ذلك شيء قد سقط مني في البحر .

وأقول ، شاعراً بنوع من الخذلان : — انما أعني أن وجود الحب لا يمنع الأحقاد .. وانه ليس هناك شيء أصيل إلا ما نصنعه بأنفسنا . والذي نصنعه بأنفسنا مهدد بألف عثرة وعثرة . والنبي هو الذي يمخض آلام حياته ويكوّن منها رغم ملايين لحظات الفشل واليأس عالمه المنشود .

ويرد مجد شارحاً نفسه : — الحكاية ليست بهذا التعقيد . مجرد لقاء اثنين ، أخي أسيان ، يكفي لصنع عالمك العظيم . لقاؤهما ، أعني هذه الاطلالة الواحدة منهما على معاني الكون وصبواتهما فيه .

فأقول ببعض الحرج : — ها قد عدنا إلى نقطة البداية : أنت تؤكد وأنا أنكر أن يكون لشيء قيمة بحد ذاته . هذا خلاف يعود للتركيب النفسي . أنا لا أثق إلا بما أجرب .

ويطوف طائف من عدم الاقتناع على وجهي لبنى وشجن. تنظران بدهشة تتوقع تفسيراً .

يقول مجد : ـ الحكاية ليست نفسية . أنا أكره أن يفككني فرويد . الحكاية أن وطننا الآن بلا تقاليد . إذا أردت أن تخدم وطنك فاصنع له تقليداً يهب الناس الطمأنينة وصواب القانون . حياتنا كلها اضطراب . ليس فيها أية أعمدة . ولكن عندما تحب فأنت تنشىء تقاليد جديدة في بيئة يفترسها غياب التقليد ، والنمو الشاذ . لقد بلغ بنا المرض حداً انسانا كيف تكون العافية . أخي أسيان، أكره الناس الضخمين . أكره هؤلاء الحاملين أزمة الوطن العربي . وهم لا يقومون بأي عمل سوي ترديد الشعارات والنقد . أنا مع الحكومة برغم كل شيء : تعمل ، أو على الأقل تحاول . وبالنسبة لي لا مجال لادانتها . أنا أيضاً أحاول .

أقول : ـ صحيح . اتفقنا إذن ، أيها المكابر . عليك أن تصنع كل شيء ، والحب وحده لا يكفي .

باحراج يقول : ـ هل تعيش بدون قيم ؟ لا تعيش بدون قيم .

ـ كلا ، قلت أحاول أن أصنعها . أصنعها بتركيب جديد للحياة .

ـ ومتى تتركب معك هذه الحياة الموعودة ؟

ـ لست أدري . في الواقع ، كلما وقفت أمام العالم أدركت المزيد عن صغري وخوفي . هذه فكرة دينية ، قد

أهاجم بسببها . ولكن علي ألا أضيع ثانية واحدة . علي أن أمضي قدماً بسرعة متزايدة صانعاً كل ما أعتبره التوكيد الدائم لقيمة الإنسان على الأرض . الحياة مغامرة ليس بمعنى التعرض لخطر الموت وانما بمعنى اقتحام مجهولها وترويضها ، اكتشافها في لقاء البشر المعقد الخطر وتركيبها . وعندما تتكون ، بالوعي والتصميم ، تلك الوحدات التي لا ينالها العطب بين ملايين الاثنين اثنين من البشر . عندئذ نقول : توجد قيم . وليس هذا مستحيلاً ، سوى أنه متعب . ولكن يجب أن لا نضيع ثانية واحدة . أحس برعب لا يقاوم ، لمضي الأعوام الشابة من العمر ، أعوام المجد والعنفوان ، واحدة اثر الأخرى . حتى إذا لاح كمال العالم تكون أنت في نهاية الطرف الثاني للعمر .

تهتف شجن بدعة : ــ دعونا من الأفكار . ليسلم الإنسان نفسه لحياته في ظل الشخص الآخر ، ويبتر أسئلته . وترشف بقية النبيذ الإيطالي في كأسها ، وتدعو مجدداً إلى دورة بالسيارة في جوف المدينة .

يقول هو : ــ الشكل الأمثل للحياة هو نوع من البدائية الصافية . الناس في صحة شديدة السوء ، ويفتقدون جميع صور العافية .

ويمتثل للطلب مهللاً . بغير ابطاء نهبط إلى قرارة الشارع . ثم تنطلق السيارة بنا .

وراء المقود يتابع : ــ جميعنا في حاجة إلى هذه البدائية الصافية . انها وسام القلب البشري . لكننا عندما نلتقي بالآخر فبواسطة ، وضمن قيم . ولأننا الآن كشعب عربي في تفتت حضاري وخلقي تنهار علاقاتنا لبعدها عن الفطرة ، وتسقط القيم لأنها بورجوازية . نحن ملطخون بالمدنية ...

الريح خفيفة قارسة . وتلوح الأشجار على امتدادات الشوارع كهياكل عظمية . من بينها تنزلق السيارة على متن الريح . وفي الداخل يركن أربعة أفراد جمعهم المكان : مجد يدندن وراء المقود على نحو متقطع ؛ شجن تلتف بابتسامة رائقة ؛ لبنى ترسم على وجهها كلمات مجد الأخيرة بنصف ابتسامة ثابتة ، بانتصابة واصغاء ؟ ووحيداً بينهم استرخي في الركن الأيمن ضائعاً بين مرحهم الرزين وكرب سقط علي من السماء .

تحت الضوء الخافت في الليل يضيء وجهها الصغير . ها هي ذي تحضر الآن تقلها عربة عمياء . هي التي فرضت بطول قامتها مهابة واحتراماً ؛ تحيرها المشاعر وتضعفها صعوبة الاختيار : ما الذي يكون شعورها ؟ ماذا تختار ؟ وتعيى عن ادراك الجواب ، وأمامها اثنان يفوقانها سعادة ، فتهون نفسها. يجثم عليها ثقل الاتضاع . ولأنها لا تطيق الهواجس والتعب تلوّن عياءها بصمت مصيخ وتذيب ثقله بابتسامة .

وجهها البلوري الصغير : وجه المرأة . وتزداد انزواء

في ركنها إذ يزداد احساسها بسعادة الآخرين وبالتجهيزات الفخمة التي زودت بها السيارة . وتمعن في اللطف والمشاركة : تبرق عيناها ، تتفرج الشفتان ، تخرج التهنهات . ولا تعي شيئاً مما يحكم سرائرها .

أستدير قليلاً واستلقي على المقعد ، فيرسو خدي على حجرها . ينالها الحرج؛ وتبتسم . ثم يبدو لها الاثنان الجالسان أمامها منصرفين إلى استئناف الحديث . تسترد نفسها بالسر ، وتبتسم في عيني . يطل وجهها ، فتعبرني صورة صفائه الرائع. تقول لي مستأنفة معي حديث رفيقينا :

ـ أنا أحب الحضارة . أحب البراد والغسالة والتدفئة المركزية . ولا أحب الحياة البسيطة . أشعر أن البساطة غباء أو اختزال للحياة . والإنسان لا يعرف نفسه إلا إذا رجّته حياته رجاً عنيفاً .

ويقول مجد بمحبة ومرح : ـ لم أقصد البساطة : قصدت البدائية . الفطرة الانسانية الأولى . لماذا تخفق علاقات الناس وتتسطح أو تتجه نحو العنف ؟ لأنهم بالإضافة إلى عقدهم النفسية وسوء تربيتهم ليست لديهم تقاليد فطرية تكيف سلوكهم بحسب قوانين فطرتهم .. أعتقد أنني ستمطت في التعابير التجريدية .. ببساطة . مع أنك لا تحبين البساطة ، سلوك البشر وقوانينهم الأخلاقية في عالم . وطبيعتهم البشرية في عالم .. في مجرة أخرى . هل أوضحت نفسي ، عمتي لولو؟

وتفجؤني شجن بجملة عبرت عبور الطيف : ــ الحياة متغيرة ، وأما الطبيعة البشرية فثابتة . ونحن لا نملك التوفيق بين الاثنين إلا بالتضحية .

وتخاطب لبنى مجداً : ــ نحن مختلفان ، انما لسنا أعداء ، طبعاً . في رأيك يوجد قبول وحسب . قبول عميق للحياة ، مع أقل مقدار ممكن من التعقيد . وفي رأيي ، الحياة معركة سلاحنا فيها على رأي آسيان المغامرة ، وفي رأيي الوعي .

احتج رافعاً يدي : ــ أنا لا أغفل الوعي ،الوعي الهيغلي ، إذا شئتم ألا تفهموا .

وتختتم ضحكة شاركنا بها نحن الأربعة مشوار السيارة .

نصعد معاً . ننفرد في الغرف اثنين اثنين . نعبر بوابة الشرق إلى مغسل فسيح ، حيث تلتقي النظافة والطهر بالطمانينة والارتواء ، وحيث يلتحم اللحم كسبيكة بعد الانصهار .

لوحة :

عندما أصرّت على أن نحضّر الأرواح انفتح في داخلي باب همّ حزين . علمت أن تلك العملية أهم مني . وهكذا انسحبت من عندها بهدوء ، وبلا إيذاء . تمددت على الأريكة الثانية . وفيما تمددت هي على الأريكة الأولى ، بقي مجد وشجن يفصلان بيننا .

مر زمن ثقيل. عبر جبيني كثير من الأقوال الغاضبة ، إلا أن عيني لم تقولا شيئاً عندما كانتا تلتقيان التقاء عابراً بعينيها . طبعاً شعرت بالخيبة : بعد أن كنا نحشد كل الوجد الذي في العالم على تخوم أعيننا صرنا الآن نعيش على التقائها العابر . وأهم من هذا أننا اختصمنا . وانضم ايحاء اللحظة إلى إيحاء الزمن العام . انتشر الأسى في كـــل صورة عبرت بالذاكرة . واقتنعت بفكرة مغادرة الغرفة فوراً .

عندئذ خطرت لي الفكرة فجأة : نحن نمثل . ما حدث بيننا الآن هو فقط انتفاضة مقاومة كانت لئلا نصل إلى النهاية المحتومة ، الراكدة على قرارة أعماقنا ، وهي أننا لا نقدم لبعضنا البعض شيئاً استثنائياً .

وقررت أن أبقى . فأنا الآخر مدين لها . ملوم أيضاً . ملوم في حالين : إذا كنت أحبها حقاً فليس يعني هذا أن أفرض عليها سلوكاً مبادلاً ، أين الحرية في الموضوع ؟ وإذا لم أكن أحبها فكيف أطالبها بشيء ؟ وبعد ، ألست أحبها حقاً ؟

نظرت إليها ، تتمدد فوق الأريكة ، نظرات حائرة . كانت منكسة الرأس فوق كتابها ، وأطراف شعرها تنسدل من منجمها فتمس الكتاب . كيف يمكن أن أغضب منها . إلا أنني كنت غاضباً لا أزال . بعد قليل استحال الغضب إلى حزن هادىء يسيل على رمال النفس . وأنساني تمددها جميع

الأفكار الجارحة . تمددت رائعة ، ومستكينة ، وشديدة الاحزان . ومن لا يهفو إلى هذا الجمال الراقد فوق عباب ضميره المنبوذ ؟

هذه امرأة حبيبة ، لم تخيبها الحياة فقط ، بل افتضت بكارة نفسها . وعندما يتلاشى ضباب البراءة من النفس يصبح كل شيء ضمنها عارياً جامح العري . وما الذي بين الأشياء لا يكشف عريه عن فضيحة وحزن ؟ انه مبرر لها ألا تحبني ، ولا تحب أحداً . وإذا كانت قد أعطتني بقايا تلك البراءات القديمة في نفسها فليس لي سوى أن أشكرها وأتقبلها أكثر . فما أعطته ليس شيئاً ثميناً فقط ، انما هو القيمة ذاتها .

نحن لسنا مذنبين . وحتّى صدق العاطفة ، الذي لم تتحقق صورته النظرية قط يجب ألا يكون مدعاة للألم عندما يخلّف وراءه بطاقة الرحيل . فكل حادثة تحمل مبررها الخاص ، باستثناء الولادة .

وهكذا ...

في بحران اللحظة العابرة تذكرت لبنى بذاتها ، معراة عن كل ما أضفاه الفكر والعاطفة ، متمددة متموجة على الأريكة . أنها نفسها شيء كل مكان الذي لا يحمل مبرراً خاصاً لوجوده ولا لنوازعه ، الذي يخصب حقول النفس الجرداء . لقد أعطت نفسها بلا شروط وقبلت هذه التجربة . أفليست بهذا رمزاً للحرية ؟

الفصـــل الخامس

— ١ —

أقول لها : لبنى . أنت شريكة في لقائنا ! خذي . لا تعطي فقط !

وتغمغم : — عندما تقاربني أشعر أن جسدي ليس ثقالة. وهذا ، أستطيع الوصول اليه . انه رائع .

أقول : — ولكن الظلام . أنت تلجأين للظلام دائماً . يجب أن نحيي شيئاً ما في نفوسنا .

وترد مازحة : — وماذا في نفوسنا الآن ؟

أقول : — التقاليد والتابوات . تصوري أن جسماً مثل جسمك تسكنه العفاريت .

فتضحك محتجة : — أية عفاريت ؟!

وأجيبها : — التقاليد والتابوات .

وتضيف سارحة : — والتجارب .

وتصمت . خلال لحظات تتفانى ضحكتها مأخوذة بجدية طارئة . ثم تجمجم شاردة العينين .

– نحن غير موجودين . نحن أشباح تمر على سطح العالم . لا يمكننا أن نجرب شيئاً مباشرة . نقتحمه . هكذا . دائماً : في المرة الأولى نكون عمياناً وفي الثانية مجروحين .

ثم تغمض عينيها لتوصد بوجه العالم باباً . تتنفس برتابة . أرمق وجهها بين شعرها المبعثر على الوسادة . أتأمل دمشق عبر الزجاج الندي ، متعب المرفقين من طول الاستناد .

القبو ظلام تام هنا . والفضاء الممتد وراء الشباك يسح مطراً ويضرب بالقطرات الزجاج . مزيد من الولوج في خاطر الأشياء والحوادث . في الليل يحفر وشم حكاية على جبين الأقبية – حكاية عرفت الانفعالات عندما بدأت تكتشف . واستوى الحزن والفرح أمام دهشتها ، أمام عينين أغمضتا لأن الليل الأدهم لم يسنحهما الستر الكافي . وأمامي استلقت دمشق . لم يبن منها غير مصابيح صغيرة علقت في أسفل الفضاء . أنها نائمة ، لكنها تتحرك في النفس قلقاً مستتراً . جميع هذه البيوت والأبنية في مدى العين . ونحن هنا في قعر دمشق ، قعر البشرية ، في سريرها وسرها . أيمكن أن يحدث كل هذا ؟ في مكان أشبه بمغارة صحراوية يتحد اثنان كأنما لا بشر؟ لا أحد يرى ، ولا أحد يهتم ، وكل الأشياء الصغيرة شديدة الخصوصية !

ـ أغفيت ؟

ـ لا ... أتمنى لو أننا في يافا . مستلقيان هكذا . في الصيف . على التراب .

ـ هل بدأت تحبين ؟ أم هجرك عقلك ؟

ـ لا .

ـ ألسنا أمة واحدة ووطناً واحداً ؟

ـ ولكن في يافا طفولتي .. على الأقل يكون جميع ما اغتصب مني قد استرد .

ـ ربما نحن لسنا أبرياء . لكننا لسنا مذنبين . ربما كانت حياتنا هذا البحث عن حالة ما قبل الخطيئة ، ولكن على الأرض ، لا في السماء . لا أدري . الناس جيدون وأنا أحبهم كثيراً ، كثيراً . سنظل نحاول . عندما يستطيع اثنان مثلنا أن ينسجا وحدة تكون وحدة الجماهير مضمونة .

تنفتح عيناها . تتفرسان ملياً هادئتين مستمرتين . أتناول يدها وأضعها بين أصابعي ، سائب النظر إلى دمشق ، موطوء العين بعينها الفاحصة : هل نتعلق بأمل كبير كبر اليأس ؟ لم أتكلم . من أين لنا الثقة ومن أين الهدوء ؟ ويهمي المطر . ينقُر على النافذة . تدرج حبيباته على الزجاج . تتلوى بطيئة مسرعة . ثم تسقط على الحافة .

ـ أزمتك الجنسية جسمانية . وأما أزمتي فروحانية .

– كيف ؟ أنت تمارسين الجنس منذ عهد بعيد . وأما أنا فمثل جميع الرجال في هذا البلد لا نعرف الجنس . الجنس الرحماني الذي يتحدث عنه الشعراء ، الذي هو أزمتنا الأصلية .

– لم أعرفه . ولا امرأة تعرفه ...

... وتبدو حديقة السبكي في بهمة الليل ورخ المطر كامرأة عارية ملتهبة . الريح خاشعة . الأغصان الجرد تشبه أضلاعاً بشرية . حتى الأصوات البعيدة للسيارات تثير إحساساً حاداً بالسكون – سكون مطري شجري ، بؤرته سرير غارق في قعر مغارة دمشقية . هو ذا يشهد لقاء جنسياً ليس اغتصاباً ، يمتطي صهوة الحياة في مدينة سرية عجيبة ، الجنس بابها . وفي العناق الشفيف العاري تنبعث غمغمات : ليتنا في مكان آخر .. يا أماه .. ثم تسند عينيها على ذراعي . برهة ، ويبلله الماء . مرة أخرى : ليتنا هناك . وتمسح العينان على الشعر المبتل . يتعالى صوت أنفاس متعبة . يشتد ضغط الجبين . ويبدأ من جديد بكاء – بكاء الليلة الثانية بعد الألف .

القبو . ميدان النفس الفسيح ..

وسرت ، مخلفاً الحديقة ورائي ، أعبر الأزقة الحزينة المقفرة . سرت بغير إبطاء . الآن يطيب اجتيازها واحداً يتلو الآخر . لقد أصبح الطريق إلى موسكو قصيراً . وبوسع لبنى

أن تصل إلى هناك بعد أربع ساعات . لكن التفكير بتلك المدينة الجاثمة على طرف غير مرئي من سنام العالم ، يجعل الكرة كلها عدواً . يا لهذا العالم المتحدب المديد ، الممتنع على الحواس ! لو أنه صغير بحيث تمكن رؤيته كله ولمسه كله وشمه وسمعه وعضه كله . والمرآة ! لن يصدق أحد أنها في الليلة الثانية بعد الألف ستغدو هاجس النفس المروعة . أمامها وقفت ، قواماً شاباً ، ومرجاً صيفياً من الشعر ، تتأمل وجهها الأبكم المنسدل على أخوافها . كأن شهرزاد لم تمت . أو أنها رأت عمراً ثانياً ، فعرفت ضياع الأول . سنوات من الخوف والحذر واليأس مضت مع الخليفة والملك والتجار والسحر والجن وقدرة الله . وبدأت تقص لعينيها حكايا الليلة الثانية بعد الألف .. حكايا شهرزاد التي لم تكن ، وشهريار الذي لم يعد يكفي ..

القبو إذن . هنا سنلتقي : أزمة لبنى وأزمتي . جثوت وراء حديقته الصغيرة أتأمل النافذة المربعة والسرير الجاثم وراءها ، فركت عضلتي ساقي فأحسست ببعض الراحة . (برقية صغيرة . « تعالي إلى موسكو . أعياد رأس السنة شيء عظيم . انتظرك في المطار مساء ٣٠ » . « ومن هناك يأخذني بسيارته إلى موسكو . سأرى كيف يعيش أحدث نوع من أنواع المجتمع البشري . » « لا تحاولي الكذب . أنه فقط يريد أن يثبت سلطته عليك . يجب أن تبقي هنا . طلقيه

ونتزوج .» «لا أستطيع أن أترك بناتي !!» «سيأتينا غيرهن .» «لا أستطيع . كلا .» «بل يجب .» «يجب فقط أن يعيش كل منا بحرية .» «ما معنى هذا ؟» «يجب أن نعيش بحرية .» «وأن يكون كل منا مسؤولاً عن الآخر ، عن ارتباطنا .» ثم تبهت أعيننا بعضها ببعض . ويستعيد كل منا العبارات الأخيرة بنفس السرعة التي قيلت بها : معقود اللسان . نسلّم بأنها قيلت . واحملق إلى وجه لبنى الجامد المعلّى . وتتهاوى هي على الكنبة ، مخفية جبينها بين ساعديها . «لا بد من أن نخسر مقابل ما نربح .» فأقترب منها واتكىء على ذراع الكنبة .) .

شارع آخر وشارعان ، ويغمر الثلث العضوي بالهباب مجاري الشوق والخيال . عندما فتحت الباب متعباً خرج صوت مسعود في الظلمة يزقو تارة ويهرهر أخرى ، ثم ينسبك في ضحك عنيف .

قال : — أم . أنا الذي أغلقتها .. لئلا تهرب منها رائحة لبنى .. ليبقى الهواء .

وبدأ في وقفته الشديدة كأنه شيطان . انتصب مفتوح الساقين ، مستعداً لأن يقوم بعمل غامض مجهول ، وقد جلله العتم ودفء المدفأة بمعنى وحشي . كان رخاً أو روحاً تحوم حول جسد فارقته منذ لحظة .

فتحت النافذة ووقفت عندها متصالب اليدين . هب نسيم

بارد . وتحركت الأشجار . ارتطم مسعود بالمدفأة برهة . فعرفت مكانه . ثم ابتعد عنها . قال :

— أنت لا تستطيع الاحتفاظ بشيء . ضيعت أيامك الماضية . بجميع ما فيها . ضاعت منك . هذه الغرفة معبد ، وأنت تفتح شباكها لأصوات أحذية النساء العابرات وللريح. أنت تهمك معاني الحياة ، لا الحياة . أين تركت إيزيسك ؟

— ذهبت إلى موسكو لتقضي أعياد رأس السنة مع زوجها . ستعود بعد شهر . لم أستطع اقناعها بالبقاء .

فيبصق : — لعنة الله عليك . على مهلك . كان يمكنني أن أسألك عنها عشرين سؤالاً . أنا لا أريد أن أسكت . لماذا تريدني أن أسكت .

استلقيت على الكنبة وقلت : — تكلم ما بدا لك . من ترى يمسك بك ؟

— أريد أن ينفجر هذا الضجيج الذي في رأسي . أريد أن يطن مثل جرن من النحاس . لم أعد أرى في هذا القبو أي ملمح طبيعي . مليء بالأصوات إلى درجة جهنمية . وهي أصوات تأتي من مكان بعيد ، من السماء ؟ من الكواكب ؟ لا أعرف . لم أعد أعرف كيف يتمتع الانسان بالجمال . ولا كيف أرى المرأة كائناً بشرياً . كلما نظرت إليها صارت عيناي بندقيتين محشوتين . أنا أبا عنيد الجبار . أحب أن أسمع

ضجيجاً داخل رأسي لئلا أتخيل . ان كارل ماركس في حاجة ماسة إلى فرويد . البنى التحتية الأساسية تحليل فوقاني للمجتمع. في القعر يقبع الجنس . وأزمة الجنس أزمة الحرية . عندما يعرف الناس الحرية يعرفون سلامة الجنس . ولكن الناس لم يعتادوا على ممارسة الحرية كما اعتادوا على ممارسة الأكل .

وانطرح على السرير مطلقاً آهة حشرها في صدره طويلاً . أثبت عينيه في السقف، وكوم قبضتيه فوق صدره .

— في جميع أنحاء العـــالم يجتمع الناس هذا الليل ليحتفلوا .. ليحتفلوا . بعضهم يحتفل بالاستقرار والرضا . بعضهم بالحب . بعضهم بالمجد .. يحتفلون . وأما أنا .. أبو عنيد ، ملك الجهات الأربع .. احتفل بأن ترفيعي قفز من فوقي وطار .. طار بعيداً ... وبأن الجنس كسر قلمي ... وأنني أطير ... يا طيرة طيري ... يا حمامة ... وديني دمر... والهامه .

وبعدها خرج العالم والناس والأدب والبحر والمجد والنساء . خرجوا يتلوون في حشرجة وغطيط ، في ابهام ونبرة وجزر . ثم جعل الصمت المتقطع يباعد بينهم ويزيدهم كثافة. تداغمت معانيهم في الأذن لتداغم أنصاف الأصوات في الفم. في النهاية تجمعوا في فقاعة تخرج عند كل زفير ، تنتفخ على الزاوية اليمنى المفتوحة وتنفجر . وفي ثوان تعود إلى التشكل والتضخم ، فالانفجار . على نحو ما شابهت بالونات العيد

الزاهية في السماء التي تحتفل تحتها سزى ؛ سزى أنها لم تكن زاهية . ولو خرجت من رئته إلى الغرفة لملأت مع زميلاتها الجو ، ولتعين عليه – إذا ما خطر له – أن يرقص بحذر شديد .

وصمتت المدينة صمتة موت . لم يعد فيها حركة ولا نبسة ، كأنها أعماق انسان يائس .

للحظة ، تمنيت لو أن فقاعات مسعود تنفجر ، وتترك فيها دوياً هائلاً مريعاً . ومن بعيد أقبل ضوء هزيل وعبر على الوجه الليموني المسجى ، برهة ثم اختفى .

على غير توقع سقطت من جيب مسعود زجاجة عرق . رنت على البلاط بصوت تحطمها ، وانسفح خمرها . ثم همد وتلاشى كل شيء . في تلك اللحظة شع على صدره وهج مثير للفضول . نهضت إليه ورأيت الساعة حول معصمه . كانت الثانية عشرة وثماني دقائق وبعض ثوان . وقفت بلا حراك ممتناً ، عميق الامتنان. لقد مضى كل شيء . مضى الموعد . انتهت الطقوس . وانزاح الترقب الاسيان لمجيء العام الجديد. المحتفلون في أنحاء العالم انجزوا مهمتهم .

وبقي مسعود يفجر فقاعاته .

اخترت أن أذهب إلى قبو القبو – غرفته – كيما أنام الساعات الأولى من العام الجديد .

— ٢ —

نام مسعود على سريري . ولا أدري متى أفاق . ربما حوالي الثالثة . كان عليه أن يتقيأ ، فنهض إلى دورة المياه . أفرغ معدته ، ليمتلىء رأسه بتوهجات دائرية كادت تغميه . أحس بوجوب المسير لئلا يتهاوى ، ويرتمي في اتساع الغرفة الجارح . لقد جرت العادة أن تلتقطه أمه كلما حدث ذلك ؛ أو صدر امرأة . أما هنا . فلا أحد . الغرفة وشباكها المفتوح. تذكر أبا خالد المنتظر مع قبضة من رفاقه في الملهى . تمطى جيداً . دس يديه في جيبيه وهجم إلى الباب . على الرصيف لسعته الريح الباردة فتوقف . تعجب في سره من الريح ، وجعل يحملق إلى الفضاء الدامع القاتم . وفي هبوب قوي ضربت وجهه حبات مطر طائشات . ونفذ الهواء في إهابه . ترنح قليلاً . لم يطق أن يعثر بالطبيعة على هذا النحو . وكره اللقاء الوحشي الخشن . تقدم يشق الجو خبباً ، ويرمح نحو الملهى . لف يديه على صدره ، ورفع كتفيه . ومرت به

العمارات والأشجار ، واللمم الدمشقية . والدخان المعلق في أقبية الملهى .. أهم شيء الأشجار ؛ المدينة كلها أشجار . وانتشى بالمسير ، بالجذوع البليلة الصامتة يمر بها كأنه في حقل . وراحت أنفاسه تفرش أمام عينيه هالة من البخار لا تلبث أن تتبدد في جوف الليل . وطامنه شعور عزيز بأنه طفل ، بغير همّ ولا خيبات . ركض ، ومد له الشارع المقفر ، ولم يرعو . ثم صار يمشي وقد ضاعت من واعيته معالم المدينة . فقط ، أحس أن الأشجار والأرصفة تجثم على صدره . لقد طال به المسير ولم يصل إلى أبي خالد . وساحت في مخيلته زجاجة الخمر واللحم الدمشقي المنتظر بغير تخصيص . قبضة الشر التي التفت حول عنقه .

توقف عن السير في اللحظة الأخيرة . رفع رأسه نحو عارضة الشباك الخشبية النافرة . قطب ما بين حاجبيه بقوة ونظر إليها . في الداخل كان ظلام تام . لم يسمع صرير ولا أمأمة . لعل أطفالاً ينامون هنا . ثم أطبق أجفانه : موصول الحاجبين . تنحى . فتح عينيه . وتابع خببه نحو أبي خالد .

أخيراً بلغ مدخل البناء . توقف ونظر جيداً ليتأكد من أنه لم يخطىء . وبعدئذ ولج البهو إلى ست درجات عريضات . عند مدخل الملهى انتصب رجل أشقر مفتوح القميص . توقف عن احتساء ما في كأسه ، ونظر إلى مسعود . وأطلق مسعود هأهأة غبطة حقيقية . تناول يد الرجل بيسراه ، وخبط على

راحتها بيمناه ، وهأهأ من جديد .

— تحتفل بعيد السنة الجديدة ؟ بالتأكيد ليست لك صديقة. لا بأس . كانا هذا الرجل. نبحث . انطلقنا في عالم المغامرة ، منفردين واليد الواحدة لا تصفق . سلاماً . مرحباً . أنا أيضاً انفض عني أصدقائي . وقد لا أجد أبا خالد هنا .

هتف الرجل بالانكليزية : — اعذرني !

وسحب مسعود الكأس من يده فجرعها بفم واحد ، وأعادها إلى الأصابع التي بقيت على تكورها . وربت على اليد المتخشبة بأصابعه واحدة تلو الأخرى .

قال الرجل بهدوء ، وبالانكليزية أيضاً : — لقد أخذت كأسي وشربت الخمر منها .

وقهقه مسعود. قهقه أيضاً، ثم لم يطق فجلس على الأرض حاملاً ضحكه الشديد . وجعل يبرم رأسه ويرفع يده في الهواء . وجمجم : « يا لك من رجل فكه . » وفجأة صمت .

شيء ما لم يعرف مكانه تلاشى منه ، فأحس بأنه محاصر وخائب . قال :

— بالانكليزية ؟ ها ! لم تخطر لي أبدا ، على كثرة ما اختنقت ولعن أسلافي في هذا الوطن . لا بأس من لم يكن بلا انكليزية فليرمك بحجر . أنا لا أتكلم سوى العربية لأني أحب هذه اللغة الرائعة . بل اني أحاول أن أكتب قصصاً بالعربية .

ولو كان أصدقائي جيدين لنجحت . ألمي منهم يضيع تحكمي في الكتابة .

وكأنه تذكر شيئاً فتسمرت عيناه في الأرض ، وتدلت خصلة من شعره على جبهته . انتظمت أنفاسه وغدت مسموعة . ووقع على عينه بعض شعره ، ومنها بعض الدموع . وسرعان ما تذكر ليلة رأس السنة ، وأبا خالد . ليتجدد في نفسه حب الأصدقاء والخمر والأوقات المفلتة من الحزن .

قال الآخر بالانكليزية : — هل لك أن تتفضل بالذهاب؟

وتفرس مسعود في وجهه . تذكر آخر مرة شاجر فيها انساناً . نهض . وفي اللحظة ذاتها بدأ الرجل ينسحب ويغلق الباب . أولج مسعود قدمه فأوقف الباب . والتفت الآخر اليه بهدوء :

— هل لي أن أسألك مرة أخرى أن تذهب من فضلك ؟

— أتفضل بالذهاب ؟ يجب أن أشرب ويسكي مع أبي خالد .

وتقدم من الباب . قبل أن يدخل لمح امرأة شقراء بفستان سهرة تنظر خائفة . اشتهاها حتى الموت . وقبل أن يبتسم تذكر شيئاً مفاجئاً : الثياب ، هذه التلاوين التي ضللت حياته . كيف تعوّد أن يحب المرأة داخل ثيابها حتى خيبته عندما رآها عارية . لم يرها عارية إلا للحظات نادرات : من

ثقب القفل ، تتعرى من أجل العملية الجنسية؟ من نافذة ما . وظل مشتاقاً لما في داخل الثياب القديمة. لم يكتشف إلا بعد عهد طويل أنه ربما كان أفضل بالنسبة له ولجميع الرجال لو اعتادوا رؤيتها عارية لئلا يضاعف الخيال حجم الجنس في الذهن المتصبي ، وليحب القلب في المرأة معانيها الأخرى البعيدة وراء بوابة الشرق التي لا تفتح أبداً .

وقبل أن يشعر بالحنان ضربت قدم الرجل ظنبوب ساقه بعنف . وقبل أن يعي ماذا حدث جاءته لكمة في بطنه أسقطته غمياً . وقبل أن يتذكر أي شيء في الصباح وجد نفسه في السجن العسكري .

وبالنسبة لنا ، غاب في جوف المدينة ..

قال أبو خالد وهو منكفىء فوق بارودة عسكرية يفك قطعاتها :

ـ لماذا تسأل عنه ؟ أنت تزدريه وتهمله مذ سكن معنا . لعله التقى بقحبة فأمضى عندها الليل . هذه أحسن طريقة لخدمة الوطن . أليس صحيحاً ؟ ما رأيك ؟

وجعل يحرك المغلاق لوهلة ولم يلتفت إلي . كان شارباه يتقوسان فوق فمه كمخالب صقر ، ووجهه المنشد مستغرقاً في اهتمامات عظمى : أكبر من عالم الأفراد . أمسك بالأنبوبة وأولج فيها قضيباً معدنياً مريش الرأس . حرك القضيب

صعوداً ونزولاً ، وانصرف إلى البارودة . بعد قليل وضعها في الخزانة وقفل عليها الباب . نفض يديه وأقبل إلي بابتسامته القديمة الطيبة نفسها ، وطريقته في تجميع رؤوس أصابعه أمام فمه . لمع في عينيه بريق هرم . وجلس أمامي يقول :

– أستاذ ، الاشتراكية قادر هذا الشعب . والوحدة مصير الجماهير العربية . خذ هذا المسعود . ضحية بورجوازية . انسان موهوب . ذو طاقات عملية تفرح القلب . لكن تركيبته بورجوازية . تسممت شخصيته بالكسل والسهر المفجوع . علينا أن نعمل اليوم لاغداً. لأن كل شيء يتفسخ ، والاستعمار يربط خيوله في بلادنا . إذا لم يكن فينا من يفتدي مستقبل الأمة العربية فلن يشق طريق التحرر والتقدم . وستبقى اسرائيل جرحنا الأبدي النزوف .

بعد صمت قصير ، نهضت إلى غرفتي بلا كلام . أوصدت الباب . ارتميت على السرير متعباً . وجعلت أعانق الأرض المجزأة وعالمين كل منهما يلتهم الآخر ، عالم الآفاق وعالم الأنفاق . وتمنيت لكارل ماركس وسيجموند فرويد ليلة سعيدة .

— ٣ —

تبتسم شجن بسعادة حقيقية . تنتقل في بيتها كنحلة تصنع عسلاً . في الدقائق الأولى للعام الجديد كان رأسها ملقى بين عنق مجد وصدره ، عيناها مغمضتين ، وقدماها تتحركان على إيقاع الموسيقى . وبقيت بين ذراعيه حتى ضحى اليوم التالي . عندما أفاقت خطر لها أن تسترخي . وتمدد جسمها المستيقظ على الفراش . أحست أن هذا الجسم ثابت راسخ ، وأنها هي ثابتة راسخة ، والعالم ينفرش حولها .

والآن تبتسم بسعادة حقيقية . تدور في البيت من رجء إلى آخر بخطاها الهادئة السابحة . تمس الأرض مساً رفيقاً ، وعلى وجهها بقايا من إيغالها في ليل أمس ، في حركتـــه وأحاسيسه .. أي وجه كان ذلك الوجه . أي كوكب آخر .

ليلة العام الجديد استقبلت بحفاوة . ولماذا لا يتأنق البشر ويمضون في سياراتهم إلى مكان تضمحل في عتمته معالم العالم ؟ كهف للحرية ، ولصناعة الفرح . هناك يحفر نزوع النفس

إلى الرضى بمجاري صلبة في تحدّر الحياة الشرس . ويفيض في شجن قلبها كالنهر ، يملأ تلك المجاري اليومية بالابتسام والغذاء الجيد ، بالبيت النظيف الأنيق والرعاية الطيبة التي لا تنتهي . اكتملت بهجتها عندما اكتمل العالم الذي أقامته لمجد . أنها له الآن . وهي تحقق له جميع رغباته . لا تتركه يحتاج إلى شيء ، ولا يحمل هماً . بالرضى والقناعة تجنبا صراع السيطرة الذي ينشب بين جميع المتزوجين . ويجلس مجد بعد السهر الصاخب المخمور ، أو يستلقي على مكان ما هيىء له ، وما أكثر الأمكنة . حتى في المطبخ ، بوسعه أن يجلس على الدرج الرخامي حاملاً معه كالعادة أوراقه . وأما هي فتنظر على نحو هادىء مشوق . تنتظر رغباته لتلبيها . وتفتتن بأعماله . ويمضي بنا الوقت ، ساعة أو ساعتين ، نقرأ ونتحدث ، نحتسي النبيذ الإيطالي . ننتقل من مقعد إلى آخر . يلتف عليّ ثوب النسيان الحذر . وأرمق وجه مجد المسبل فوق أوراقه ودفاتره . وبغياب لبنى يتجه الاهتمام إليهما ، ويبدو شديد الخصوصية كل ما في البيت من أجواء . وأشعر بالغربة . كل جزء من الغرفة مشوب بذكرى منها . ما عدا ذلك الوجه المطمئن . لقد سقطت منه اهتمامات العالم جميعها . كأنه وجه طفل شبع .

يطلق من فمه زفيراً طويلاً ويتمطى .

– لقد سقط مني جزء في البحر . الشعر صديق جيد . لكنه لم يعد يسليني .

وتقبل شجن إلينا كأننا عينان من عيون الشهد لم تملآ بعد بالعسل . حان وقت الغداء . ونضع ما بين أيدينا وننهض . يغسل مجد يديه وفمه بعناية ، فاعجل إلى تقليده .

تسألنا هي : — أين حبيب ؟ لم يأت .

فينهي مسح فمه بالمنشفة ويقول : — البارحة ، ونحن في الكازار علم أني ختنته . أعتقد أن قراراً بتجريمي قد صدر . حبيبتي ، لم أعد أطيق ذكاءه . ولا أفكاره الطويلة . انسان يفني عمره وراء رحلة واحدة هي توكيد الذات . أبداً لن يصل إلى مرحلة تكوين المعاني . يتغزل بأحزانه وبؤسه ، وينمي متاعبه . أعني ، شيء لا يطاق . والحكاية كلها حكاية زر بندورة . إذا زاد زر بندورة في المعدة فكر الانسان بطريقة . وإذا نقص زر البندورة منها فكر بطريقة أخرى مختلفة . وقد أغني أجمل القصائد إذا لم يكن في معدتي زرناقصاً ولا زر زائداً . الثلث العضوي هو ما تبقى لنا .

ويتمطى ماسحاً من جسمه بقايا تعب الليلة الأولى للعام الجديد . وجهه متعب . عيناه مسترخيتان معبورتان بالعروق الحمر . ولأن الجفون مسترخية بدت العينان واسعتين وحشيتين على نحو ينذر بالموت . لقد نام من السادسة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر . بعد استيقاظه ظل نصف ساعة مستلقياً . اليوم عيد . والجميع مبتهجون . عليه الآن أن يصفي عروقه من ثقل السهر بالراحة والطعام الجيد والقهوة المرة .

تسأل شجن ، وهي تصب لنفسها شيئاً من الطعام :

— ألا يمكنك أن تتحمل حبيباً .

ويجيب بوجهه ولسانه : — ولا ثانية .

فتعلن هي : — ابعده إذن عن حياتك . ليس ضرورياً أن ينغصها أحد .

لم يعد ثمة بال لأسئلة . كل شيء واضح : هذا الرجل سعيد . ولعل ذلك هو الذي أحزن حبيباً . وأخافني . رأيت الزوجين قابضين على حقيقة ، ورأيتني قابضاً على وهم . بين أيديهما شيء يؤكل ويشرب ويغنى له اسمه الرضى ، وداخل ثياني الخوف والغبار . وجاست عيناي بين محتويات الغرفة — ذكريات لبنى ووجه مجد القرير . وظل ما في الداخل مستتراً . جرؤت إذ ذاك على أن أعي سؤالاً مستتراً حبسته كلما نظرت إلى شجن : لو تزوجت سزي فماذا كان صار ؟ وطفا السؤال لوهلة ثم غاص .

بعد انتهاء الأكل جاء حبيب . ابتسم . سلم بمحبة وتمنى لنا عاماً سعيداً . ثم ارتمى على الكنبة مطلقاً آحة . وما عتم أن شبك يديه أمام عينيه . وبطريقة ما ظهرت من بينهما شفتاه المتهدلتان .

ولأن شكل ليلتي الفائتة ماثل شكل شفتيه ، سألته وقد تركنا مجد لقضاء حاجة :

– الأحوال سيئة بينكما

فسقطت نظرته على أصابعه . صمت حتى شحن بالتوتر جوّنا ، ثم رفع نظرته إليّ . بعد قليل غمغم برصانة :

بالنسبة لي ، أنت تعرف ، أنا لا أحقد ولا أكره ولا أدين أحداً . الذي حدث هو ما يلي : ليلة أمس كنت أرقص مع مريم . رآني ودعاني إلى الجلوس معهم . الذي حدث ، باختصار ، فأنا لا أحب الاطالة ، يهمني فقط افكاره الجديدة ، أنه أعدم بضربة واحدة جميع أفكارنا .. المستحيل.. قال أنه لم يعد يؤمن بالمستحيل .

وصب نظرته على وجهي بشكوى وحذر ، فيما بقيت شفتاه متهدلتين . أغلب الظن أنه لم يتوقع مني أن أخذله ، أنا الآخر ، لكنه خشي ذلك . وحملت إليّ نظرته الودودة البريئة شجناً حقيقياً ، ودفاعاً عن النفس . هي ذاتها ، النظرة التي أخفت ثقته الجامحة بنفسه منذ ربع قرن .

قلت : – وكيف يحدث هذا ؟ المستحيل ليس لعبة يمزقها .

عندئذ شعر بالضعف ، ولأول مرة في حياته استمرأه..

– قال ان المستحيل لغو . وأن المثقفين في بلادنا رومانتيكيون سيكوباتيون . وأن عليهم أن يحملوا فأساً ويشقوا الصخور . وأن الإنسان السيء التكيف مع نفسه وحياته ،

وهذه كلماته بالضبط : يفر إلى براري الفلسفة ، ويقيم من خيباته صرحاً عقائدياً .. وأن وراء كل فكرة أو عمل أو كلام سعياً لتوكيد الذات أو لاشباع رغبة . قال بالحرف أيضاً : أن طلب المستحيل تبرير للتكاسل عن طلب الممكن .

وعادت نظرته تنصب على وجهي المحرج لتمخض منه رد الفعل الذي توقعته .

عندها أقبل مجد لابساً رداءه الجوخي. ووراءه دخلت شجن حاملة فناجين القهوة ، وتناول سيجارة فقدمها لحبيب .

— أخي حبيب لم تأتنا للغداء ؟

بهدوء أجاب حبيب متعمداً : — والله .. شغلت قليلاً .

ورد مجد : — هذا مؤسف . نحن نحبك ويؤسفنا أنك لم تستطع الحضور .

وردّ حبيب ملتمع العينين : — أعرف ذلك . وأنا أيضاً احبكم . وكنت أنوي فعلاً المجيء .

ونظر إلى مجد . هز مجد رأسه هزة تقدير تام للموقف : وصمت الآخر على شعوره بأنه انتصر . لم تكن عينا مجد قويتين ، فلم يرتفع جفناهما . وعاد حبيب فشبك أصابعه أمام أنفه ، منخفض الوجه ، مرتفع النظرة .

تمطيت تمهيداً للنهوض . ونهضت ، فوقفت أمام زجاج النافذة . وأراحني النظر إلى دمشق من حيرتي : إلى أين أمضي؟

لم أعثر على مسعود في أي مكان . يجب أن أراه لأحبه من جديد . رأيتني غريباً بين مجد وحبيب ، مؤذى. وأمعنت النظر إلى هذا الصندوق الذي ندعوه المدينة . أخيراً غلبت ضعفي . عزمت على الخروج برغم غيبة الهدف . وكدت أتراجع إذ سألني الزوجان إلى أين . تذكرت إني سأنطلق إلى الشوارع المقفرة . ونهض حبيب ، فخبط بقدميه على الأرض ، وسوى هندامه . وعدت إلى عزمي .

أخيراً خرجنا . وسفعتنا الريح عند مدخل البناء وعلى طول الشارع الأجرد . عندما عاين حبيب صمتي راودته المشاعر الحادة . لفلف ياقة معطفه على عنقه ، وأطلق آهة طويلة . السماء خالية من الغيوم ، عكرة . والشمس توشك أن تغيب . ليس ثمة ما هو حي خلا السيارات والريح . وفي ذلك الجو الرصاصي طاب لحبيب أن يفتح عنابر حزنه . ورشح وجهه بلون الحياة التي يعيشها فبدا شاحباً محاصراً.

— ضجران من حزني .. تعبت .. الناس يزحفون تحت حياة لا معنى لها .. نحن لا نستأهل كل هذا .. اشتهي يوماً يمر بي بغير حزن . رفضي الدائم للقيم يحيرني .. يتعبني .. هل تفهم مني ؟ تعبت من ضجري وحزني .. تمنيت ساعة تمر علي بلاحزن .. أتراه ركبني أنا وحدي من بني البشر ؟ ساعات تمر علي في أواخر الليل .. استلقي على سريري فلا أنام .. أفكر .. وأحلم .. إني أتكلم جاداً .. رأيت أخيراً أن جميع الناس مرضى .. مرضى بقوة وعمق— هل تفهم ماذا

أعني ؟ وأنا أيضاً مريض وإلى حد بالغ . لكنني أعتقد .. صحيح أني مريض . ولكن غيري ميؤوس من شفائه . أنا لا يمكن أن أرضى . وأنا أعرف السبب . الأنا العليا عندي تطلب المستحيل ، وأنا لا أعرف الرضى .

وينظر إليّ ليرى وقع كلماته . نظرة مألوفة قصيرة ، رأيت حزنه الخاص وراءها ، وحدته وعزلته . لكن شيئاً من مجموع سيمائه ، شيئاً لا يمكن القبض عليه منعني من أيما تعاطف معه أو تواصل . أسكتني : هززت برأسي مؤكداً ولم أتكلم . وتابع هو :

– ليس هناك أمل. طالما يحلم الانسان بأشياء مستحيلة ولن يرضى بغيرها ، ليس هناك أمل . القيم التي يقدسها الناس كلها منفعة . وهي تنتهك يومياً وكل ساعة . الأخلاق ليست أصيلة في النفس البشرية . العلاقات نفعية . كيف يمكنك أن تعيش . تحلم بالحب فاذا هو تبادل رغبات وحاجات . ويصدمك المستحيل فيزيدك احساساً بمحدوديتك . حتى يحقق الانسان ذاته عليه أن يحقق المستحيل ، يحقه .. يقبض عليه . أنا أرفض العلاقات الحالية . أرفض أن أكون رقماً . أرفض تقضية الوقت بالنرد والورق ... أريد أن أموت ، قررت أن أموت .

وأطلق آهة طويلة ، ركز عينيه القاسيتين على طرف الشارع البعيد ، مقلصاً شفتيه المفتوحتين . وتفجر في وجهه

قلت : — لماذا تنظر إلى النفعية بهذا الازدراء ؟ شيء جميل أنك تحتاج للناس .

وأيقنت أننا مختلفان .

صمتنا حتى وصلنا إلى بيته . فتح الباب ، وصعدنا الدرج . في البهو لاقتنا أم حبيب ، فتغيرت تقاطيع وجهها الحزينة القاسية لتفسح لابتسامة قصيرة مجالاً . لقد زادها اليأس سمنة . وتسللت إلى شعرها خطوط بيض ، فلم يبق لوجهها الوسيم إلا عينين طريتين .

كان عليّ أن أتناول القهوة . وهكذا ارتاح خاطرها . بعد كل شيء يمكنها أن تقدم فنجان قهوة لضيف عزيز . وجلس حبيب صامتاً .

ودعتهم . وإذ ألحوا قلت : — عليّ أن أجد مسعوداً فهو لم ينم في البيت منذ يومين .

— ٤ —

شيء ما قد حدث . سمعتهما يضحكان ، وكففت عن التفكير . شيء من الأماني بار ، والمحبة هاجرت . قال مسعود : «سوف أزوجك الليلة .» وهتف أبو خالد : «لعينيك . ولكن يا مسعود هذا شهر رمضان .» ورن في الغرفة ضحك وصخب . لا بد أن مسعوداً قد أتى شيئاً ففرقع الاثنان . في نفسه كلمات سرية . هاجمته لحظة خرج من السجن من غير أن تعلن عن ذاتها . وبدا أنها ملأته بالضجيج المنشود ، ضجيج عالم مغلق زاده أسى . (بعد أسبوع في السجن جاء ضاحكاً عاصفاً ، وقال : «السجن للرجال .») بحثت عيناه في غرف القبو بحذر فوجدتا أبا خالد يسدد بارودته على هدف وهمي . توثب النبل القديم بينهما ، فضغط على صدريهما فرح بريء صديق ، فتعانقا . وضغطت على أعماق مسعود المخدشة رهبة وعي غامض لقبو آخر شاهده في تلك الآونة . أخافته سيماؤه الجديدة فسمرته ، وقد عرفها لأنها

كانت في قلبه .

عندما تعانقنا لم يخف شيء . كان بوسعه أن يضج ويصيح . على الأقل للتغطية . ولكن ذلك لا يستوي بيننا . فليس لجميع الموتى تقام التأبينات . ارتبك وتحيرت . ثم هبت على وجهه ريح صمت ثلجية ، فتوارت منه التعابير . تناول سيجارة فأشعلها . ثم تناول قدحي جن فحسا منهما . وارتمى على الكنبة ساقاً على ساق ، غير عابىء بالنظر إلي . وبجرس خال من المبالغة أكد لأبي خالد من جديد أنه لا بد مضاجع امرأة ذلك الليل . كان الوقت بعيد المساء والبدر يلمع في السماء البادرة . وأشاع دفء المرأة الموعود شيئاً من التحرر في تقاطيع وجهه . التفت إلى أبي خالد وهتف :

— إذن لا بد من ثورة لتصحيح الثورة ! أنا مع الثورة ، يا أبا خالد . أريد أن أدمر جميع هذه القيم والتقاليد . حياتنا لا تطاق . أكره هذا النمط من البشر . أكره ثقتهم بأنفسهم ، يقينهم .. تأكدهم . أكره عواطفهم وروابطهم وكل ما اخترعوه . يجب أن تحقق لنا الحياة الرضى والارتواء . ولن يتم ذلك إلا بالثورة .

ضرب أبو خالد بإبض يده على سبطانة البارودة . ولأول مرة تتخذ معنى ، بعد أسابيع من الفك والتنظيف والتركيب . الثورة . تأملت وجهه برهة . وكان خالياً . تذكرت الأعداد الكبيرة من الشباب الذين أموا القبو في أوقات سابقة . هل

سيحرر هؤلاء قطراً عربياً ما ؟

استرخيت على كنبتي وابتسمت . وازداد مسعود اهتماماً وحفاوة على نحو مثير ، ولكن بغير كلام . مرة أخرى أعطى الصمت أبا خالد قوة فخطب :

– لم يكن محمد ليستطيع قهر قريش والمشركين لو لم يشن عليهم الغارات والغزوات . كان لا بد من الدم لسقاية تلك الشجرة . ونحن الآن نواجه ظروفاً مماثلة. الرجعية ، يا أخ أسيان ، تتربص بالثورة لتجهز عليها . لن ننتصر إلا بمزيد من الثورية . لكن الخطر الأكبر من هذا ، خطر الثوريين أنفسهم . الثوريون المتخاذلون ، السلبيون ، الغارقون في ذواتهم . هؤلاء أعداء للتحرر . يدّعونه ليعالجوا خيباتهم مع النساء ، ليستروا ضعفهم بطيلسان السلطة . يدّعونه وهم رجعيون . في أعماقهم تحلل من الاخلاق وتمسك بها . ويرفعون راية التحرر تستراً على فساد أخلاقهم . من منهم له صفات الصحابة الأول ؟ من منهم له تلك الشخصية المتكاملة التي كانت للصحابة ؟

سألت من غير أن أتحرك : – ومن هو محمدكم ؟

فسارع إلى الجواب كأنه أعده من قبل : – هذا هو الفرق . الشعب بمجموعه وليس شخصاً واحداً . كل منهم يحاول أن يقتدي بمحمد، أن يكون نموذجه، فمحمد لا نظير له . هؤلاء فقط يحررون فلسطين . ما رأيك ؟

فاجأني السؤال الساخر . نظرت إليه وإلى مسعود كنهم . قلت : « أنا معكما حتماً . أعني أن ننظر إلى فلسطين بالجدية المطلوبة .. بنفوس متحررة .. من الميوعة ، أعني من انعدام الجدية . أنا معكم . وإن كنت لا أجد مكاني في التاريخ العربي » .

انسحبت من الحوار ليتماه معاً . وسرعان ما توغلا في أعماق أمنا الصحراء ، كل على بساط ريحه الخاص . لعلهما بلغا غار حراء ، مليئي الصدرين بالفخر والطرب . جميع تلك المئات من السنين لهما : ومئات مقبلات — أمجاد الفاتحين والمشرعين الذين أعطوا اسماً ، وذلك النسيج الفاخر من السؤدد والاشعار والنساء . لقد تسلمهم الآن أبو خالد وشعبه باستشهاد وفداء : بالإيمان الرسولي الذي حمل أجداده إلى طرف العالم . وأما أنا فأحسست باليتم .

كرع مسعود قدحه ، ثم خبط على الطاولة . نظر إلى أبي خالد بوجه باسم يطلب شيئاً يخجل منه . ومثل ماء حبيس وجد فجأة منفذاً ، هتف : « ها هي . مرت . أعرفها . أشعر برغبة عاتية لأن أخرج عارياً تحت سماء هــذه المدينة . لمــاذا تأكلني الرغبات هذا الأكل ؟ » وأمسك بأبي خالد من كمه . لم يعبأ باحتجاجه المدلل . « امش بالمنامة . لا تكن تقليدياً . بيتها قريب . » وبدا على أبي خالد عنفوان عرم . كان لا يزال مبتهجاً بالاعلان عن نفسه . ولعله أحب أن يظهر الجانب

العصري منها . إنه هو الذي تملكه الثورة مطالب بألا يكون في ذاته شطر يملكه الجنس . ليعش للجنس الآن ، كي يعيش للثورة فيما بعد . « اليوم خمر وغداً أمر . » لعله وجد في المناسبة فرصة للخروج من قمقم قديم . تمالك نفسه قليلاً ثم قهقه بسلطان . رمقني وهو يخرج عالياً طويلاً . وإذا واجهني ظهره نهائياً ، امتدت يده إلى شاربيه وبدأت تمشط بهما .

أحسست بانخذال وضعف ، ورأيت في القبو مقبرة .

الجميع يتغيرون ، وكل شيء . أبو خالد يحمل السلاح . ومسعود يركل بلور صداقة لا يعاد سبكه . وأما أنا فباقٍ على صخرتي ، على زمني .

تمنيت ليلئذ لو جامع أبو خالد تلك المرأة قبل أن يؤوب إليّ بوجهه اللامبالي ، ويقف على باب غرفتي متحدثاً . لعله لو فعل ، كان باع بارودته أو أهداها لمن سيحرر للبنى فلسطينها . « لا تستطيع أن تخدم سيدين في وقت واحد . إما الجنس وإما فلسطين . مسعود هذا ، ليرسل له الله مئة امرأة ، فارس كلمات ونساء . نحن مختلفان » .

ويقول مجد بعصبية : — عندما لا يختلفان تحرر فلسطين . فلسطين هي بكارتهم جميعاً التي طعن انفضاضها كبرياءهم المريضة . ليرفأوا ما تمزق ، وليخوضوا في أنفسهم معركة تحول . أليس كذلك ، شجن ؟ على هذا النمط السائد من

التركيب النفسي والقيم لن تسترد فلسطين بألف عام . لن يستردها حكم مخلص ، ولا ورثة محمد ، وانما عرب جدد بلا بالونات .

وفي آخر الليل يدقدق في القفل مفتاح ، ثم يسمع في البهو خفق أقدام . يتجه مسعود إلى غرفته ؛ ينيرها . ببطء يرمي ثيابه وحذاءه . يتثاءب بصوت مسموع . يرتدي منامته ويسترخي على الكنبة . بعد قليل انتبه إلى أبي خالد يتحدث اليه . يبتسم الاثنان حتماً . وبغير حماس يسأل مسعود : « ماذا حدث بينك وبين ميغيت ؟ » ويجلس أبو خالد في مراح رزين فتي : « تمر فتتحسس بي . تغرز عينيها في عيني . وأنا لا أبالي بها . » ويبتسم مسعود متباهياً بالنيابة عن صديقه بهذا الصدود الرجولي . ينظر إلى أبي خالد بابتسام أكيد . ويحس الاثنان بالرضى .

— ٥ —

شيء ما قد حدث حقاً . حملته في الزمن اطلالة العام الجديد ، وولد في القبو . حكم مسعود . أوقف أمام محكمة ودافع عن نفسه ، هو البريء بالولادة . اتهم بمهاجمة بيوت الآخرين : بمهاجمة الأجانب ، وبمحاولة الاعتداء على امرأة . واتهم كعسكري بالسكر المفضي إلى شجار : أمام الملأ وفي عرض الشارع . ثم اقترح له الحبس خمسة وأربعين يوماً . وأجلت المحكمة إلى يوم آخر .

خرج من السجن منتظراً عودته اليه . وبالتأكيد فقد رأى في القبو تتمة للسجن . وعلى نحو أعمق رأى في ساكنيه أعداء ، سبباً غير مباشر لتصرفه . بضربة واحدة سجنه العالم كله . أبو خالد لم يستدنه منذ البداية . «وأسيان لم يعد فيه عزاء» .

أخيراً أقر لنفسه : بالرغم من الروعة التي احتمت بالبراءة كانت علاقاتنا مشروطة ، ربما كأية علاقة في التاريخ .

لكأن ثمة ترتيباً للحوادث نظم بعيداً عنا ، وتعين علينا أن نسهم فيه بغير اعتراض . مسعود في السجن . أبو خالد يستعد لانقلاب مسلح . مجد وحبيب قطعا شعرة معاوية . ويبرز بعض هذه الحوادث كضيف غير متوقع . بوران أيضاً قطعت شعرة معاوية . رأيتها في بيت أخي فابتسمت وأطلقت زفيراً قصيراً . رأيت عينها زرقاء ورمة ، من الحاجب حتى الخد . وأما هي فابتسمت باصفرار ، أشاحت ، ثم أجهشت ، ثم أعولت ، وغطت بيديها وجهها وجبينها .

وبعد مسعود وحبيب وأبي خالد وبوران ، أفلتت الحسابات. حاولت أن أعقل، فساح كل شيء. خلفت ورائي الأصدقاء فوجدتهم في وجه أختي . وعند أختي وجدت القضاة الخالدين . زوجها الضخم الجثة جالساً على كرسي قريب ، ثم أختي وزوجته . وجوه مستطيرة ، ونصف صمت . جلسة محاكمة أخرى لن تضير البشرية شيئاً : فالقضاة موجودون منذ بدء الخليقة وليس هاماً أنهم لم يصلحوا عطباً ولا ردموا شرخاً . شيء وحيد كان يحير الجالسين هناك : ماذا يقول الناس إذا تم الطلاق .

لا مساومة . انصرف مسعود عني بشرف . قفز فوقي وفوق دمشق كلها . رفض أن يرتق الثوب — قبله وهو ممزوق ، لكنه رفض أن يرتقه . وبوران ستطلق . (قلت لها : « ليس أسهل علينا من السكنى معاً . فقط اتركي هذا الكائن . »)

هي نفسها التي تزوجت على الرغم من أبيها الشيخ المحترم . ثم ظلت تغتصب باسم الزواج حتى الآن . أبو خالد يرفض حياته الحالية ويصرعها بالرصاص ... الجميع رفضوا ، بعد أن صارت حياتهم كالمغزل والكذب خيوطها.

لأتصورهم وجوهاً مشيحة : أعينا شما تفترس الهواء ، بشراً نفذوا من قضبان دولاب الزمن الكبير وساروا على أقدامهم ، مبعثرين على رقعة الأرض المديدة مدانين رافضين ، يريدون أن يخرقوا الأرض وأن يبلغوا الجبال طولاً . بعضهم جاء راكضاً ، بعضهم ضاع في الطريق . خاسرون متعبون ، -سوطهم الأخلاق والمال والحياة الدنيا .

وفي وقت ما تدركهم رحمة الله . تنتشلهم من متاههم ودهرهم . تؤوب بوران إلى نفسها ، وقد أضعفها بكاء زوجها وعويله ، ورفض أخي الصامت الرصين للطلاق . الغرفة العارية في قلب ذلك الشتاء شهدت رجلاً ينطرح على الارض ويقبل القدمين اللتين أشبعهما ضرباً وركلاً قبل أيام . مئات الاعتذارات والندامات. وأخي جالس ينتظر لحظة التغير الحاسمة في ذهن بوران . الفضيحة وخسارة الابن ، وحياة امرأة بلا رجل . تطرق هي برهة ، ثم تذوب في بكاء ناعب صارخ ، متطاول الصراخ . تضع يديها على وجهها ، ومن بينهما تخرج الاعوالة تلو الأخرى . يعلو الصدر ويهبط ، وتنفر عروق الجيد وتختفي . ومن بين أصابعها يسيل الدمع

إلى ظاهر اليدين حيث يقف لحظة ثم يسقط على الأرض متقطعاً مستمراً .

وفي اليوم التالي تعود بوران مع زوجها .

« باطل الأباطيل ، قال الجامعة ، الكل باطل وقبض الريح . » والله هو الحر الوحيد في العالم . يغدو الآخرون سجنا لحظة أن تحتاج اليهم ؛ والحياة ، لحظة أن تأتي اليها ؛ والزمن ، لحظة أن تفكر بالموت . لم تفكر بوران بالموت من قبل فسجنت في أبدين . ثم لمس الزمن بريشته الرمادية جلدها ، فقبعت مع أمثال مسعود في السجن المثلث . وحمل أبو خالد السلاح . وطفا مجد فوق آباده الثلاثة .

صرت محاصراً بينهم ، بشري الذين أحببت لأجل صلة تخرجني من سجوني الثلاثة . صار كل منا محاصراً بنا . لكني كنت مختلفاً عنهم . جميعهم تعلقوا بحب أو بصلة ففقدوا بعضاً من ذواتهم . ارتبطوا فخسروا وأسرتهم الذكريات .

اثنان فقط نجوا : مجد وأنا . نحن كاملان لم نخسر شيئاً . ارتبط هو فلملم ذاته ، وأنا لا زلت أماحك الزمن والبشر .

لقد ساءلت نفسي في كثير من الأحيان لماذا يحفل التاريخ بالحروب والمنازعات والعنف ؟ ولم يكن لي أن أحلم بجواب : أنا الذريرة المرمية في فضاء الكون الكبير . رأيت التواضع

أروح . واكتفيت بالبحث عن جواب عند أيما اثنين من البشر يقيمان علاقة . أغرقتني فكرة سلام كبير برويته سلام صغير ممكن . بل ، وألم بي شيء من الثقة . والفيت حولي حفنة من الأصدقاء تجاوزت معهم حدود العزلة والشجار فبحثت عن الحب . لم أجد الجواب الأخير ؛ وهل كل محب قادر على التضحية ؟

في ليل اليوم التالي سرت على الرصيف باتجاه القبو . ورحت أصفر مفكراً بجميع التغيرات التي انبثقت في وجهي على غير توقع . أنا الوحيد ، في سلامي وعزلتي . وعلى نحو ما شعرت بخياني لأصدقائي وبحبي لهم . راودني حبور باطني لنجاتي واصابتهم . تذكرت مجداً بفخر ، وشجن بحب عميق . كانت عالماً وكان ربه . رأيتهما يستويان على جبل كما استوى زوس . وانتظرت بهما عودة لبنى .

في القبو رأيت مسعوداً مستلقياً يصفر . بين اصبعيه سيجارة ، وعيناه ترفعان السقف إلى السماء . بالطبع تهيج الضمير الجريح ، إلا أني عجزت عن الكلام والاشارة . ومثلما فكرت بالانهدام الذي غار إلى قعر علاقتنا ، تلامح على وجهه كنوية صرع منتهية تأمل حاد مضن للزمن الذي فات واستلب منه فرصته للتكامل الشخصي .

جلس إذ دخلت البهو ، مركزاً عينيه الغامضتين في عيني . ومثل تيار تدفق خفيا عبر مكان ما في زمان ما ، أعطى لسانه

الصوت لكلمات تمتمت حديثاً سابقاً مستتراً . فقال :

ــ عدت . الآن أستطيع أن أكتب ، لا قصة بل رواية . رواية عنك يا ممتنعاً عن العواطف البشرية .

وصمت برهة لتتكلم عيناه الهازئتان . ثم تابع :

ــ أنت تحاسب نفسك والناس ، وتحاصرهم ، وترجم ضعفهم وحاجتهم. سوف لن يكرهك أحد مثل الذين أحبوك. عجيب كيف يحبك الناس! كيف يسقطون في حبك بسرعة... سيبدأون بمحاسبتك كما حاسبتهم . سيكتشفون أنك ناقص مثلهم ، ويرفضون بالوثائك التي لا تنفخها . أنت لن تكون مسيحياً ولا مسلماً ولا وثنياً . ليس لديك محبة أي من هؤلاء لأقداسه .

قلت : ــ بالنسبة للقصة ، أو للرواية ، أكتبها بغير حقد. الحقد لا يصنع فناً .

— ٦ —

لكننا نحن المذعورين من تعاقب الليل والنهار ، تتالى أمام أعيننا الأيام بلا توانٍ ، ويشيخ العام الجديد في منتصف الشهر الأول . كل منا يرى تلاوين مصيره الخاص . عندما أطل كانون الثاني بصرصره وجفافه ، تجمعنا حول مائدة غنية من التوقعات والوهم والأسى . ولكل منا حكاية . حكاية عشاق غرباء ، أحبوا الأرض والشمس والرمال المجهدة : يكر أمامهم النهار والليل بالخوف والأمل والحزن .

إلا أبا خالد . شيء ما في ذاته ، طبيعي وغير معلوم ، غيب اللون الرمادي من معيشته ؛ لاشى خطيباته الثلاث من كلية الشريعة ؛ لوّنها بعالم عربي موحد ، وأعده للعمل العظيم . بضربة واحدة انقصمت علاقاته معهن ، وأمست « ميغيث » لعباً ستر مشاريعه السرية . « نحن أبناء غار حراء ، صنعنا منذ أربعة عشر قرناً ، وترك لنا أن نتابع النسيج . » « الشعب بمجموعه ، لا فرداً واحداً » .

ويتنفس بعمق مشبوب ، ملفعاً خيالاتنا بجديته المسؤولة .
نخجل آنئذ من مشاكلنا الشخصية ونعتقد أنها ليست مشاكل الناس . نكتشف بانكسار هزال عاطفتنا نحو الوطن ، فننشد مرة أخرى إلى عالم المثال الذي لوّن طفولتنا .

ولا يوحي وجهه الضامر بأية غرابة . لا يكون لأي منا أن يضعه في صورة غير مألوفة . نعود إلى مأساة فلسطين والأطراف المغصوبة من وطننا بوجدان جائش ، مشتبك مع ذاته . يصير كل شيء خيانة إلا ذلك الانماء المحتّم في يافا .

هو أيضاً كان عاشقاً . ولقد روّى بحبه وأمانيه سهوب عالم كبير . آمن دونما انقطاع بـــأن وطنه الشتيت سيتحد ، وجماهير شعبه ستتسنم مكاناً رائعاً تحت الشمس . ومنذ بواكير حياته امتلأ بالشعارات وكرس عمره لها . محاولاته الصغيرة مع فتيات كلية الشريعة لم تكن غير انزلاق عابر دفعه اليه عيشنا الشجي المفزع . مر عليه حين من الدهر كاد يصيبه بجراثيم حياة باطنية منهكة . أحس بأن لعمره الشخصي أهمية خاصة وارتباطاً حضارياً بأمته . أحس بالعالم كله موجهاً بقصر هذه الفترة وتلاوينها . «يجب ألا يكون ايماننـــا بالاشتراكية منبثقاً فقط من مشاكل الجماعة . هذه المشاكل محصلة مشاكل الأفراد الشخصية .» ويتصور نفسه على هذا النحو ، يلبي حاجات الجماهير تلبية تلهيه عن الثورة . يجب أن يستقبل المراجعين شخص آخر . أما هو فسينصرف إلى تنظيم حكم جديد .. جديد حقاً .

ولأمر ما غير أبو خالد رأيه .

ربما غلته الشعارات ، وقد أفنى لها عمراً ، فأحس في سريرته بالبهتان . هذه المناطيد المحلقة محض كلمات . حتى الآن الشعارات هي كل شيء .

ويقول مسعود : « أبو خالد يريد أن يصنع صنيعة ما . »

ويجيبه مجد : « هو ليس من النوع الذي يغترب في ذاته . ليس باحثاً في نفسه . أخي أسيان ، ما من انسان أحس بالفرق بيني وبينه مثله . انسان مهاجر أبداً في العالم الخارجي . يشاهد العطب في جميع الناس والأوضاع ، وتتيه عيناه عما تراكم فيه من موات التاريخ . »

وتلتفت عينا أبي خالد الرخوتان نحـــو مفارق طرق غامضات. ليس ثمة صعوبة في الاختيار ، لكنه يريد أن يبدأ. فوق هذه الأرض الملوثة تسير قدماه ، وأقدام الملايين . ملايين يريدون تغيير العالم . ويتصورهم عصائب حواريين شاهري سيوف منطلقين .

وفي الليالي المستّرة تدق تانك القدمان القويتان نحو شباب اختاروا أن يكونوا جيل الضحية ، جيل القدر . في صمت ، وفي حلكة شتاء قارس ، تلتقي وجوههم الكتيمة الهادئة . تنث السجائر في الغرفة سديماً رمادياً من الدخان . ويخرج صوت أبي خالد متقطعاً ومعبراً. ينصتون اليه ، أعينهم مزحومة

بالترقب والايمان ؛ وأذهانهم تعانق بنادق محشوة بالرصاص . لم يعد ثمة وقت للانتظار . السلاح أقصر الطرق إلى جنة عدن . يكر النهار والليل بلا توان ، وما لم يمسكوا أعنة الخيول فالمركبة رامحة نحو هاويتها . والمجد للشباب ، هؤلاء يصنعون التاريخ ؛ ولن ينتظروا أربعين عاماً .

ينبغي ألا تطول فترة التدريب ، وإلا افتضح الامر . ولا حاجة لأن يتواصوا بالسرية التامة . جميعهم يعرفون الخطر الضخم المحيط بالعملية . ويبتسمون لأنفسهم بهدوء .

وإلى مكان ما خارج المدينة ؛ يفد عشرات من الشباب على رأسهم أبو خالد . منهم حامل رشاش ومنهم حامل بارودة . يتوزعون إلى حلقات قليلة العدد . يتسلم تدريبهم السري ضباط من الجيش . ويطل أبو خالد عليهم مراقباً تمرسهم بالقتال . لقد اعتاد الآن ادخال دخان السيجارة إلى رئتيه .

وإلى أمكنة ما داخل المدينة ، يسري هؤلاء الشباب فرادى متكتمين . يجلسون في أيما غرفة داخلية من بيت أحدهم . يتبادلون بابتسار مقصود شيئاً من الأحاديث والتعليقات ، والسجائر أيضاً . ويطفيء هو عود الكبريت ثم يقول : « يا اخوان نحن لا نؤمن بالتطور الطبيعي . صحيح أن كل هدف يحتاج إلى زمن كي يتحقق. لكننا لن ننتظر مزيداً من هذا الزمن الأسود . في التطور الطبيعي تنمو جميع الشذوذات ، وتحدث

جميع الجرائم . تموت كل روح ثورية بالرتابة والتقليدية ، أو تنحرف بضغط القوى الرجعية . نحن نحترم برغسون وتفاؤله . لكن الواقع أبعد ما يكون عن المثالية . رؤساؤنا في هذه المهمة المقدسة يقولون : « ان الأرض التي تترك حرة وعلى طبيعتها تنبت الأشواك والأعشاب الضارة . » من هذا البلد الصغير ينبغي أن نحمل السلاح ضد التخلف . السلاح أيها الرفاق أدواتنا لمجابهة الزمن . كل رصاصة تكسبنا عاماً ، عمراً . التحجرات التي رسبها الزمن في أرض بلادنا .. عبر مئات السنين .. لن نترك لها هذه المدة لكي تتفتت . لن تزيلها إلا التفجيرات الثورية . »

ويقول أيضاً : ــ فلسطين ، أيها الرفاق ، قميص عثمان القرن العشرين . هذا القدس الذي لا أجرؤ حتى على تخيله ، ينتقل كل يوم من فم إلى فم كقطعة ابان .

... ويركض خياله عبر أرض موعودة لا تمسها قدماه . يهل على شاشته يوم لا يعرف موضعه بين الأيام ستسري في غلسه طلائع الثوار إلى الاذاعة ورئاسة الحكومة وقيادة الجيش . ويطرب أبو خالد بسرية للنصر المقترب . يسرع خياله في الركض والانتقال ، بين الأبنية والرصاص والشوارع ، والبلاغ رقم (١) . من صدره تخرج ضحكة غير متوقعة ، ويدغدغ عروقه تحرك غامض . ربما هو خوف وهم ، أو هاجس . لكن هذا لا يهم .. لا يهم . ويطرق ذهنه في لحظة

لافتة سؤال مازح : هل سيحدث كل هذا حقاً ؟ ويتركه السؤال من غير أن يأخذ جواباً ، كومضة تلاشت عندما ظهرت . سؤال آخر يريحه : هل سنفشل ؟ ويطامنه ما رآه من خطط محكمة لدى الرؤساء . وتمرج فيه بهجة رشيقة لعوب . يهزه حتى الأعماق تصميمه الفدائي وتضحيته الدامية .

خلال الأيام الأخيرة يترسخ التصميم على الانقلاب ، وتوضع له المخططات النهائية . وتبدو عينا أبي خالد ووجهه أقل احتفالاً بالعالم الخارجي وتلقياً له . مزيج من الخوف والهم يصب في اناء ضعفه البشري . وفي نادي الجامعة تدركه ذروة خدر فيسترخي على الكرسي الأقرب ، ويحدق إلى الطلاب كأنه أجنبي . للحظات يبدو له كل شيء هاجساً متعباً . ثم يحييه رفيق في عينيه ابتسامة ولاء ، فيذكره بالتدريب . تبتل روحه بعد جفاف وينهض . وفي القبو يقول مسعود بلا اهتمام . «أراك تغيرت يا أبا خالد . هل أنت عاشق ؟» فيقهقه بصوت جهوري قهقهة من وجد التهريج راحة بعد كد طويل . يتناول يد مسعود فيسحبها وراء كتفه المتهدل ليروي له شيئاً عن ميغيت .

مسعود . مال نحو أبي خالد راقص العينين وغمغم : «غداً يوم تصير وزيراً ، ألن تنصبني رئيس دائرة ؟» وزقا كطفل جرؤ على المزاح مع أبيه . ابتسم فم أبي خالد ولم يجب .

من النافذة راقبتهما يتمشيان . رأس مسعود مشرئب أمام وجه رفيقه ؛ ورفيقه يحملق إلى فراغ الشارع باهتمام . وجدي بقيت : كما أراد مسعود ، أسير ضعفه وقوة أبي خالد – ضعف قوي هو الآخر عندما يمتلكه احساس بالفقدان أو بالخيانة .

•

خرجت إلى مجد . هناك تناولت فنجاناً من القهوة المرة . فتحنا الشباك لأشعة الشمس والأنسام الخفيفة . ابتسم لي كمنجم قرأ غيباً . « ما الذي يضيق به صدرك ؟ » وقلت : « أبو خالد . » وأنصت إلى حكاية السلاح والتدريب باهتمام. عندما انتهيت سأل : « وماذا يهمك أنت ؟ » قلت : « شيء غريب : الحديث معه لا يجدي . وأنا صرت أشعر في هذه الأيام .. وكذلك هو .. بأن لاعلاقة لي به البتة .. لاعلاقة مطلقاً . كم تتغير الأحوال والأشياء ! » وعقب هـــو : « أبوخالد وحبيب..لن يصلا إلى شيء. لن يصلا إلى مرحلة تكوين المعاني . أخي أسيان ، لا يهمك . لا يهمك أبداً . » وعلى غير توقع انطلق يقول : « نحن نمر في بقعة صغيرة جداً من الزمن .. مضيئة .. نمر مروراً عابراً . وان ما هو أقسى من الموت أن لا نعرف الحياة . ما قرأته عني في الجريدة منذ شهرين ونصف .. خبر محاولة الانتحار .. صحيح ... كان يوماً فظيعاً .. تسعون بالمائة ممن يتحدثون في الانتحار مدّعون يا أخي أسيان .. لا أحد يتنازل عن حياته .. ولو أدى انتحاره

إلى توكيد جميع معانيه وقيمه . ولماذا نموت ؟ سوف أتفرج على هذا العالم حتى تظلم بقعتي المضيئة . » قلت له : « لنفهم أبا خالد قليلاً . هو يعتقد أنه يتم نسيجاً سابقاً ؛ أو يحيي شخصية العربي كما تصورها وصقلها محمد . أنا فقط أخاف عليه . لست ضده .. » وقاطعني رافعاً يديه أمامي ، عاقداً حاجبيه : « يعجبني محمد.. ولكن ليس أبو خالد . نحن أحفاد محمد وليس أبو خالد . » وأقول : « لا . مجد . ظلمت الرجل.. » ويؤكد هو ضاحكاً بلا صوت : « أسيان . والله ما ظلمته . » قلت : « ولكنه يسعى وراء قيم ويقينات . » فيجيب : « جميع القيم واليقينات .. الشجاعة والبطولة والكرم .. والحضارة ، هي أن تعيش مع أحبائك ومعارفك في العمل . بغير خيبات . ما عدا ذلك جميع القيم واليقينات بورجوازية . شيء ما في الطبيعة البشرية يجب أن يتحدى ويكسر عوده . ان السبب في جميع مآسي العالم هو بطريقة ما عجز اثنين عن أن يتفقا اتفاقاً تاماً . وهكذا يولد في الشعور يقين بأن الإنسان ليس في ضمير أحد ، وحيد أمام الناس والزمن . لهذا أؤمن بالوحدة .. العربية والشخصية . هل أجمل من ارتماء البشر في ضمير بعضهم بعضاً ؟ بعد انفصال آدم عن الله وطرده من فردوس الرضى الابدي صار كل شيء عدواً له . خاصة قصوره الذاتي . بقي لنا أن نبحث مجدداً عن الله ، عن الكمال والوحدة . لست أدري ، أخي أسيان .. هل تعتقد أن متعبد

غارِ حراء قد غير طبيعة البشر ؟

في نهاية الأسبوع الأخير من الشهر اعتقل أبو خالد . في الساعات الأخيرة من الليل استيقظنا على رنين الجرس المتواصل . وإذا فتحنا الباب هجم بغير كلام ثلة رجال أشداء. توجهوا إلى غرفته ، وكان يضع رجليه في المشاة . لم يقاوم . تأملهم قليلاً برهبة ساكنة . ثم عبر وجهه حبور حقيقي . سار معهم نشيطاً عالي الرأس معافى ، كأنه ذاهب يحضر طقوس تكريسه قديساً .

ويغمغم مسعود مخاطباً نفسه ، مستغرباً : — عجيب ! كأنه على موعد معهم ! ويلتفت إلي بازدراء . ويغلق على نفسه باب غرفته .

الفصل السادس

ـ ١ ـ

وهكذا غادر القبو ثلث ساكنيه . بقيت غرفة أبي خالد مظلمة . وبعد بضعة أيام صارت عيناي تريانها في صورة مختلفة : جزء من قبو غائر في الأرض أثارت دكنته في النفس حزناً عمّقه الماضي . كأنها استحالت إلى مشهد يتذكر أكثر مما يرى . وفي أغلب الأحيان زرتها أو عبرت بها وحيداً . دخلت اليها في النهار أو الليل : تأملتها . استرخيت على احدى كنباتها محدّقاً أو مغمضاً .

لم ألتق بمسعود إلا بصعوبة — بصعوبة لأن علاقتنا بلغت حداً من النحول فرض عليها ذلك . آثرنا الافتراق ، ليس لرغبة منا في الحفاظ على شيء ؛ ولكن لعزوف كل منا عن تلقي مزيد من الحزن والحرج . رأيت في ادانته لي ثقلاً وافياً ؛ وفي خيبته ثقلاً أوفى . ولأنه استسلم للانفعال والمحاكمة الزمني بالصمت : فلا دفاع عن النفس ولا سعي للصفح بعد أن وضع كل منا شروطاً للقبول بالآخر .

صار القبو شبه مهجور . بغير ضوضاء ولا حركة . رفاق أبي خالد تلاشوا ، وكذلك بطحات مسعود ونساؤه . لم يبق شيء تقريباً . بالنسبة لي لا يزورني أحد — اعتدت أن أزور مجداً وشجن في بيتهما . وأما مسعود فاستغرقته الحياة العسكرية فجأة ، وندر مجيئه إلى غرفته . لم يبق إلا الصمت .

لم يأتنا عن أبي خالد خبر ، كان في السجن ، ولا شيء غير ذلك . بعد أن رتبت غرفته بدت كأنها تستعد لاستقبال زائر جديد . شيء واحد فقط أشار إلى ساكنها القديم هو المسبحة . على الطاولة الصغيرة تمددت بحباتها السود المنقطة بالأبيض ، بينما تدلت قنزعتها في الفراغ . قيل إن أحد الحجاج قد جلبها من مكة المكرمة خصيصاً له . وقيل إن ميغيت أحبته لشيئين : شارباه وهذه المسبحة . كانت من نوع نادر وثمين ، وتليق بحمله لها . في أيام الاستعدادات للانقلاب لم يتركها قط . وعندما وقف خطيباً في بيوت أصدقائه ، شاهدها المجتمعون تتأرجح حول ذراعه. انها الآن في منتصف الغرفة الراقدة ولا تعلم شيئاً .

خيم الهدوء على القبو ، تغلغل فيه . هدوء أيام مغلقة . أبواب تفتح ثم تدور عائدة إلى اطاراتها . وساكنان يأتيان في أوقات متباعدة إلى الغرفة ، بعد قليل يغادرانها كأن شيئاً لم يحدث . لم تلتق خيوط العنكبوت بعد غياب أبي خالد ، حتى بطريق الصدفة : اعتاد مسعود أن ينام خلال النهار ، واعتدت

أن أنام باكراً . وبقيت أدوات المطبخ على حالها . كل شيء بقي كما هو . سريرانا لم يرتبا بعد ذلك . القبو لم ينظف وظلت غرفة الحمام باردة إذ صرنا نستحم في مكان آخر .

بقي لنا الصمت ، ذلك الأفق الشفيف الشاحب من السكون واليقظة . الريح الشتوية جعلته أشد اناخة ، والسحب التي لا تمطر . بعد كل شيء يبقى الضجيج أخف وقعاً من موت لا يكتمل : عند ما تعبر بالمارة الأيام ويعبرون ، ويحسون أن الطبيعة تطارد أقدامهم . وفي الليل وسكون المدينة يصير الناس الذين يتحركون من بعيد حداً أدنى من الوجود الضروري. لم أعد حتى متفرجاً . وبشري الذين أحببت تركوا حكم محكمة وبطاقة رحيل . لو كان مسعود أقل كرماً لغدت حياتنا المشتركة ممكنة ورائعة . وربما تمكن من أن يكتب قصصاً قصيرة : جيدة ومتماسكة . ولكن كلاً منا — يقول مجد — ملقى به بين أنياب ذاته .

عند مجد يتشرنق العالم السري الخصب الذي غطاه ماركس وشحّره فرويد بالمواد . تود ديدان الطفولة والارث الهرم أن تصير إلى فراشات ، والزمن المسرع يسوطها . وتظل شجن بهدوئها الغامض المريح ، وقد غدت حياتها ذات قيمة . في عينيها صور للحياة الثابتة المخيفة التي تحفرها بالصمت الدؤوب .

في الطريق إلى بيتهما تلجم أحاسيس وتغور أخرى .

ماذا بقي لي من هذا الذي سرقته امرأة وخبأه بيت ؟ هل انسل من الحياة الجميلة التي جمعتنا معاً فيما مضى ؟ أم لعل قلب الانسان متسع لأكثر من حياة واحدة يعيشها . من يدري . وجهه القديم لم يعد يتكلم . وبيته الذي احتواه مختلف عن القبو . وكل مساء اخرج من القبو هارباً إلى الأرصفة ، مفكراً بمجد كملاذ أخير . على الرصيف كل شيء له طقوسه الصلبـــة التي لا تخرق . للمشي طقوس : وللتحية . للقاء حبيبين أو غريبين . لعبور امرأة وعبور طفل . وفي الحيرة أمام الجدران تنسل السنوات البهية ، وتنتهي . كل شيء مغلق إلا الحياة نفسها ، الثقب الذي ينفذ منه الانسان قطرة قطرة .

أمر بين المارين وأحيي . أستطيع أن أقرأ جريدة ومجلة وكتاباً . أهتم بالثقافة ، والسياسة ، والصواريخ عابرة القارات . أناقش بعصبية شكل الجماجم البشرية في الجامعة . ودائماً تسير بي رغبة القيام بأعمال كثيرة . ثم أفر من كل ذلك إلى مكان لا يناله الضجيج والضياع : بيت مجد . هناك أحسني بمنجاة من دوران لا يتوقف حول تخم مجهول . أنا الذي تأمل صور الشيوخ والأثرياء في الصحف والمجلات ، وهم يتابعون نشاطهم : لماذا لا يترك هؤلاء ذهبهم ويهاجرون في العالم ، يعملون في الحقول مع الشمس والريح والمطر ؟ كم يعوض لهم عن التراب ؟ ويخطر لي أن عباءة الشيخوخة قد

لفلفتهم . صار اللعب بالنسبة لهم عالماً مزدرى ، والهجرة في العوالم الخفية جمرة خامدة . هم محض كتلة عضوية اخفقت رغباتها وانهد حيلها ، وباتت تنتظر الموت بلا مقاومة .

هؤلاء ، هذا الانتهاء ، دفعونا ، دفعوا أبا خالد إلى حمل السلاح . قلت له مرة بعد أن حاصرني بالتهم والكلام : أنا اشتراكي بالمعنى الاشتقاقي للكلمة . مسعود طوّف وراء ساحرة ، وأحب الناس كما يحب الفلاّح أرضه وبئرها . بوران أحبت الطلاق . أما أنا .. لست أدري . ثمة كثير من الصلات والتعلقات .. لكن جندباً يسكنني لا يستقر على أرض ويخشى الاقامة والأمد الطويل . في المال يغدو كل ما أعرفه غريباً ، لا يملك ولا يملك .

يهتف مجد بلامبالاة وهو يفتح لمزيد من المازوت طريقاً نحو المدفأة : « موظف وتكون مبدعاً ؟ أخي أسيان ، لن نخدع أنفسنا أليس كذلك ؟ المبدعون لا يكسبون شيئاً من الحياة الخارجية . في الداخل ، ههنا ، كل ثروتهم . عليهم أن ينزووا ، بمعنى ما ، وإلا فان ممسحة سوف تمسح وجوههم . عليك أن تجوع مئة مرة قبل أن تبدع . وأنت تعرف أي جوع . »

ثم تطل شجن بهدوئها المريح . في عينيها جداول تجري ، تسقي عالمها الذي لم يعرفه سليمان : ضفائر طفلة بريئة ، وضحكة طفل شبع . كلاهما – وشجن أيضاً – يحس بأهميته . عندما يتغير العالم أمام أعينهم يفاجأون . هل تجز الضفائر .

وهي جدول أنوثة ؟ وهل يجوع الأطفال وهم الأبرياء ؟ الثبات هو الطمأنينة . المغامرة هي التبدد .. وكثير من هذه المعادلات .

عندها يبتسم مجد لزوجته . عندما عادت لبنى فوجئت بها وحزنت : لقد قصت شعرها الطويل ورفعت الباقي كقمع صغير وراء هامتها ؛ وشجن لا تحب ذلك . شيء ما لعله شبهها بسزي وقتذاك دفعني إلى مشاكستها : « وماذا يهم ؟ بقي من الشعر ما يملأ اليدين . » ولأنهـا لا تغضب ولا تماحك ، إبتسمت : « هذه أول مرة أسمع برجل يحب الشعر القصير . » ويهتم مجد فيهتف مداعباً : « أسيان ، صحيح أنك تحب الشعر القصير ؟ » وأجيب متباهياً : « ليس للحجم علاقة . المهم اللون . والأهم الملمس . الملمس ناعم يدغدغ اليد . ماذا تريد غير ذلك ؟ »

وضايق لبنى فرجي بشعرها القصير ..

لقد عادت الآن . وعن بلاد الصقيع والإنسان الجديد جلست تحكي لنا حكايا ومشاهدات . هناك تقص النساء شعورهن . يخرجن الى شوارع المدينة ومجالسها وأعمالها . يلتقين برفاق علمت فيما بعد انهم غالباً أزواج . هناك تجلس إمرأة مثل لبنى ورجل . بينهما أشياء صغيرة لا توجد لدى أي منهما مع الآخرين . بعد العمل وتلبية الحاجات اليومية يلتقيان : صمت مطمئن ، حديث من القلب يخرج للحظته . جولة نشيطة في الشوارع ، نقاش حاد مرح . كل شيء

ملكهما ـ كفاف من الخبز وميدان واسع فسيح ـ أسمه المدينة . كل شيء .

زوجها أراها كل ذلك . كان رائعاً لولا أنه ضربها في نهاية الأسبوع الأول . سألتها كيف حال السلطان ، فروت لنا ما حدث بنصف هستريا وأنصاف كلمات . وتناولت سيجارة فأشعلتها ، وجعلت تمتص دخانها .

إنصرفنا للتخفيف من ذلك الشعور الحاد الذي أيقظه ذلها . بعد حين هتف مجد : « نخب سلطانك يا عزيزتي » ، وجرع بعض قهوته . قالت شجن : « لا يهمك . أنت هنا الآن . معك حريتك الكاملة . »

فرحت ، والتفت الى شجن بامتنان . فتحت النافذة برغم البرد وتنفست هواء طرياً . سمعت مجداً يقرأ للبنى آخر قصيدة من ديوانه . التفت اليهما . قلت : « هكذا أيها العجوز . متى ستطبعه ؟ » وأجاب : « لا يهم كثيراً . أخيراً إنتهى ، وهذا يكفي . »

نهضت لبنى وتهيأت للإنصراف . قلت : هل نزورك في بيتك ؟ فضحكت : « واحضر معك مراسلا من وكالة أنباء . قد يبقى واحد في دمشق جاهلا بالزيارة . » وبغير مبرر أحسست أن لكلامها وقعاً سيئاً . أقبلت إلي كبجعة بيضاء وقالت : « نلتقي هنا . هل يزعجك أن نلتقي هنا »؟ زمجرت ولم أجب . ابتسمنا معاً ، ومرة أخرى ذكرت

ابنتيها المنتظرتين . عند الباب قبلتها ، ثم انسلت متخفية .

بعد ذلك سئمت البقاء وحيداً في بيت مجد . لبست معطفي ونزلت الدرج . وعند الحديقة رأيتني مستغرقاً في تصور المستقبل على طريقة أبي خالد ؛ وهذه الهموم الجميلة الدائمة .

شع البدر جليلاً هادئاً على أوراق الأشجار الخافقة . وحوّم نسيم قوي ؛ عبرني واستقر في زاويتي شارع مغلق . هنا وهناك تحرك عدد من المارة، وكل يلفلف عالمه الشخصي في ثيابه ويمضي. من بين الأوراق سقطت علي بعض قطرات من مطر سابق . أمسكت بجذع شجرة وهززته حتى ارتمت على وجهي قطرة . وفي القبو جلست إلى جانب المدفأة ؛ ونظرت إلى بقعة السماء الصغيرة وراء النافذة بعينين باهتتين. لو يجيء مسعود . وتتالى وقع أقدام عرفت أنها غريبة . أحدها توقف وراء السور وكان مألوفاً . هنيهة وتابع تحركه. قفزت عن الكرسي إلى باب القبو . فتحته ؛ ولم ألتق بشيء. بين الدرجة العليا والرصيف لمع الانخفاض الصغير في سوية الأرض مليئاً بماء هادىء رنق .

عدت أدراجي إلى القبو ووقفت في منتصف الغرفة . رأيت السرير واسعاً، يكفي لاثنين. ورأيت لبنى ترتاح عليه.

... من بعيد تبدو ، إنها في منتصف الطريق الواسع

الواصل إلينا . قامتها تنتصب في الهواء، وقدماها تدقان الأرض. يداها تمسك بالكراسات وتشدها إلى صدرها . وهواء الغسق يجوب فضاء الشارع الأعمى على غير هدى . أثناء النهار وفي الليل، عندما أفشل على نحو مألوف في الانسحاب من العلاقات اليومية ، تتحول الحياة إلى صور . أنسى وينسى من معي أن لكل دقيقة جرحاً . شيء من الصخب والمماحكة ، وشيء من ثرثرة ومشي وتسليات . ثم تبدو هي من بعيد ، حلماً قديماً على الطريق الواصل إلينا . قامتها تنتصب في الهواء . تشد كراساتها إلى صدرها ، فتندرج الصور الماضية في ألبوم عتيق مسلوخة عن جسد الحياة الحي . ثم تجمعنا الغرفة بين جدرانها الدافئة .

تقول شجن بتقدير حقيقي : « لم أكن أعرف مقدار ايمان مجد بالحرية حتى رأيت موقفه منكما . لبنى أخته على أية حال . في بلادنا لا يكون الناس أحراراً إلى هذه الدرجه . »

في أحد باصات النقل الداخلي نجلس نحن الأربعة عائدين من دار للسينما . عينا لبنى تختلسان النظر إلى الجالسين بحذر وخوف. أسألها لمَ الخوف . ويلتفت مجد إليها . لا تجيب . تبتسم بضيق وقد أحرجها اهتمامنا الشجاع وطمأنتها . بعد التفاتتين تتفحص بهما وجوه الركاب ، تنبر : « يا جماعة ما هذه المدينة ؟ أليس فيها محل للجلوس ؟ كله داخل جدران ؟

في البيت ، في الجامعة . في بيتكم . في الباص والسينما . يعني والله شيء يصرع . في الشارع يرونك : يا سلام ! انظروا لبنى مع من . أنت معي لكن عيونهم تضرب بأسيان » .

يهز مجد رأسه موافقاً . وتنصحنا شجن بالاختفاء من الأماكن العامة : « بيتنا مريح لكما . ونحن نرتاح أيضاً . لأننا نهملكما . »

تصمت هي . وفي بيت مجد ينشط سخطها من جديد : « أنا لا أحب السرقة . في الغرب يجرب الناس كل شيء لأنهم أحرار . أما هنا فألبسنا أعناقنا ألف جنزير . يا أختي ليست التقاليد فقط .. اليوم بطوله سجن .. الساعات .. الحياة اليومية .. لن أبقى داخل أي جدار » .

وعند آخر المساء نخرج معاً من البيت . ننزل وقد أسكتنا حوار صامت . نظرة خاطفة تسأل ، وأقف على دورة الدرج . تقف هي أيضاً وتطيل نظرتها .

– بودك أن تقول شيئاً ؟

– الأحاديث الجدية تربكني . أجل . تكون الحياة متدفقة وعذبة ، فنقطعها لنحدد لها هدفاً . علاقتنا كبرت عن مجرد علاقة عابرة . وأنا سأنظم حياتي على أساس أنك ستدخلينها . زوجك سيعود بعد فترة .. إذا أردنا الاستمرار .. ستكون حياتنا الحالية مهددة بوجوده ، ليس فقط من ناحية تشدده

عليك ، وانما من ناحية قيمة علاقتنا . وبعد كل هذه المحاضرة أسألك أن تطلقيه وتتزوجيني . كنا اليوم مثل زوجين في الباص ، أليس كذلك ؟.

وبنوع من الشيطنة المتهربة رفعت رأسها ونبرت : — وإذا تزوجنا ؟

— سوف تطبخين جيداً ، وتكونين سيدتي .

— وأنت ماذا ستفعل ؟

— أنا سوف أغني !

— يا سلام على الصوت العذب . وإذا غنيت أنا ؟

— طبخت أنا .

لقد استفسرت دميانة عني . وبدت منفعلة . لم تخف لبنى شيئاً ، ولم تتكلم . أثارها الحاح أختها ، ونبرت : « سوف نتزوج . طلب مني أن أطلق ونتزوج . » وحملت دميانة جزدانها بصمت وغادرت البيت . وبقيت هي وحدها . تأملت من النافذة أختها فإنها تخب على الرصيف بقوامها المتسق الضامر غير ملتفتة إلى شيء . ثم انتقلت عيناها إلى الأطفال اللاعبين ملء الشارع : أصوات مفرقعات صاخبة ، وصواريخ نارية زاهية كالأحلام . ضجة مزعجة ، وشجار وصراخ .

تحولت تذرع البيت حركة وتوقفا . تأملت محتوياته بامعان . بيت حامل بالأشياء النفيسة ، وهي منها . أمسكت بستائر غرفة النوم . تقلّبها بين أصابعها ، حتى ضاقت عيناها

بكثرة الخطوط . وفوت إلى الصالون . سبعة أمتار بخمسة ، مساحة مريحة وعتم خفيف . هناك رأت الخادم الصغيرة تمسح الأرض مكبة فوقها : ظهرها على مستوى الأفق . يداها ماثلتان على الأرض ومعورها نصف ممزق .

ربما كدرها المشهد . هي التي تعرفت في الزمان الأول بالجوع والعري والانحناء أو ذكرها المعور الممزوق بأشياء كثيرة ممزقة . أسرعت بالخروج كأنها تمسح عن وجهها غلالات خفية كريهة الرائحة . عادت إلى حيث جلست قبل قليل مع دميانة ؛ واسترخت على كرسي الخيزران محلقة إلى بقعة غير مرئية من الأرض .

منذ البداية وقع خطأ . وتتالت الأيام فغطته كحبات رمل ، كسلطان عثماني . الآن يستيقظ كل شيء : الخطأ والجرح والألم ، وشباب مطاسم . بماذا فكرت عندئذ ، وأي الهواجس عبر بها فأقعدها وأقامها ؟ هي الزوجة الأم والحقل المزروع بالذكريات . تصوروها ضمن الجدران كما أحبت أن تتصور نفسها : حتى ساعة تمشي على الرصيف : قامة تنتصب بجلال كأنها أمة كاملة ، خاطرا أسيان تزدحم فيه سلاسل الذكريات ، جسداً كالأرض مقسماً إلى مزارع وتلوثه الليالي وزر البندورة . واحلموا بأنها ستهرب إلى زمن آخر في مكان آخر وتكون ما تود أن تكون : عروسة ترتدي ثوباً أبيض وتزف نفسها إلى عريسها . سوف تعبر فوق

حجارة النار ولن تمسها الألسن الزاحفة . ستهب كالعاصفة وتقلع الجدران وترسل ابنتيها إلى أعماق العالم لئلا تتدليا من ذراع أحد .. كيف تستعبدنا الحياة وقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً .

مسعود هو من نبّه إلى أفكار الشيطان التي تهيج في رأسها . لعله قرأها في قصتها « عندما ينحب السكون » ، ثم حوصر في مدينة الرجال ، هو الباحث عن ساحرة ، ورأى كيف يجتاح عشرة آلاف مدينة بؤبؤ محملق إلى بقعة غير مرئية من الأرض . لقد نحتها تمثال كلمات ورؤية للعاشق . ومن يدري في أي نوع من الصور قبض عليها وامتلكها : لمحها مرة فاستيقظ الشرق العريق وشخصها في رأسه .

كلنا باحث عن أسطورة . لو خلق الانسان عادياً لما أكل من التفاحة . وهو ما يزال يدفع فدية ضلعه الأسير . مرة أخرى تقول شجن : « لا يهمك .. معك حريتك الكاملة . » وعندها ينقر حبيب باصبعه على ذراع الكنبة محولاً نظرته بصمت ساخر . وترد لبنى : « لن أبالي بشيء .. كيف الطقس اليوم ؟ انظروا إلى هؤلاء الشياطين . » تبتسم شجن : « يحتفلون بالعيد . » وتعلق لبنى : « لماذا لا يحتفلون إلا بالرصاص والمتفجرات ؟ »

يرد حبيب وقد وافته الفرصة الملائمة : — لأننا في الشرق لا نعرف الحرية . نحن عبيد حاجات لعجز عن اشباعها إلا

بالارهاب والعنف والحرام .. لكثرة ما نحن طوباويون ..
لذلك يلتهب الخيال وتنشط الروحانيات .. « وعشق الروح مالوش آخر : لكن عشق الجسد فاني » .. يخيل إلي أننا نغذي في نفوسنا نوعاً عجيباً من المازوشية ، فحياتنا كلها تصعيد وجرائم .

نقبع نحن الخمسة في الغرفة الموصدة الباب . الريح في الخارج تسوط الجدران الصماء . والمدفأة كالعادة تغرغر بنارها الأنيسة وأحياناً تخفق وتختنق . ثمة كلام تود هي أيضاً أن تعلنه ، لكنه بقي في الداخل . ويدلف فوقنا الصمت . سوى أن كلا منا ، كالريح وكالمدفأة ، اسمع الآخرين كلاماً غير مفهوم ، بحرارة وغير حرارة .

يقول مجد : « إنك تفد إلى هذا العالم فتجد كل شيء معداً سلفاً – الأسرة والبيت والأصدقاء والزواج والأطعمة والملابس والوطن والأخلاق .. وعليك أن تنسكب في هذه القوالب التي سبقتك فحكمتك من غير أن تملك القدرة على تغيير أي شيء » .

وفي شارع من شوارع المدينة يلتقي حبيب بمسعود ، فيأخذه جمال التحدث اليه . ويقدم له مسعود قصة قصيرة كتبها في الليل الفائت ، ولم يضع لها عنواناً بعد .

– زمن القصة ثلث ساعة فقط : الوقت الكافي لخروج المتفرجين من صالة السينما في ليلة العيد .

ينشدّ وجهه وينظر إلى مسعود طالباً تفسيراً : كيف حدث ذلك . ويقول مسعود بامتلاء : « عندما وصلت اللعينة إلى مدخل السينما لم يكن قد بقي عليها شيء من الثياب . » ويضحك حبيب مهسهساً . ويعلق مسعود : « الحرام . أخي ، الناس يستطيبون الحرام . كان جسمها الفتي أحمر أزرق من القرص واللكز . . نبهوها قبل أن تدخل . . الدنيا عيد وزحمة ، ومنذ شهر والناس صائمة . لكن غرور المراهقة ركبها . . لا أدري ماذا يقول العلم عنها . أرادت أن تتحدى الرجال في بلدهم ؟ أما هم فقضية واضحة ، سأكتب قصة عن حافز الحرام عند رجال بلادنا » .

يغتنم حبيب الفرصة وقد جاء دوره الآن . يبدأ كلامه ببساطة محاولاً أن يفهم مسعوداً أفكاره : « هل لاحظت مثلي كيف يفكر الغربيون بالجسد وكيف نفكر نحن به ؟ » ويرد مسعود باستقلاليته : « لاحظت فقط كيف نفكر نحن. » ويتابع حبيب كأن رفيقه لم يقل شيئاً : « منذ القديم أقام اليونان التماثيل العارية لآلهتهم ، ذكوراً وأناثاً . أما عبدة الآلهة في الشرق فألبسوها ثياباً . بعد ظهور المسيحية صوّر الغربيون المسيح عارياً إلا من الرداء حول الوسط . أما نحن فمنعنا عنّا الرسم لخوفنا من تخديش روحانيتنا ومثلنا العليا . انك لا تجد صوراً لأحد — إلا الصور الشعبية في عصر الانحطاط للامام علي وولديه ، وعنترة ، والزير سالم ، وكلهم بثياب كثيفة .

حضارة الغرب حضارة عري . أما نحـــن فحضارة أسرار وغياهب .. الحشمة . لذلك هم يعرفون كل شيء لأنهم يعرونه ، ونحن نجهل كل شيء لأننا نلبسه ثياباً . نحن لدينا المثل العليا والتحريمات والأخلاق .. لكن الغربيين لا يفعلون ما فعل رجالنا في سينما الأهرام لأنهم يملكون . هل تفهم ما أعني الجسد ملكهم . ليست عندهم هموم لحمية . ما أريد الوصول اليه هو أن الغربيين أساؤوا تنظيم مجتمعهم .. خربوه بالحرية الاقتصادية .. وأفضل ما وصل اليه الغرب حتى الآن هو الماركسية . هل أنت معي ؟ الماركسية تعري حضارة الغرب التي هي حضارة عري وتحتفظ بقممها .. » .

في الوقت المناسب يوقف حديثه تأدباً . يلمح على شفتي مسعود رغبة بالكلام فينظر اليه بانصات كريم . ويفاجئه مسعود بموقف سلبي : « أنا لا أحب الماركسية . » ويرد هو : « كيف ؟ انها العقيدة الوحيدة لطرد التوهمات المثالية . فرويد يقول هذا .. » ويعلن مسعود : « أحب فرويد . لكن لا أحب ماركس . » ويرى حبيب إله تعنته ، فيحس مثلما أحس دائماً بغربته وبعجز الآخرين عن فهم أفكاره ، تماماً كما يقول سارتر . يغمغم لرفيقه وقد آثر الايجاز : « جدياً ، دع المزح جانباً . السؤال الذي أطرحه هو : كيف نجمع بين ماركس وفرويد ؟ أنا ماركسي فرويدي . » .

ويتركه مسعود منطلقاً وراء فتاة غامضة الملامح . يغيب

الاثنان في مفارق المدينة ، ولا يعرف أحد عنهما شيئاً . وسرعان ما يضمحل كل منهما في تصور الآخر حتى يتلاشى : مسعود بلا أمل ، وحبيب بألم عميق كلذته .

على الرصيف المألوف يسير مسعود متوانياً : يفكر بأبيه وأمه ويتعبأ الفتاة بعينيه . الشارع حوله سديم تحركات خافتة الصوت . لعلها الفتاة التي رآها في مظاهرات الاحتفال بعيد الوحدة . لعلها المرأة التي رآها من قبل في معرض للرسم الشعبي . لعلها الفتاة المسرعة في اجتياز شارع عريض ، وقد راقته يومذاك ارتعاشتها فوق كندرتها عالية الكعب . أو هي المرأة التي رآها وهي تنشر الغسيل على أشرطة الشرفة ذات ضحى فوقف يتأمل ابطيها وقوامها المكنون وهي لا تراه .. لعلها موكب من الذكريات والصور القديمة الجميلة تجمعت الآن في ثوب وولجت شارعاً .

غامضة على أية حال ، وهو لا يعرف عنها شيئاً .

أعياه تذكرها ، ولم يستطع . حتى إذا ما دلفت بحركة مفاجئة من باب بيت طيني وغابت وراءه ، تقلص ما انتفخ في عينيه من صور . أشياء صغيرة من نوع عدم الاقرار بالخيبة جعلته يتابع المسير . أخرج سيجارة وأشعلها ، وهز عود الكبريت ثلاث مرات قبل أن ينطفيء . من فمه ومنخريه خرج جدولا دخان وتبددا أمام وجهه. عند شرفة متدنية استقرت عيناه على وجه وراء زجاج باب . التقت الأعين فارتد الوجه

البض إلى الخلف كأن يداً غريبة لامسته . وهمهم مسعود ساخراً من نفسه ساهماً . ثم وضع السيجارة بين شفتيه .

فرح للشارع العريض عندما انتهى اليه ، واندس بين حشد المارة المبعثر . أحس بحاجز لطيف أوقف سيحانه على سطح سوي من الرمل . وارتدت اليه موجة مألوفة العنف إذ عبرت ازاءه فتاة تشبه من سبقها وغابت بين الآخرين . لقد عرف حتى الآن كيف تنجلي حاجته للمرأة عن عروق لا ترويها دماء فخذين مليئين .

وتابع سيره .

بعد أسبوع نلتقي بقصته في مجلة . هي وحدها أطلعتنا على ما شب في ذهنه تلك الأيام . رأيتها أفضل ما كتب بعنوانها القصير المعبر : « الحرام » ، ولعلها من أفضل ما قرأت .

تقرأ ليلى القصة فتنتابها حيوية غريبة . تقول بتفلسف مفاجىء : « لا تزال الثورة في العالم حلماً لم يتحقق . » ثم ترمي بالمجلة على الكنبة وتهتف : « لماذا أغفلت القصة مشاعر الفتاة ؟ أيحسب مسعود أن الرجال وحدهم يحلمون بالحرام ؟ مقابل سادية الرجل يجب أن يضع مازوشية المرأة . »

لتكاد تنكرها في لحظات كهذه . طفلة دائمة التساؤل مشدودة بالتعجب إلى كل شيء ، تتكلم فجأة كحكماء فارس . وأصمت محدقاً إليها ، وجلا على نحو ما من خيالها

الشيطاني . ها هي تدمر العالم بكلماتها وتجتاحه كالسيل . يصغي إليها مجد بتقدير صامت لمغارة السخط التي أزيحت الصخرة عن بابها . يقول : « ظننت أنك امرأة بالمعنى الشرقي . أنت تفاجئيني يا عزيزتي بثورتك . » وترد هي بلا انفعال : « من قال لك أني لست هكذا ؟ لكنني أكرهه . » وتومىء على وجهها ابتسامة منسحبة : هي أيضاً فوجئت ، لكن كلماته ردتها إلى صواب حياتها اليومية فصمتت عما شاهدته من نفسها . وتقول : أسيان أريد كاتو » .

يحضر أسيان الكاتو . تلتهم هي قطعتين . تعافه نفس مجد . وتبتسم شجن ...

... تحت شجر نصف عاري الأغصان في الغوطة الشرقية يجلس مجد ممسكاً بكتاب وإلى جانبه بارودة صيد . أسأل : « لِمَ لم تحضر شجن ؟ » ويجيب مستغرقاً في قراءته : « الجو بارد ، لا تستطيع أن تتحمل البرد . » أتمدد على البساط قرب لبنى عائداً إلى القراءة أنا الآخر . ونصمت من جديد .

فجأة يلوح بين الأغصان عصفور ويختفي . ويلوح ثانية فيلتقط مجد بارودته ويتسلل اليه . يوغل في تقدمه فيبتعد ، والعصفور يطير من شجرة إلى أخرى . يوحش وجه لبنى قليلاً ، وتزداد استغراقاً في قراءتها : نحن وحدنا ، والأرض المنبسطة المسقوفة بالشجر صامتة صمتاً شاسعاً . رأيتها جميلة داخل ثوبها الواسع : وجهها ناعم وعيناها وحشيتان ، وقوامها

المتكىء إلى شجرة حور شجرة حور أخرى .

نظرت إليها وقلت : لماذا تملؤك هذه الدنيا بالمرارة ؟

بقي وجهها مطرقاً وعيناها مثبتتان على الكتاب . قالت : وماذا فيها غير المرارة ؟

قلت : — عندما نتزوج ، ونستمر لا ننتظر الصدفة أن تأتينا بجديد ولا تلفنا الأوقات الخرساء .. وتمتلىء أوقاتنا بالعمل والتواصل .. أنا أعمل وأنت تعملين .. في البيت تكتبين وأقرأ .. خارج البيت نعلّم .. نشارك في كل شيء .. ونحب كل شيء .. نعيش علاقات جديدة .. نتعرف بوطننا ونكون مواطنين جيدين .. أليست هذه هي الثورة التي تتحدثين عنها ؟

قالت : — لماذا لا تتزوج بنتاً عذراء ، صغيرة السن .

قلت : — حالها حال. جربت هذه المحاولة . وجدت بيننا مسافة كبيرة .

قالت : — والمسافة بيننا ...

ولم تكمل : قلت مازحاً وجلا : — هلمي بنا إلى التجربة . لماذا نتحدث عن شيء لم نجربه . نحن لسنا وحيدين في هذا الوطن . هناك أشياء كثيرة تتحرك تحت السطح . هناك من يحاول أن يصنع حكم القانون ويطبق الاشتراكية . وأمثالنا يحاولون صنع حكم العلاقات الانسانية . نحن نكمل هؤلاء .

وجميعنا نفعل شيئاً . أنا أحن إلى أيام الصحابة والحواريين . الذين رأوا العالم رؤية جديدة .

رفعت رأسها وقالت : — وما علاقتهم بالاشتراكية ؟

قلت : — خلقوا علاقات جديدة بين الناس وكانوا أحراراً . ونحن كلما ازددنا التصاقاً ازددنا حرية . علاقتنا كما هي الآن لا تصنع شيئاً . طالما أن بيننا حائطاً هو زوجك . يا الهي كم أن زوجك رمز ضخم .. لتاريخ ألف عام .

قالت : — أنا خائفة منك .

قلت : — يا سلام ! كيف ؟

قالت : — لك أفكار قديسين لكن طباعك شيطانية .. سريع الانفعال .. عصبي جداً جداً .

قلت : مدافعاً : « هذا عندما أرى وقتي ضائعاً . لأني أخاف أن يضيع الوقت ونحن نحاول أن نلتقي ونكوّن شيئاً . لكن العالم لذيذ ورائع . والحياة رائعة . عندما نشترك فيها سنفهم متى تتحكم بنا صفاتنا النفسية الشيطانية » .

وتقول هي بعد صمت : — لنعد إلى البيت .

يقبل مجد من بعيد . يصل فيمدد بارودته فوق الأرض ، ويخرج من جيبه عصفورين . يقول : « يا اخوان : في الغابات روح عجيب . سأموت في الغابات يوماً ما . بدائية ورائحة وهواء .. لا أعني الطبيعة بل البدائية . لم يحب قلبي الغوطة .

رأيتها مصنّعة . لذلك انصحكما بالبدائية . كآبناء لي عميقي الصلة بأبيكم الشيخ. كان الناس في تلك الأيام يعيشون بمشاركة مطلقة وحرية مطلقة . بالطبع يمكنكم الاستفادة من حسنات الحضارة : السيدات أولاً . الترانزيستور . والصراع الطبقي. لكن حافظوا على البدائية .

— ٢ —

الآن يعبر كل شيء في الخيال . عينا مجد الكبيرتان . كلمات حبيب عن أخلاقنا ذات المئة وجه . الانفجارات السرية لمخيلة تزني بلا توقف . بحث مسعود المتعب عن ساحرة خبأتها الجدران . واطوار لبنى الغريبة المتناقضة . نحن المهددين بألا نرث لأننا لم نعد ودعاء . فرقتنا الحوادث وجمعتنا علامة . ومخضنا من ظلال أنفسنا الطوال حبات الرمل العربية ، وواحات السراب اللامع على سمت الصحراء .

أطل الربيع علينا باكراً ذلك العام . لم يسقط المطر إلا قليلاً ، واختلت الشمس بالطبيعة قبل الأوان . وكل يوم . عندما تبدأ الشمس بالنزول ، تدلج إلى غرفتي في القبو عتمة متزايدة . حتى إذا أقبل المساء صار البقاء هناك ثقيلاً كالجدران والسقف . ربما كان حبيب ، جالساً يتحدث عن فرويد وماركس ، يصنف الناس ويوزع القيم بلا عناء . ربما تمدد مجد شاخصاً إلى السقف الوطيء صامتاً ساكناً . أو عبر

فلاح ، وعديّ ، وكمال ، يسألون عن أبي خالد ويتذكرونه بالشوق والاكبار .

« بقي شهر ونضع المدفأة في المستودع » ، تقول شجن . وتسمعها لبنى فتبدو في عينيها حركة قلقة . خوف سزي العتيق يتسلل إليها وقد تغير وجه المدينة العبوس فذكرها التغير . أية مرارة تنتظرها في النهاية ؟ لم تعد تعرف أي كائن بهي الآن . أغنية بلا حوادث ولا تواريخ . فيما مضى ، كانت زوجة وربة بيت وأماً . تنتظر أوبة زوجها لأن لا أحد غيره ينتظر ولا شيء . تطبخ وترتب وتسمع الموسيقى وتجلس وراء الشباك محلقة إلى العابرين . تحتقن أعصابها لغباء الخادم ، لفشل الطبخة ، للفوضى في البيت .. ثم تمتلىء ضجيجاً وطنيناً عندما تعود ابنتاها من المدرسة . ويركض في صدرها الغيظ والضيق حتى بعيد المساء . عندها ينتهي شغل البيت ، تنام الخادم ، وتأوي الصغيرتان إلى السريرين . وتبدأ هي بالتثاؤب .

ثم ولد القلق . قرأت فاحتدمت ، وجربت الكتابة فأفلتت نفسها .

. وتحملها الآن أراجيح شهور أربعة تخفق في خاطرها . تبتسم — فعلى نحو ما لم تعد تبالي . تمشي في الغرفة خطوتين ، وتقف مشدودة الرأس إلى أعلى . تغني ما يخطر لها من أصوات ، وفي غنائها فتيل من التشفي . وعبر الأيام المشعشعة بالشمس ورياح الليل تزدهر وتثمر كعروس تستعد للزفاف .

تصوروها رجاء غالياً تحقق - نكوينا متداخل الألوان مختلفاً عن جميع الصور القديمة . وتصوروا الأشياء الصغيرة الجميلة تتخايل كأنساق من الزهر . لم يعد التوالي العابر للأيام الحافلة يكتفي لها بمحطات صغيرة على كتف الطريق . وانما جعل يرصفها ويعبدها . الأشياء الصغيرة الجميلة . دفترنا ودفتر مجد . وكل رفاقنا الآخرين ، وقد تقدمنا الآن خطوة إلى الأمام وولجنا مملكة الحب بعد مملكة الصداقة .

وداخل غرفة مطمورة في قعر دمشق نلتقي قبيل المغيب نصف لقاء كل يوم . تتمدد لبنى هنا أو هناك : على السرير ، على الكنبة ، على السجادة المعمرة . تحت يدها أوراقها الثمينة : تكتب عليهابسرعة مريبة ثم تمزق بعد حين ما كتبت. وتنقلب على خاصرتها ويدها تكتب من جديد . وأجد لنفسي زاوية وطاولة صغيرة . أصحح أوراق التلاميذ ، أو أقرأ كتاباً . بيننا شعور خلا من اللهفة والولع ، كنبتة اطمأنت إلى خصب التربة وسقوط المطر . يلفنا اللقاء السري بمتعته الخاصة فيغني إحساساً بنكهة نصر مسروق . في كهفنا المتمدن تخفق حياة مختلفة ، ربما أدانها كثيرون . ولكن يحتاج إلى طمأنينتها وأمنها النازحون إلى ديار آبائهم . حتى ذلك الحين لم نقرأ إلا القليل من حروف أنفسنا أو حروف الشواهد المبثوثة فوق تلك الديار . ولم نع إلا بعد أن خطونا إلى الأمام ثم نظرنا إلى مواقع أقدامنا السابقة . عندئذ انجلى أمامنا الفرق الثمين بين ما

كنا وما أصبحنا ، بين الخمول والحركة .

كل ذلك تم بدهشة وفرح . الصمت نفسه حياة مختلفة . البدن قرير في تمدده . الخيال منتشر في حضور العالم . عين تغطي قوام لبنى الرخي وتتلمسه . كل مكان فيه : قوام فتاة برغم سبع سنوات الزواج . والعمل ، العلامة النبيلة على جبين البشر ، الزاد الذي كلما شحّ اقتات الناس بلحوم بعضهم بعضاً .

لقد راعتني دائماً وجوه المحبين وهم يمضون في الشوارع بلا كلام ، أو يجلسون بلا ابتسامة ، وغالباً ما يحتاجون إلى انسان ثالث ليصلهم بعضهم ببعض . منذ اللحظة الأولى يبدو كل اثنين منهم ، زوجين أو خطيبين ، عاشقين تعاما بلوح الجنس . عندما يشتاقان فللسرير ولما هو أبعد من ذلك : لخرق جدران فولاذية تقسم حياتهم . يصلان إلى النبع في وقت ما فينهلان ويبقيان ظامئين ، وفي الأماسي اللطيفة يظهران من شرفة مطلة على الشارع ، عيونهما تحدق إلى المارة والمباني والسيارات ، وأرجلهما مسترخية كسولة . المساء صامت مستفيض . والذهن مسرع وراء أحلام مالذة . الرجل منهما يشتهي كل امرأة عابرة ويتمنى الرحيل إلى أي مكان . والمرأة ليست أقل خيبة . وهما يعيشان معاً زوجين وزانيين ، ومع غيرهما كاذبين سارقين . وحولهما وطن فسيح .

تسألني ابنى عن أبي وأمي فأقول انهما ماتا . تصغي برهة ، وتهتف بدعابة متحرجة : « هل سأستطيع أن أكتب

قصة عن أثر ذلك عليك ؟ » وأسأل أي أثر ، فتعتدل في استرخائها مثل من تخبىء اكتشافاً حان إعلانه ، مكسوة الوجه بلهفة مضطربة .

تقول : « إذا حكينا في الرمز كما يفعل المفذلكون ، يصير أبواك رمزاً للتراث . صحيح ؟ ليس صحيحاً ؟ وهذا يعني أنك مبتور من تراثك .. » أقاطعها محتجاً : « كيف ؟ وامرؤ القيس والصعاليك والإسلام ، وما قبلهم من التاريخ القديم .. » فتقاطعني بعناد : « هذه ذكريات ومشاعر .. قرأت عنها وليس لك مثلها .. دعنا نستخدم التحليل النفسي ، ولو أنني غبية من هذه الناحية . » .

نصمت ، هي لتحويل أفكارها إلى كلمات ، وأنا لأرى شخصيتي على أريكة التحليل النفسي . تقول : « أنت نموذج من نماذج الشخصية العربية الآن .. ليس في شخصيتك ركائز نفسية مطلقاً . وأقسم على ذلك بالمسيح وبمحمد كم أيضاً . ليس عندك محك للقيم ، هرم للقيم تحكم به على سلوك الناس .. فأنت تبرر كل سلوك بنزعات صاحبه لا بقيم أخلاقية .. لو أن أباً عاش معك .. وقد قلت أنه كان أخرس وأمك فلاحة .. لترك لك قيماً أخلاقية كان جيله يؤمن بها .. أو على الأقل لترك في شخصيتك صلابة معينة مصدرها القدرة على الحكم ، على تفسير العالم والسلوك بالاعتبارات التي يغرسها الآباء عادة في الأبناء . » وأقول لها مهدداً : « ماذا يعني هذا الكلام ؟ أنا أصنف الناس إلى رجعيين وتقدميين . » فتضحك محتجة وتعلن : « يعني أنك ذكي ولكن لا ثقة لك

بنفسك .. هذا هو العربي الآن .. ولست أدري كيف أحببتك .. فالمرأة تحب الذكي لكنها لا تحب ضعيف الشخصية أبداً » .

أقول لها : « لم ينتف أحد ريشي من قبل مثلك » .

تضحك ، وتنهض معلنة رفضها لما قلت . تجلس إلى جواري على الكنبة الطويلة ، ثم ترخي رأسها على خاصرتي . بعد قليل تغمض عينيها ، ويفد الينا السكون والعتم .

أغمضت عيني ، لا طلباً للنوم ، بل لأتخيل سعادتي . ومع أن صنع معان للحياة ، وليس السعادة ، هو الهدف ، فقد رأيتني وقتذاك سعيداً . في فؤاد المساء ، والقبو يزداد تستراً ، غلغل في الشعور نفسه الذي أرسل لبنى إلى الرقاد واصلاً الأعماق الخفية بالرضى والسلام . هي على نحو خاص لجأت للنوم : بعد تعاطي الحب ، بعد عمل تم انجازه ، بعد حوار ليست مهمته تمضية الوقت – تشعر بالحاجة إلى رحلة في ذاتها . لكأن تلك الأصقاع المنسية تتوضأ وهي تعبر جسراً إلى يقين جديد . وتشيد للنفس وطناً .

تفيق وقد لملم الظلام الضوء كله . تتفرس في قليلاً ثم تقعد وتبتسم . تمسح براحتيها على عينيها وصدغيها . وأقول لها : « تهاجمين زوجك لأنه ينام .. يا نوامة . » فترد بسرور غير مكترث : « كنت الآن في عكا .. أمام البقال الذي كنت

أسرق وأنا صغيرة برتقالاً من واجهة دكانه . [illegible]
برتقالة بنفسه .. ولم أسرق هذه المرة .. وكان أبي معظم
الوقت » .

تذكرني كلماتها نصف المتثائبة فأسألها : « ورأي لبنى
فرويد بعلاقة أبيها بها .. من ناحية القيم والعقائد ؟ قرأت
فيما مضى عن الأسرة الأبوية في علم الاجتماع .. ولكن .. »
وتقاطعني : « صحيح .. كنت سأقول شيئاً عني وعن مجد
وأبي .. لكنني نمت ، أيها الشامت .. زوجي ينام لتمضية
الوقت ، أما نومي أنا فقمة لذة . سأكتب قصة عن ذلك ..
عن النوم كقمة لذة .. بعد لقاء المرأة والرجل مثلاً يستلقيان
في استرخاء تام ، وربما ينامان .. بعد كل اشباع . أنت تنام
جيداً بعد الغداء . لماذا ننام بعد كل اشباع ؟ وهل يعني الاشباع
الموت ؟ وهل يعني اخفاق جميع الرغبات أو تلبيتها مجيء
الموت كخاتمة طبيعية ؟ »

وتنهض إلى المرآة .

أقول : « إذا كان الجواب (نعم) فنحن سنعيش طويلاً
لأن لدينا رغبات كثيرة » .

تقول هي : « لا بأس بهندامـــي .. أليس كذلك ؟ »
وتلتفت إلي : « سنذهب إلى بيت مجد . يجب أن تبقى ربع
ساعة تماماً بعد خروجي . سمعت ؟ لا أريد فضائح » .

ثم تلملم أوراقها وتخرج إلى الباب مودعة بأصابعها . تفتحه وتغلقه بتؤدة وتصعد الدرجات الست على مشطي قدميها . من النافذة أراها . تلتفت ، تبتسم ، تعبر إلى الرصيف الثاني . هنيهة ، وتختفي صورتها من الشارع .

يقول حبيب : « هذا كله جيد . أنا شخصياً أراه هكذا فقط لي سؤال أطرحه : أهذا الشيء ، صادق أم أنت تحاول اقناع نفسك ؟ »

في عينيه يدور ذلك الاهتمام الذي لا لون له . نقطتا حبر مطروشتان قليلاً على ورقة بيضاء . خلال الليالي الساكنة تحمل بؤبؤاهما عتلة الأرق ويمعنان في التفكير الطويل . لم يستطيعا آنئذ أن يعكرا شيئاً بي ، ولا استطاعا .

أقول له لست أعرف الأرق وأكره المؤرقين فيضحك بصفاء . ينظر إلي كانسان عجيب ويوشك أن يرتاب بما لدي . لم يعن ذلك بالنسبة له أمراً هاماً ، فكل ما في عالمه الشخصي مدعم بثقة راسخة بالنفس . لعله أراد تجربة نفوذه الفكري ! أو لعل معاني مغايرة أخرى اصطدمت بمعانيه فأثارت عدوانيته يقول :

— بعد كل الرضى والشبع .. ماذا تحمل يداك ؟ علينا أن نموت مئة مرة كي تعني حياتنا شيئاً صغيراً . وللأسف يا عزيزي ، نحن عاجزون الا عن ميتة واحدة . نحن هنا نموت : لا كما مات الرجال من جيل محمد . أولئك استشهدوا ، أما

نحن فنموت . أولئك ولدوا في غار حراء ثم استشهدوا . أما نحن فلا يبدو علينا أننا من سلالتهم . انتصارك أنت ولبنى — وأضع كلمة انتصار بين قوسين — نكستي أنا ، لا يهم . يبقى لنا كيف نعيش . كيف نلتقي ونفترق . بعد كل الرضى والشبع ماذا تحمل يداك ؟

أخيراً يحملني على الارتياب . أقبل بذلك لئلا ننتقل من النجوى إلى المماحكة — أهذا هو ما أسمته لبنى ضعف الشخصية ؟ — ولئلا تضيع علي لذة الانصات لكلماته الهابطة من السماء . لقد تصورته دائماً وجهاً صارماً يتلامح خلف ميزان منيرفا اليونانية ، يحمله ويعدو به وراء المهمومين . كان بوسعه أن يصدر حكماً فاصلاً بجلسة واحدة — وهو غالباً الاعدام — ثم يطفح وجهه بالحزن على البشر . حتى هو أراه يتصيد حصة من توكيد الذات ، وأسأمه ، ربما لأنه يحملني على الارتياب — الشعور الثقيل الممض .

نحن على أية حال لا نستطيع أن نقصي الملل نهائياً عن حياتنا . في لحظة جد مثقلة يفد الينا احساس بالوحدة . يدفعنا حتى نخرج من دائرة البشر الى مكان قصي حيث لا علاقة إلا بالمشاهدة . ويلوح مجد كتلة ذكريات عبر سلسلة من الصور الغابرة المبتلة بالأسى . وجهه ضجر وعيناه قلقتان . لقد أشاد عالمه الآن فوق مداميك صلبة . عليه فقط أن يستمر حتى تحفل مدينته بالعوالم الناجحة . وأما تلك الصور فسقطت

في بئر منسي .

مجد شيء مختلف . أين لأي منا ذهنه الاسفنجي ؟ انه ليمتص ملايين الصور ويبقى كما هو . ليس عندي صور ، والذكريات جزء ضئيل مني . هذا الامتداد الشاسع الذي نسميه الماضي صغير حتى ليدخل في خرم الابرة . أي عبء هو الماضي وأية بلاهة . حتى الآن لم نعش عيشة تستحق الذكر .

ويقول حبيب : — إن ما يثير دهشتي منك هذا الحب الشديد للحياة . ألست مخلوعاً بنفسك ؟

غير ان الملل باق : هنا أو هناك ، الآن أو بعد حين . يجيء كالنعاس ، ويتمطى في النفس كليل امرىء القيس . لا بد من زمن يضيع وبلا فائدة ، والملل رفيقه . الناس الذين أدانهم حبيب يتكاثفون حول الطاولات في المقاهي ، ويقدمون لأبي خالد فرصة ثمينة للسخرية . في أحسن الأحوال يتداولون حديث السياسة . معظمهم يتقن لعبة النرد والباقي يمارسها . يخنقهم الجلوس والخدر ، وهم لا يملكون غيرهما . حبيب بينهم زائر عابر (كيف يرضى بأن يصنف بينهم ؟) ومسعود فارس الضياع والغيظ والهارب الاكبر : تناجزه الشوارع الفارغة وليالي دمشق الشجية .

أسأل حبيباً : « كيف حال مسعود ؟ » فيجيب بموضوعية : « لدي شيئان قالهما لي : أنه يكاد يعجز عن

كتابة قصة ترضيه ، وأنه يحب لبنى . » لقد أفضى له بنصف اعتراف عن سره الجارح . من ماضيه المتعب ، من الصور التي تتلألأ باستمرار أمام عينيه ، تنعقد عواطفه حول ساحرة لم يخمن أحد أنها ستكون لبنى . ربما أغواه مروقها ، أو زين له الكره المتبادل بيننا صورة امتلاكها .. ربما غل حيويته حبل الأيام المعقود حول خاصرته ، فتهيّج هو العاشق الاكبر للحرية والاستقلال : جدار الزمن يعريه وجدار المكان يضيق به ، ولاشيء أمامه إلا الصور . صور امتلاكها بالذهن وبالكلمات . الأحلام الضرورية التي تنحل إلى واقع مستبد يمتطي منكبي صاحبه. أنها في الجدارين كوتان عاليتان فجّهما الوهم . مثل مسعود من تذيب حلاوة المستقبل في ذهنه حنظل الحاضر العاقر . لمَ لا وهو سليل تاريخ تلمظ بالتمني العذب ذل الالف عام وعالج النكسة بالتأجيل ؟ حجر عثر يسقطه ومثال لذيذ ينسح عن جبهته الدم ، ينسحب به إلى تخم الحياة فيتفرج ويهدد موهوماً بيوم غامض يجيء ماسحاً له خيبته ومعوضاً عليه. سقوطه مرحلة لا بد منها ، لكنه عابر حتماً وسيزول بعد حين !

من خلف هذه المماحكات تقبل أيام وتمضي . أسبوع أو شهر ، وفي نهايته يكتشف ضيعته فيحزن من جديد : هي ذي أيامه تتلاشى مرة أخرى . ويفكر بالمستقبل فيستريح : من بين النساء اللواتي يراهن أيعقل ألا تنتقيه واحدة ؟ بين ثلاث

عشرة دولة عربية أيعقل أن يبقى الغاصبون في فلسطين ؟ بين روائع العالم أيعقل ألا يكون له ولأمته مكان ؟ ويلقي بأسئلة على رفاق جدد جلسوا معه حول طاولة ، فترتفع الكؤوس نخب الأيام الرائعة المقبلة والمستقبل العظيم . أحدهم يوزع سجائر ، وآخر يشعلها ؛ وثالث يقدم لقمات لحم أو دجاج .. ويمضي هزيع من الليل - فيما بعد يستلقي مسعود على سريره سندباداً بلا رحلة ثامنة ودرويشاً بلا نرجيلة – سوى الكلمات والصور . في الصباح يفيق فيعرف مرة أخرى أنه لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

يعرف كل ذلك ويزداد تعبه . يمضي إلى عمله في الثكنة حيث ترحب به سمعة عطرة وصيحات رفاق : يدفعه شوق – وربما حاجة – إلى استهلاك ذهنه فوق أوراق مكتبه ، فلا يقبل من أحد مقاطعته أو الهاءه لغير ما ضرورة : سبع ساعات متصلات تتناثر عليها الأضابير والأوراق والبريد والأقلام والنشافة ونفاضة السجائر ، والجنود داخلين خارجين ، والهاتف يرن جرسه كل دقائق ، ورئيسه يستدعيه ، وزيارة عمل يقوم بها ..

في الثانية والنصف يخرج . تقله سيارة عسكرية إلى دمشق . ساعة واحدة يشاهد المدينة في النهار . يتغذى وينام . وعند المساء يفيق ليحمل نفسه إلى النادي ولتبدأ سهرته من جديد .

ربما يلتقي بحبيب فيصطحبه معه . لا بأس به بين الحين والحين . سيبقيان بعيا ين على أية حال ، وسيجامله . ثقيل لكنه ليس كريهاً . على الأقل لديه فكرة واحدة ممتازة : إذا كان وطننا ممزقاً فكيف لا نكون نحن ممزقين . وسيتناقشانها وسيقول له في النهاية : هذا وطن تستعمره العقد الجنسية ويفترقان .

ويعلن حبيب أنه مسافر إلى ألمانيا الغربية : لقد جمع نقوداً تكفيه للوصول إلى هناك ، وهو الآن يعد جواز سفر . أيام وينهي كل الاجراءات . وبشيء من الهدوء أحاول ألا أجعل اعلانه شديد الوقع ؛ فمثل هذه السلطة لا يعطى حبيباً وإلا داهمني بنظارة ثابتة عالية وحضور مربك لمأساته الشخصية. بالطبع أنظر إليه مستفسراً .

يسأل : – ما رأيك ؟

وأقول : – أنا طبعاً معارض . ربما بعنف . ولأنك تقبل الرأي الآخر بلا ضيق ؛ سأجرؤ وأقول أن ألمانيا الغربية أو أي بلد ترحل اليه سيحتل جزءاً منك كما احتل الصهيونيون فلسطين . نحن نشأنا في وطن ، وهو طرف في علاقة لا يمكنك استبداله.. كما تستبدل امرأة بامرأة أو كتاباً بكتاب.. مصيبتنا أننا نضع في رؤوسنا وهماً ضخماً يزين لنا الهروب الأبدي من حقائق الحياة الواقعية .

وسرعان ما يتجمع في عينيه صدق الطفل وضيق العاطلين

عن العمل . لا يأتي بجديد غير نبرة مرة قاسية . يقول انه سجين ــ أكثر من أبي خالد . أبو خالد حر بمجرد خروجه من السجن . أما هو فسجين بين الشوارع والجدران ، والناس الذين أماتوا الحرية في علاقاتهم وصاروا سجن بعضهم البعض. تحدث عن المانيا الحلم ، عن عمال يمكن أن يصنعوا حدثاً في التاريخ . سيبدأ من الصفر ، حيث يتنقل أنصاف البشر من علبة إلى علبة . ثلاث علبات في اليوم : النوم والعمل والبيرة . هناك فقط سيصنع الشيء الذي تمناه ، لا لنفسه فقط بل لجميع ركاب الدرجة الثالثة . أما هنا فكل بداية مستحيلة ، وكل مشكلة مجزأة ولا يراها كلها أحد : إذا كان وطننا ممزقاً فكيف لا نكون نحن ممزقين ؟ هنا لا شيء سوى الارهاب والارتجال والمساومة الروحية .

يبتسم مجد لاعلان حبيب ويهتف : ــ أنا تعبت من التفرج. من الآن فصاعداً سيكون لي رأي . أنا ضد حبيب . بعد أن تزوجت عرفت وطني أكثر . الحلقات الصغيرة تفضي دائماً إلى الحلقات الكبيرة. الوطن شيء ضخم في حياتي . لن ألقي عليكم محاضرة . صحيح قول حبيب عن موت الحرية في علاقاتنا . سجننا عصر الانحطاط الف عام . إذا اختلف اثنان في الرأي تشاجرا . صارا عدوين وهشما بعضهما . لماذا ؟ عش حراً ودع غيرك يعش حراً . بدون الحرية لانفهم الواقع. لكننا مرتبطون بالوطن . هذه المساحة التي أعطيت لنا وهؤلاء

الناس الذين نعيش معهم . أنا ضد الرحيل . مصيبة موت الحرية مصيبة ذاتية أولاً ، داخل كل منا . وكلنا متساوون فيها .

وتصحح لبنى : — مع ملاحظة أن الرجل أكثر حرية من المرأة .

ويرد مجد : — ليس هكذا يا عزيزتي ، والله . هو أكثر قدرة على التحرك في سجنه ، لا غير .

وتسألني شجن بمرح مستغرب : — أي سجن ؟

أقول : — طالما هو وحيد أين الحرية ؟ كلنا نقطع عن الحياة إذا كنا وحيدين . أنا بدون لبنى — مثلاً — لست حراً لأني لا أستطيع أن أخرج من وحدتي. ونحن معاً لسنا أحراراً إذا وقف الآخرون ضدنا إلى الأبد . وهذه كما يقول مجد المصيبة . ماذا تقول لبنى ؟

تنوعت الأسباب والبحث واحد : عن ملاذ ومعنى . وكم تفرقت بنا السبل . كأن علينا دائماً أن نفقد أصدقاء ونكسب أصدقاء ، حتى نمر بالجميع مرورنا العابر بالحياة نفسها . وها نحن نقبع في بيت صغير لا يميزه أحد ، مداهمين بغيابهم واحداً بعد الآخر إلى حيث يمسون ذكرى . أبو

خالد ومسعود وحبيب الذين أشعروني بمزيد من الحاجة للحب .

وتسأل لبنى ماذا صار بأبي خالد . ثم يتلاشى اهتمامها قبل أن أجيب . ينصرف مجد إلى شؤون المدفأة ، فيما تتهامس وشجن بكلمات تجعلهما تبتسمان . وحدي بينهم أجلس حزيناً ؛ ليس الحزن القلبي ، بل احساس بافلات مقود العربة في حياة بدأتها مغامرة وتابعها سفر التكوين .

وبعد هذا تكتب لبنى قصة عن هؤلاء الغائبين . ربما عن حبيب فقط الراحل إلى وطن جديد . وأسألها متفلسفاً هل يعرف أبطالها أن حياتهم نكسات . وتجيب بمسرحية أنهم يعرفون ذلك بدءاً من غزو الصهيونيين لفلسطين حتى رحيل حبيب هذا العام . ويضيف مجد : « ولكنهم لا يعرفون لماذا حدث ذلك » .

تصيح شجن من الغرفة الثانية مطالبة بعلبة شطرنج . ثم تقبل حاملة الرقعة وصندوق الحجارة ومعدات الشاي . ويجلس الزوجان حول الطاولة الصغيرة ، فيما انصرف إلى توزيع الأكواب . بعد الرشفة الأولى يهتف مجد : « أخي أسيان ، هل نحن في حالة حرب ؟ محبة بالله ضع لي ملعقة سكر أخرى والا هزمتني شجن » .

يجيء الصمت وأنتقل إلى جوار لبنى . أقول لها : « أتحبك يظل فلاحاً » . يضحك وجهها ، ربما من مدينتي ، وتنظر اليه . ويقول هو : « الفلاحون سيحكمون العالم . الشاه يا عزيزتي . » أمامها ورقة ذرعتها بالدوائر ، دوائر حلزونية متعاظمة التخبط ، وأخرى متقاطعة . تشطب عليها اذ أنظر ، وتخبىء الورقة . هذه بداية قصة ، أقول لها بصوت خفيض . تعيد الورقة إلى مكانها وتكتب عليها : اذا استمر الحال هكذا فسوف نتزوج . اسألها أي حال ، فتكتب : الحب القوي للكتابة .

بالصوت الخفيض نفسه اسألها وتكتب : — وافقت أخيراً ؟ /أجل. ولكن الصغيرتان . / — أغلب الظن سيتركهما لك امعاناً في الإيذاء . نحن سننجب أطفالاً . /وهل ستصبر مسلمة إذا تزوجتنا ؟ /المهم أن نتزوج ونخلص من وضعنا الشاذ . أعتقد أن في نصوص القانون ما يسمح لك بالبقاء مسيحية . ستكونين عندئذ كنيستي وأكون أباك ؟ /لا أريد أحداً أن يكون أبي . / — يعني أنك متمردة على سلطة الأب / /لماذا وضعنا شاذ ؟ / — بالنسبة لما نريد . /سوف أترك هذه الحياة المختلفة . لا أشعر فيها بفرق بيني وبين أمي وجدتي . منذ ثلاثة أعوام استطعت اقناعه بانتسابي إلى الجامعة . وقد قبل ليثبت لي أني سأفشل . وإلى عهد قريب كنت الزوجة

وربة البيت والأم . فإذا بقي من الوقت شيء قرأت كتب الجامعة أو ذهبت إليها . ستكون حياتنا المقبلة جميلة ودائمة . سأعمل في التدريس وسأكون مستقلة . سننشيء مكتبة ونملؤها بالكتب . وسأخصص رفا منها لقصصي وأوراقي ، ورفا لمذكراتك وأوراقك وأوراق تلاميذك . سنكون احراراً في حياتنا . سيكون كل شيء عذباً وجميلاً .

ويتحول قلمها عن الجمل المقروءة إلى كلمات وانصاف كلمات . فخطوط متقاطعة أو حادة الانكسار ، إلى رسوم غامضة الدلالة . يلم بي إذ ذاك بعض اضطراب . ها هي تقول أخيراً « نعم » فتأخذني جدية مبهمة . لعله الاقدام على عمل حاسم . ولعله الضعف الذي حدثتني عنه فيما مضى . أو هو الامساك بفعل ملموس في حياة عميت من بخار التصورات . بعد زمن قصير من ذلك المساء يبرز وجه غريب لعلاقتنا يحدق إلى مفارق طرق موحشة .

على جبين لبنى أرى خطوطاً ، وحول أنفها وشفتيها . ثم أتذكر العمر وأتأمل وجهها . أنها تكبرني بعض سنوات ؛ وأقفز عشرين عاماً إلى الأمام فأرى معادلة خاسرة . عندما تضعف شهوة عمرها هل يضعف اهتمامها ؟ هل يضعف اهتمامي ؟ أم لعل فزعا من الشيخوخة يملأ فراغ الشهوة ، فيبقى الاهتمام ويتغير باعثه ؟ قد تضمحل جذور المغامرة

بعد الزواج . وقد يستهلكنا تأثيث بيت والاعتناء به . ومن يدري أية حقبة هي الشيخوخة ، وأي شعور .

تروعني الأسئلة المخجلة : أين كانت ؟ هل أخفتها الحاجة إلى لبنى ، حتى إذا ابيت الحاجة ظهرت الأسئلة ؟ إذ ذاك أبدأ بالقراءة ، مؤجلاً كل سؤ ال إلى وقت آخر .

خلال الحديث أنظر إليها، تتعابث وجد آخذة جانب شجن . في البداية تتوقف عيناها الكبيرتان أمام وجهي برهة - كيف كانت سيماؤه ؟ - وتتحولان بدون انطباع . بعد حين يطول أمد النظرة . يعبر في عينيها قلقاً بغير سؤال . لا يخطر الارتياب ببالها ، وأعرف ذلك . لعلها الثقة بالنفس ، الايمان بنا ، أو النفور من العودة إلى تخلخل تجاوزته الآن . شغف ما يغلو ذا عينين ضيقتين ، ويتخدش وجهه والنفس تستمرىء الصمت والمراقبة ، وفي ساعات الخلوة يعروها الحزن . أيكون كل ما بني حتى الآن بالمشاركة والرغبات ساراً أخفيت وراءه قصوري الشخصي ، حتى إذا حانت ساعة سكناه سمرت قدمي حقيقة وجوده ، أنا الأرض المزروعة ضباباً ومواسم وهمية ؟

جرس الفبو يقرع كالعادة وأفتح الباب . تدخل بثوبها

البسيط وكنائسها المسوحة الكعب ، وتقصد غرفتي . كل شيء كما هو . الترحاب ، وقد مازجته عاطفية شفيفة . الهدوء ، مقبلاً من خاطر مطمئن . التحركات في الغرفة والحديث العابر . تبتسم وهي تمسح بيدها على شعرها وترده إلى الخلف . طاردة بارتباك انطباعاً عكراً يحيرها وعلى وجهها يبين ويختفي واشياً بسر رأته آنماً . يعد الكلام المألوف تسأل عما يقلقني . أقول ان ضعفاً داهمني منذ أيام ، فخفت من الزمن ثم خجلت . وضعفت مرة أخرى وخجلت أيضاً . وجدت الأشياء متأرجحة بين الضعف والخوف بينما الحقيقة وطعم التجربة غائبان بعيداً . خجلت وازدريت ثقتي . وشغلتني الحيرة من كل جانب .

تقول وقد خفضت وجهها : – فكرت بهذا الخوف . خفت أنا كذلك .

– اكتبي قصة عن القصور الذاتي في البشر . خاصة في بلادنا .

يخف ثقل الكلمات عندئذ . تبتسم لها وتطرق ، وتسقط من عينيها دمعتان . ترفع رأسها باسمة من بكائها ، وأرى عينيها مليئتين بالدمع . يتقدم الدمع نحو الوجنات دونما صوت منها ولا حركة . نظرتها بوجهي ، والابتسامة تنسحب حول فمها . من يدري ماذا وراء الابتسامة ، وهي واجهة فقط لعثرات الانفعالات الكامنة والحوادث النفسية الملائمة ،

مسح الوجه ، العناق ، تبدو لي غير طبيعية ، أفعالاً محرجة .

- أتناول يدها وأسحبها حتى الكنبة . تجلس ، رجلاً فوق رجل وتمد فستانها على ركبتيها باحتشام مفاجىء . أجلس أنا الآخر إلى جوارها مرتاحاً لتوقفها عن البكاء .

- يجب أن تكون الحسابات صحيحة . لا نغفل عن شيء ولا نتوهم شيئاً .

- لماذا تأخذ نفسك بهذه الشدة ؟

- لا أحب أن تؤسس حياتنا على عاطفية شرقية . كذبة بحجم البندقة في أول السيرة تجعل نهايتها كذباً كلها . درجة انحراف واحدة في أول الطريق تصير تسعين درجة بعد حين .. حياتنا لا تسمح بكثير من التجارب ، وقد مضى حتى الآن ما يكفي ، هذا ..

- هذا شاق . قد لا يكون له كله ضرورة . سوف نسامح بعضنا البعض عندما نقع في أخطاء . ما دمنا مقتنعين بحياتنا ، سنسامح عن الأخطاء .

- الأخطاء شيء آخر غير الفشل .

- مع ذلك سأغفر لك كل شيء .

- هذا كلام رائع ، ومخجل أيضاً . سأقنع نفسي أني استحقه أنا الفقير إليه تعالى . لكن التضحية غالية الثمن دائماً . نحن نضحي بانتظار التعويض .. وهذا يفسد الأشياء . سيقول

أحدنا لا بأس ، ثم يدفع باحساسه الممض داخل غار النفس الخفي . ومرة بعد مرة ، كلما ازدادت الاحساسات الخفية ، تندفع جيوش غامضة في الأعصاب والعيون واللسان وتدوس على معاني العلاقات الثمينة . حتى الآن حررنا أنفسنا من العالم الخارجي . اخترنا أن نمضي في علاقتنا فأسقطنا حساب التعليقات والمواقف العادية وآراء جميع الذين يعيشون كما عاش جدك وجدي أيام سفر برلك . نحن الآن في مواجهة أنفسنا . وفيها مساحات لم تروض وكلها أسئلة . أتراني عرفت جيداً لماذا أحبك ؟ عرفت لماذا أحب المرأة ؟ حتى هذه الساعة يتعبني التميز بين الشهوة وحب الجمال . نحن الرجال هنا نشتهي لا نحب . وقلما نبحث في المرأة عن معان نختزنها ونعيش لها . هل ضللتني شهوة لا أراها أم أحبك فعلاً ؟ لو تعرفين كم يتغزل الرجال عندنا بالردف الضخم والفخذ الضخم . عندما ينالونهما يفرون منهما وتحدث الخيانة . لا أريد أن أكون حيواناً . وأكره هذه الملاحقة المريرة للصبوة المريرة . أخاف من هذا كله . أخاف جداً . إذا لم تستمري في الكتابة . إذا صرفني شيء عن مشاريعي . إذا ستهلك وقتك الطبخ والبيت .. مع أننا سنقوم بشغـل البيت بأنفسنا .. والزيارات الثرثارة .. إذا وإذا ..

– أنا رضيت لأني سأكتب ولأنك ستكتب . تعلمت من حياتي وحياة مجد . زوجي يلاحق الخدامة . لأن لا معنى

لحياتنا . هو تقريباً غني . وأنا لست قبيحة . ومع ذلك لا معنى لحياتنا . ومجد يجلس طوال المساء يراجع انفعالاته القديمة مستنكراً . إذا لم يذهب للسينما تغرقه الساعات الطويلة .. لعبة الشطرنج أو الكونكان .. حديث .. ليس سخيفاً لكنه بلا جدوى . أنا أيضاً أخاف .. لا تزد خوفي .

يتوقف صوتها وتبتسم . وأعرف أنها تبكي : فهي لا تطيق البكاء بغير ابتسام .

أسألها بارتباك : – تبكين بسبب الخوف ؟ أم شيء ثان ؟

تهتف وتلمع عيناها باعتذار حائر : – بسبب مجد . كل شيء تغير فيه . لم يعد ما كان . أعني حياته . أنا لا أخاف طويلاً . أعرف كيف أعيش معك . لكن مجد .. لم يعد ما كان .

أقول نصف مخيب : – إذا كان هذا صحيحاً فهو فظيع . وفظيع أكثر لأن بلادنا لا تريح الخائبين ولا تعزيهم . مع أنه ليس نبيلاً ولا صحيحاً أن نلقي بالمسؤولية على وطن متعب . إذا كنا نحن ممزقين فكيف لا يكون وطننا ممزقاً ؟

وترد هي بأسى : – المشكلة أن مجداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً ..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

— ٣ —

عندما يأتي زوجها في الشهر المقبل من سيقول له ، وماذا سيقال . سوف لن يجد التخلي عنها سهلاً . فبعد كل شيء هو من هذه الدنيا وأسير تعلقاته . ولأنه لا يعرف الحرية ، لن يفهم موقف لبنى ولا حاجاتها . بل ربما لذ له عناقها وهي لا تريد ، كيما يفعم في نفسه امعاء الشرق المعتمة ويشملها بالاغتصاب . ربما تصور عندئذ أنها ليست امرأته ، وأنه ينالها بالقوة ، بلا ضريبة ، بغير حق ، ويفرح .

وتقول لبنى : — صرت أعرف حتى الآن كيف هو نموذج الرجل الذي مثله في بلادنا .

نتفق على أن تتكلم هي ، ليس لأن كبرياءه ستجرح إذا جئت إليه ، بل لأنه سيرفض طلاقها : ثمة اذن رجل آخر ، سرق منه زوجته الثمينة . لن ينهزم أمامه . وكيف يترك امرأته تخرج من بيته إلى بيت رجل آخر لمجرد رغبتها العميقة

بذلك ؟ سوف يستخدم عندئذ سلطته المستترة وحتى المكشوفة ليقتادني إلى السجن ، ثم يسجنها هي في بيته ويرغمها على أن تكون امرأته .

أصغي إلى لبنى صامتاً عابث الصمت ، وهي تقول كل هذه الأشياء الغريبة . وإذن هي وحدها ستجرح الدمل ، وبكلمات مختلفة . لقد تحدثنا من قبل ولا بأس أن يعيدا الكرة . عند أول شجار ، وهو أمر كثير الحدوث ، ستطلب الطلاق أو تلطخ سمعته في الوحل . سيسخر منها عندئذ . سيجلس إلى صحن طعام أو فاكهة يزدرده على مهل ، أو يفرش يديه حول الكنبة ويضع ساقاً على ساق ونظرته الهادئة الساخرة تفترس وجهها . على أية حال سيسألها سؤالاً غير متوقع : كيف يمكنها العيش يوماً واحداً إذا هو طلقها ؟ ماذا تأكل وأين تنام ؟ هل ستبقى بلا طعام ولا مأوى حتى تتخرج من الجامعة ؟ أم أن قصصها القصيرة ستجلب لها غير المذمة والسخرية ؟ نقوداً ؟ من يشتري الأدب بالنقود ، الكلام الفارغ ؟ وهل تستطيع المرأة أن تقف على قدميها بدون رجل ؟

هذا كلام قديم عمره سنوات . سمعته بعبارات مختلفة ، مرات كثيرة . لن تنفعل ، ستصر على الطلاق أو تلطخ سمعته في الوحل . ولن تقول له كيف لئلا يطمئن ، فالأسرار دائماً تخيفه .

وأقول لها أن طريق الشجار لا يفضي إلى حلول . خير لها

أن تأتيه ساعة يجلسان للغداء أو للراحة، فتحكي بهدوء، تقول ما تريد أن تقول بسعة ومنطق: فلننه هذه الحياة الشقية، لينصرف كل منا إلى استنفاد عمره المتبقي له على نحو كريم له معنى. لأن ما من أحد سيصل إلى النهاية بقلب راض إذا استمر على تعاطي هذا الشقاء.

بهدوء، وعينين خافضتين ترفض: – سوف يقول انه لن يطلق ويدمر سمعته بين الناس إكراماً لنزوات العقلية الجديدة ومراهقاتها. وسيضع نبرة خاصة على «العقليـة الجديدة». هذا انسان لا يغير مواقفه بالتفكير، وانما بالانفعال. وسننتظر زمناً قبل أن يستبد به انفعاله.

ثم تحيط بنا تفاصيل الطلاق حتى تغدو بحيرة، نحن على سطحها بدون قارب. ولا ننس الصغيرتين اللتين ستتركهما أعواماً قبل أن تراهما مرة أخرى. بعد الانفصال تأتي فترة هجر، كما تقضي بذلك النواميس، وستنفصل نحن طول الصيف إلى أن يتم تعيينها في منطقة أخرى من سورية. بعدئذ نلتقي ونعيش معاً، بعيدين عن دمشق. وبين ذلك مسافات تنحل إلى تعب، وتملؤها النفس بالأسئلة.

- تمنحنا المغامرة طعماً والضعف البشري طعماً آخر. يغسل الصدر ايمان بجميع الرغائب والأماني، سيصنع حياة بالانتهاك والتدمير لأنسجة الزمن المترسخة حولنا. يغدو ملح العرق المتسلل إلى زاوية الفم سائغاً، واللهاث تعباً لذيذاً:

خبرات النفس وفيضها، عافية العيون . لن تكون الأشياء سهلة ولا حلماً هنيئاً ، وجمالها أنها كذلك : ثقل هم جميل يشد صاحبه إلى الأرض ، ويجرّح راحتي يديه . ستشد عليها بالأصابع المتشققة الجلد . ستقبلها بالشفاه . ستعيشها لأنها متعبة ومحركة ، وتمتصها كدخان السيارة . سترنم لها .

الآن يشع الرضى في النفس ، وتقر الهواجس القديمة . ههنا طمأنينة باسلة على ممار الزمن الحامل تعباً . أهي القامة الطويلة ؟ أم هي كمية الجسم الكثيرة وتناسقه العجيب ؟ ثمة روح وأسرار تستغرق عمرها القصير ، ترفرف أمام العين وتشد إليها العروق المتعبة . سوف يرتمي تعلقي العميق في أعماقها وقد كسّر جميع المزهريات القديمة . لن يكون بيننا سلوك فتح للخيبة بابها العتيق : سأحبها دائماً وأحضنها للأشياء الثمينة نفسها : الحرية والمغامرة . وسيكون أثمن بالنسبة لحياتنا أن نعيش مرة واحدة في عطاء تام وأخذ تام ، من أن نستهلكها في تلبيات عجولة يحاول العقل بعدها أن يتم كل شيء عن طريق الإيهام . ستكون علاقتنا شيئاً كبيراً في هذا العالم الجامح . لن يكون بيننا جدران ، وهذا أهم شيء .

لأننا نحب هذه الأرض المطمورة تحت الأوراق الكثيفة اليابسة سوف نغرق أيدينا فيها . المغامرة بدلاً من الكسل والدعة ، تقليب التربة وغرسها . الاكتشاف بدلاً من الاحتفاظ بدراهم السلطان . بعد أن نحرر الربيع والصيف ويجمعنا

مكان ، لعله في قلب الريف، سيبدأ هذا الشيء العظيم الذي شدنا معاً .

وسيكون لنا بيت صغير مريح : فيه مكتبة كبيرة سننتقي لها الكتب ، وآلة كاتبة . سنشتري الكتب بكثرة ، ربما من الباعة والمتجولين الذين يحملون أحياناً كتباً ثمينة رخيصة . وأيضاً سنزينه بتماثيل خشبية مافوحة الأديم . وربما أنشأنا أطواقاً للحمام البري كما كان يفعل أبي في القرية . لن يكون لدينا فائض من الوقت لأننا سنعمل ، سنكتب ونقرأ ونقوم بواجباتنا تجاه المدرسة . وسنعرف المزيد من الناس ونزورهم ، لأننا سنكتب عنهم : لبنى قصصاً وأنا مشاريع دراسات . سيكونون زاداً ومنجماً . ان نترك لأوقات الفراغ أعصابنا كي تهيجها وتتلف بها محبتنا . لن يتسلل إلينا العطب ويشق حياتنا . سيكون العمل تميمة حياتنا الجديدة : نتقاسمه في شؤون البيت ، ونختص به بحسب ميولنا . وسيكون أروح وأثمر أن ننتهي من تلك الضرورات الصغيرة بسرعة لنقبل على صناعتنا الجديدة الأخرى . وهكذا نبقى معاً : متحدين ، ولكن لكل منا يده وعيناه بصورة خاصة . وإذا ما اختلفنا فستحسم الحرية الخلاف : لأنه ما من أحد يماثل أحداً ، وعليه أن يحب هذا التباين ، ثروة البشر . سنتعلم عندما نختلف ألا يحسم الارغام موقفاً ، ولا السلبية . فبعد كل شيء ليس هدف الحياة المشتركة السيطرة وانما تكوين معان تقي هذه

الحياة من قطبي الشر ، الضجر والموت .. وما لم تعش الحرية معنا كشريك ثالث فستعصف بتلك المعاني رياح وتطمسها بالسواد .

وسيكون لنا أطفال ، وسنسمي أول طفلة « لبنى » ليكثر ترداد الاسم في البيت . سننشؤهم على الحرية والاستقلال ، والقبول باختلاف الآخرين عنهم . وسنجعلهم يتعلمون ما يحبون ، ليجدوا في شبابهم أن طفولتهم لم تذهب هدراً ، وأنهم سيتابعون تعليم أنفسهم وصياغتها ، وتعليم أطفالهم من بعدهم . ونكون عند ذاك قد صرنا هرمين قريرين ، لكن أولادنا لن يجدوا في ذلك أي فرق ، فنستمر في اللعب معهم ومشاركتهم كلما سمحت الهموم الشخصية .

وسيكثر الأصدقاء لأن بيتنا سيكون منتدى لهم .. سيأتون ليرونا ، ويقابلوا بعضهم بعضاً ، ليتحدثوا ويناقشوا ويزيدوا روابطهم سعة وعمقاً . لن نقع في تجارب خسران الأصدقاء السابقة أو نتلف علاقات غالية ، لأننا سنقترب بالمقدار الذي تمليه الضرورة لا العاطفة ، وسنبتعد عندما يوصد الابتعاد نافذة بوجه الريح الهوجاء .

وسيكون معظم أحاديثنا عن الحياة الريفية البريئة المتعبة ، مثلما ستكون كتاباتنا عنها ، لنتعلم كيف يحب الانسان الأرض ويخصبها ، معانقاً التراب والجداول والسنديان والزرازير .

وبعد سنوات سنلتقي بمجد وقد تخمرت صداقتنا . سيكون لمجد أطفال ولنا ، وانتاج جديد أيضاً ، وسيرة حافلة بالتغير والاضافات . وستزدان صداقتنا بمواكب الأصدقاء القدامى الدائمين ، الذين تجاوزوا عثرات النفس وشدوا قبضاتهم في وجه الموت . سيغدو الموت نهاية مقبولة لحياة كافية ، لأننا سنتجه بكليتنا إلى التجربة كيما نخرج من سجون مسعود الثلاثة ونستمر عبر النسل الذي سنخلفه شاداً رجله على المهماز ومتابعاً رحلة الانسان التي لا تنتهي .

— ٤ —

ها هي الابتسامة تعود إلى شفتي مجد وقد سمع قصتنا . ليست ابتسامة بل ضحكة بلا صوت فهو لا يعرف الابتسام . الضحكة القديمة التي لازمته مؤخراً دونما صوت ، مع هزة رأس صغيرة نحو اليسار . لا يزال يبدو طفلاً يجب أن تلبى جميع رغباته ، ويشعر في الوقت نفسه بالجدية . يأخذه فرح واضطراب إذ نكشف له ما خططناه من أعمال وحياة :

— منذ زمن بعيد ، أيها العزيزان ، أحلم بإهانة هذا العلج . وأن أحلام أبيكم الشيخ تتحقق دائماً . كنت حزيناً دائماً لأن شباب لبنى سينتهي وهي زوجة له . ليس حقداً يا أخي أسيان . ولكن يجب أن يلطم هؤلاء ، والله ، ويذلّوا .

ويخرج الكلمة الأخيرة بنبرة مختلفة . تطرب لبنى وتجفل معاً . وأتذكر أن المهمة المقبلة تشيع فيها ارتباكاً بعض حين ، فأهيىء نفسي لحمايتها ، ويباشر مجد المهمة قبل مجيء شجن .

جئناه مبكرين ذلك المساء . لم نلتق في القبو كعادتنا قبل

المجيء ، بل اتفقنا على مفاجأته . وسرعان ما بدا مثل طفل شبع طعاماً ونظافة ، فانطلق يقول : « ها ! أنتما تخبئان شيئا . » ويسرع باحضار أقداح وزجاجة مليئة مقعرة :

– لبنى ، أنت من يجب أن يصنع الشاي ، سأسقيكم كونياك ولن أبالي باتهام أسيان لي بالبورجوازية .

تضع لبنى جزدانها على الكنبة ، وتمضي إلى المطبخ . أخبر مجداً بموجز لكل شيء ، ونحن جالسان على كنبة واحدة ، يهز هزة قصيرة ويردد كأنما لنفسه : « إذن فستحلقون له » . وأجيبه : « على الناشف » . ويردد مرة أخرى بالقاف الفلسطينية المثيرة : « احلق له ، يا أخي . احلق . الحلاقة عمل ثوري . ماذا ستفعلون إذا رفض » ؟ فأجيبه : « في أتعس الأحوال ، ستلتحق لبنى بالمدرسة التي ستعين فيها » . وسأحاول أن نكون في بلدة واحدة . لكنني أعتقد أنه سيطلقها ، نكاية بها ، فهو يظن أنها ستموت جوعاً . المهم أن تعرف هي كيف تسلك الطريق الصحيح إلى نفسه ، وهذا شيء تعرفه بالتجربة والمران .

تقبل لبنى حاملة الشاي . ويعلق مجد : – لبنى ، لماذا تلبسين الفستان ؟ لماذا لا تلبسين البدلة النسوية هذه ، لست أعرف اسمها ؟ أعني ، أنا أراك جليلة ومهيبة ، والفستان يغير طابعك .

فتجيبه بغبطة قليلة الاهتمام : — أسيان يريدني هكذا ؛ أن أبدو فتاة لا امرأة ، كما يقول ، لأن شكل جسمي شكل فتاة .

وتقدم لنا المزيج . أحسو منه حسوة وأقول لمجد ان العرق أفضل منه وأنني سأتهمه بالبورجوازية .

ثم يقرع الجرس بخفة ، ويلج في الباب مفتاح ، فنعرف أنها شجن . تدخل وتحيي ببشاشة متعبة . « لم تحسبوا حسابي » تقول وهي تبتسم . ويرد مجد مبرراً نفسه : « لبنى هيأت كل شيء . » وتقول لبنى : « هاني لك شيئاً ، كاساً » .

على نحو طبيعي لكنه غير متوقع يهيمن الصمت . تمضي شجن إلى المطبخ وتعود حاملة كأساً وباسمة أيضاً . تصنع لنفسها مزيجاً بمهارة . ترفعه أمام وجهها وتقول : « نخبكم » ؛ فنجرع من كؤوسنا بمرح ظاهر . تشعل لبنى سيجارة ، وأشعل لنفسي أخرى . وأراقب تصاعد الدخان في الغرفة واختفاءه قبل اصطدامه بالسقف . أحاول أن أقول كلاماً مسلياً ، وكذلك لبنى ، ولا ننجح . نعب من سيجارتنا ، وننتظر مناسبة مجهولة ، وقد حرك استعمالنا للكؤوس شيئاً من ركود الكلام .

يقطع مجد الصمت ويقول : — أخي أسيان ، إذن أنتما ستتزوجان . قررتما نهائياً . ان لم يكن بالمعروف فبالمتلوف .

أعني إذا رفض زوج لبنى الزواج هذا ، أو الطلاق بالأحرى ، فستلتقيان في بلد آخر وتعيشان معاً . أليس هكذا ؟ وتحرجانه بكل الوسائل والتصرفات : سأسألكم الآن، أنا أبوكم الشيخ ، كيف ستعيشان معاً ؟ علاقتكما الخاصة ببعضكما البعض ؟ طبعاً بينكما شيء غير الجنس والحب والعواطف الكبيرة والحياة اليومية ؟ إذا فشلتما ستجلبان على نفسيكما كارثة مضاعفة : فشل التجربة ، وفشل تجربة التحدي هذه التي ستنقلب سيفاً في يد الشطر الآخر من المجتمع ، الشطر التقليدي وهو ما يزال الأقوى .

بغير ما قصد أتبادل ولبنى نظرة خاطفة ، لا يفهمها مجد . وأقول بخبث :

– بيننا علاقة لا بأس بها . كل منا حدد لنفسه أهدافاً وأعمالاً تملأ وقته ووقت شريكه. لكننا نرحب بالنصيحة. أعني ، المستقبل لا يزال مطوياً ولا بأس بما يبصرنا به . هل تحب أن تفيض علينا أيها الأب الشيخ ؟

تطرق لبنى وقد أدركت ما وراء السؤال . وأمعن في ترسيخ سيماء البراءة على وجهي فتأخذ مجد حرارة الموقف وخطورة الكلام . تلتفت شجن نحو زوجها ، ربما بعفوية . وأما هو فيبتسم ، مرتاحاً لحاجتنا له ، نصف متكدر للعيب الخفي الذي نتقفاه ، غائب الذهن عن خبثنا . يقول :

- أنت الآن تشعر بالملل بسبب الوحدة . إذا لم ينجح زواجك تشعر بالوحدة ذاتها . وهذا أصعب . ومن تحصيل الحاصل القول ان علاقاتك مع الآخرين ، جميعها ، ستتأثر بما أصابك . أبو كم الشيخ يتمنى أن يكون بينكما اهتمام أو اهتمامان وقضية أو قضيتان تشدانكما إلى بعضكما البعض كلما احتجتما إلى ذلك . أن تستطيعا السيطرة على الطبيعة البشرية . الطبيعة البشرية يا عزيزتي شيء مرير . في زمن ما تصبح هي الآمرة الناهية ، بعد أن تشبع من الصبر والترقب والسماح . وعندها تجعل طعامكما الروحي ملحاً كله . سيساعد الحب على غفران الأشياء وعلى التجاوز . لكن مفعوله سيتوقف في زمن ما ، وربما توقف هو ، أو كما يقول فرويد تنمو إلى جانبه عاطفة الكراهية . ليساعدنا الرب . ما من أحد رسول ولا ملاك . شجن وأنا نعرف هذا ، لذلك لا خلافات بيننا . أحياناً أحب أن نتشاجر ، ولكن شجن .. لا أحد يستطيع أن يتشاجر مع شجن . أليس كذلك يـا عزيزتي ؟ تعالي نتشاجر يوماً ! نحبك إذن .. نحب أيامنا الجميلة الهادئة الخالية من الشجار .

أراني مستمراً في انغماس ذهني الخبيث فيخيل إلي أن مجداً قد استدرك بلا اثارة انزلاقه إلى الاعتراف . وأتخيل لكلمتي « نتشاجر » و « شجار » معنى غير ما هو معروف ، جرساً من الحزن والاشتياق المقفل والسخرية . وتحملني

التداعيات إلى يوم قرأت في الجريدة نبأ محاولته الانتحار . شيء مستتر تغير الآن في الرؤية الكاشفة لحياته السرية ، لعله الذهول والجزع . فعلى نحو ما رأينا في مجد المتزوج سنداً لنا ، وأخافنا فشله .

لا يبين شيء على وجه شجن ، بالطبع . بل يبين : الابتسام العذب المحب ترسيه دعابة لطيفة ، وهو ليس ما توقعنا أن نرى . بطريقة ما يسيطر علينا الاكتشاف المر الجديد كهزيمة حاسمة بوجه الجنود . يغدو المرح والابتسام عبئين لا بد من حملهما . وأين نذهب إذا لم نلتق ؟ هذا البيت وحده يجمعنا بنصف اطمئنان : لبنى وأنا ومجد أيضاً . كيف نلتقي بمجد ونحن نخفي ما نعرف عنه ؟

لم يبق إلا الانسحاب . لقد سقطنا في بحيرة الحقيقة السوداء بغير ما استعداد للسقوط . تعين علينا أن نبتسم بوجه مجد كأن شيئاً لم يكن ، فنحن لم نعرف بعد – أو أنا على الأقل – كيف يغالب هذا الشعور بالحزن ، هذه المفاجأة الضخمة القاتلة التي استسلمت لتجريحها . وريثما ينتهي باقي الكأس تدير لبنى دفة الحديث . تعلن مجيء زوجها بعد اسبوع ، وتحادثنا عنه . تتحرش بشجن وتجرها إلى الكلام . في لحظة ما ينتصب معينها ، ويبدو عليها ذلك أنهض إذ ذاك مودعاً . وتنهض هي بخفة لئلا أسبقها في النزول . ونتودع بضحكة .

في غرفتي أضيق بالجلوس . أخرج إلى الحديقة ، وأدور حولها . تعاودني وجوه المارة بإيحاءاتها القديمة ، والرصيف المخطط بالشجر . وأمر بالإثنين غفلا . في أول الدورة الثالثة يدركني مجد . في عينيه انكسار من مجيئه وسؤال عن مدى تقبلي له . للحال أعود إلى تدليلي القديم له . ويعود إلى شقاوة الطفل الذي أفسده الدلال والزجر معاً ، لكنه الآن لا يثق تماماً بما يقدم له . يضعف اهتمامه ولا يقطعه ، ويخف حماسه ولا يطمسه . رأيت أنه يريد الكلام ولا يجد الكلمات .

ندور معاً حول الحديقة . دورة ، ويبرم هو بالمكان . نتنقل إلى شارع آخر ، وشارعين ، ثم يضجر . يحدثني عن عقدة الأماكن الضيقة ، وعقدة الأماكن الخالية . يقودني إلى الشارع الرئيسي حيث يعبر بنا ومعنا كثيرون . ويرتاح لرؤيتهم . نتأمل الواجهات والسيارات والمقاهي الحافلة ، واعلانات النيون المتفرقة في جسد السماء العاتم . النهر القبيح ينسل تحت الجسر . الترامواي يقعقع فوق خطيه اللامعين الشبيهين بزوج من الأفاعي . ثم يرتفع الشارع صعداً حتى يغيب تحت قدمي محطة السكك الحديدية . هناك يفرش ذراعيه للسيارات المنعطفة نحو اليسار أو القادمة من اليمين . وعلى الجانبين تلمع الأضواء ويهب نسيم ربيعي .. ونقف كأننا في حفل عفوي لم يرتب في ذهن أحد .

ندخل المقهى ونطلب طاولة نرد . نلعب بحماس وحبور .

ونتماحك بشأن دفع الحساب : يتحلق حولنا أصدقاء راقت لهم المفاجأة . يعلقون على قدومنا فلا نبالي . وفي نهاية الشوط الأول يكف مجد عن اللعب – كعادته – ويقرر التجول وحيداً . يذهب ، وأنتظره . وسرعان ما يبدأ حديث السياسة . هؤلاء ليسوا كأبي خالد ، فهم ناقمون فقط . فجأة ، نقرر الاشتراك في لعبة ورق ، يدفع المغلوب فيها حساب المهقى . وتتلاشى السياسة .

عندما رفعت عيني نحو جدار المقهى الزجاجي رأيت مجداً يعبر حوله بتثاقل وينظر إلينا . فرحت لعودته ، وقد اقترب الشوط من نهايته . لم يبتسم ، وبعد هنيهة استغراق في اللعب عرفت أنه لم يأت . نظرت إلى حيث كان ورأيت العابرين والشارع الداكن ومساحة الزجاج الفارغة التي تركها . عندئذ فقط وعيت ملامح وجهه ، كأنني أراه للمرة الثانية . وجهه العتيق المشروخ ، وشفتاه المتهدلتان ، ثم عيناه اللتان تعاتبان العالم . كانتا عينين جامدتين غائبتي النظرة ، تحدقان من أعلى وجه كظيم مقفر . قامته النحيلة تهدلت ، لا تعباً بل سأماً . عرفت أنه انتظر مجيئي ، ولم يطلبه ، لشدة ما في نفسه . وقف هناك ، وراء جدار الزجاج ، وقفة تجلد يعز وصفها . كأنه متفرج على عالم أخرس وأعمى إلا من عيني اللتين لم ترياه جيداً .

أبقى وأنتظر عودته . وبعد قليل يعود . لا يتوقف . أترك

الورق وأسرع اليه ، بين تعليقات الأصدقاء عن عشق كل منا لصاحبه . عند زاوية الرصيف أدركه ، ولا أتكلم . يقول :

– حسن أنك جئت . كأنما طردني ربي من العالم .

نسير معاً بشيء من التخفف . نجتاز جدار الضجيج إلى شارع هادىء ، ويشرع في تصفير أغنية شائعة . يقطعها ويقول : « اذهب كل خبزك بفرح واشرب خمرك بقلب طيب لأن الله من زمان قد رضي عملك . لتكن ثيابك في كل حين بيضاء ولا يعوز الدهن رأسك . التذ عيشاً مع المرأة التي أحببتها كل أيام حياة باطلة التي أعطاك إياها تحت الشمس كل أيام باطلك » .

ثم ينحبس صوته ، فتستعصي عليه متابعة الآيات . يبحث في جيوبه عن سيجارة ، ويخرجها ويشعلها . يمج منها نفسين ، ويعود إلى أغنيته . نجتاز بقية الطريق إلى البيت بلا كلام ، ويقطعها هو متراخياً . عند مدخل الدرج يلح علي بالصعود . فلا أعرف سوى أن ألبي . وأرتقي الدرجات الحجرية الباردة التي تلونت الآن بالذكريات والمشاعر المتضاربة : عتمتها وقلة عرضها . والجدران للمياه . والبشر الذين صعدوا أو نزلوا عدواً أو على مهل في الليل أو في النهار . ندخل الغرفة المعتمة . ضوء المدفأة يتراقص على جوانبها فيظهر أكثر مما تظهر الأشياء التي يضيؤها . هنالك نسترخي على الكنبة العريضة ونسند رأسينا إلى الجدار .

لا يبقى لنا سوى الأثاث نتأمله ، فهو أقل ما في الليل تغيراً . يشعل مجد سيجارة . ويجيل عينيـــه بين السقف والزوايا . على السقف تلألأت أيضاً بقع ثلاث من ضوء المدفأة ضائعة الحدود . وعلى زجاج الباب لمعت العتمة . ونحن على الأريكة مثل شبحين .

يقول مجد : — يحكون في أفريقيا عن شجر البوبو . عن شجرة محيطها أمتار ، وحجمها أكبر من مبنى دمشقي ذي أربعة طوابق . وعن السماء تنشق كبطن منفوخ فتسقط منها السيول والزوابع . وتغرق الغابات في بحر من المطر . وتختفي السيول تحت وطأة المطر . ثم خلال لحظة تنقشع الغيوم وتسطع الشمس على الربيع الأخضر . تهب الريح مبلولة . تخرج من أرض الزنوج رائحة .. شيء عجيب . البحيرات هناك ترقد بين الجبال كطفلة في مهدها وحولها الأب والأم . الجبال خضراء والسهول خضراء والماء أخضر . والطبول . الطبول تقرع طول أفريقيا وعرضها ، لترتج على ضرباتها خلايا البشر . تصور هذه الجلود .. المتفحمة كأنها خرجت من جوف بركان في الأرض لم يكتمل . الجلود السوداء المشرعة للشمس ، بلا ستر ولا محرمات . النساء والرجال . الرجل هناك ترويه المرأة ويرويها لأنها تقبل عليه ويقبل عليها ، كما يقبل جلداهما على الشمس ، لا خوفاً منه ولا ذلاً . تقبل عليه بالطبيعة لا بالانصياع . تصور وأنت هناك كم ستعانق المروج

وتقف صغيراً أمام شجرة البوبو ، بحجمك الطبيعي ، غير منتفخ بالسيارات والأسطوانات والبراد .. صغيراً أمام الغابات .. بريئاً في الهواء البريء .. بغير همّ كوعل الجبال . هل حسبت حساباً للطبيعة أنت ولبنى في ذوبانكما الجديد ؟

أقول له : — أنا صاحب أفكار ومشاعر بشرية . لست شاعراً . الطبيعة جميلة وحسب . الحياة أجمل ، أكثر غواية . أنا باحث عن معان ، لا عن سعادة .

ويقول : — إذن فاسمع من أبيك الشيخ هذا الكلام . اختلاف بسيط في الطبائع يؤدي إلى الشرخ . ليس ضرورياً أن يكون اختلافاً كبيراً . البسيط يكفي . بعد حين تبدأ المطالبة ، ويبدأ الرفض ، ويبدأ الشرخ . ذلك لأننا لا نستطيع أن نتجاوز ذاتنا إلا لفترة محدودة . ونحن كما تعلم متخلفون . نفوسنا كما هي الآن لا تكفي لصنع معان، كما تقول .. أخي أبسيان ، أنا ترنحت وانهدمت جبهتي الصامدة . تنسل إلى الوحدة والحزن كذهول قديم . لقد ألمت بي من قبل حالات كثيرة صليت فيها للموت أن يتناولني . ولكن .. في ذروة الأزمة كنت أرى أملاً صغيراً يكنو هناك : على مسافة مئة متر ، ويضيء . وأقول : حسناً ، لنر ما وراءك . الأزمة نفسها الآن . صلاة لأجل الموت . حزن شامل على رصيف لامبالاة نهائية . وليس ثمة ضوء . تلك الذبالة لم تعد تلوح . أني أعيش مرحلة ما بعد الموت التي عاشها كينس. والآن

أفهم .. ماذا عنى بها ذلك الشاعر الغــريب .. واحسرة الغريب . أنا مسافر يا أخي إلى أفريقيا . إلى غينيا. سأهجر الحضارة وتعقيداتها إلى البدائية . البدائية .

أهتف به : – ماذا تقول ؟

ويجيب بلا انفعال : – إلى أفريقيا . الجلود السوداء النظيفة . بدأت باخراج جواز سفر . وستستقبلني الحكومة هناك . وزارتنا هيأت كل شيء ، وهي التي سترسلني . سأسافر قريباً .

– ولكنك هاجمت ذهاب حبيب إلى المانيا الغربية ؟!

– هاجمته ، حقاً . أنا لست هاجراً وطني . لكنه وطن يرعاه الجهل وارث الحضارة المعلّب . عليّ أن أغسل نفسي مدة من الزمن . أنا موجة علت ثم ارتمت على الشط منفجرة الرغبات . سأعود بعد الاغتسال ، وأسير على درب جديد . هكذا أقول لنفسي : على الأقل : سأعود . لكنني الآن غير مهتم بشيء . وربما كان موت أمثالي أفضل . فالمواطنون الممزقون لا يقيمون وطناً ملتئماً . ولست أدري هل أنا الآن مفيد لنفسي أو للآخرين . هناك خاتمة نسفت كل شيء .. قطعت الحبال . لقد انتهت مناوشاتي لاقامة علاقة وشيجة ، ذات معان كما تقول ، إلى التوقف النهائي . ليس في داخل الانسان متسع لأن يقيم إنسان آخر حر . انتبه لهذا جيداً .

علينا يا أخي أن نعيش متجاورين .. لأن كلا منا مقعد بصفاته .. وليس بين الناس حسن الجوار . ولكن دعنا من هذا الآن. ان أشد ما يؤلم النفس هو أن تتحدث عن الحياة بدلاً من أن تعيشها .

عندئذ نسترخي وقد أدركنا الليل، ونلقي برأسينا إلى الجدار .

أعود إلى تأمل ضوء المدفأة المتلألىء على السقف ، وبعد قليل أغفو .

يظل مجد ساهراً حتى أفيق . أراه منكباً على ورقة أمامه يحدق إليها ولا يكتب . وأخمن أن في الأمر قصيدة فألتزم الهدوء . لكنه يلتفت ويراني . يدعك الورقة بين أصابعه ويقول : « حسن أنك أفقت . كنت سأجهض القصيدة . هل غفوت » ؟

أنهض عن الأريكة وأتمطى . ثم أقف أمامه وأسأله : « لم تقل لي ماذا حدث ، أعني بشأن شجن ؟ ألن تستطيع أن تفعل شيئاً » ؟

فيما مضى أقام الناس علاقاتهم مع الله . أما الآن فقد أبطلوا هذه العادة ، وأيضاً فشلوا في علاقاتهم بين بعضهم بعضاً . المشكلة في الجرائم الغريبة التي حلت محل الرضى والآخرة ، وفي هذا البحث المضني عن الآخر المفقود .

لاشيء يخفف الشعور بالوحدة والغربة في بحار الأمنيات والحياة اليومية . كل يوم تنخر عشرات الحوادث التافهة العقل والنفس،ولا يبقى سوى هذه العروق . هي وحدها يمكن أن تروى : الأكل والنوم والجنس ، هي وحدها تصف وتلون الحياة ، إذا زاد زر من البندورة في معدتك كنت شيئاً وإذا نقص كنت شيئاً آخر ، وإذا لم يزد ولم ينقص كنت شيئاً ثالثاً . كل الانسان يتلاشى ، ويبقى الأكل والجنس والنوم . تبقى الملابس ، والحكي ، والنقد ، والوظيفة .. عندها يولد الاحساس بالتوقف ، بالانصباب في أقنية ثابتة ، وأنت لا تريد أن تموت باكراً . وتنتهي إلى أن تتناول فشلاً وتقدم اضطهاداً .. أما هي فتتناول صبراً وتقدم انفصالاً . . الانفصال .. ما من أحد يحاول تجاوز ذاته وظروفه . ج. ذلك يتطلب جرائيم خاصة ، جراثيم كالسياط تلهب الظهر فيقفز حاملها فوق جميع الحفر متفادياً كل سقوط . النفس مليئة بالحفر .. سود بلا قرارة كأن زلازل لا عد لها قد صدمتها وشرختها .. اما أن تكون عبداً للغدد وافرازاتها ، لوزنك ، وطولك ، ومعدتك .. فأمر تعيس .. والكلام لا يغني فيه عن شيء .

عندما يصمت نحس بصمت المدينة كلها . تطقطق المدفأة كأنها تعلن بانتهاء زيتها ، انتهاء ليلنا . أرفع اصبعي الى صدغي مودعاً . أفتح الباب ، أنزل على الدرج العاتم ، ثم أدلج على الرصيف الطويل ..

— ٥ —

رأيتني خلال أيام أقضي معظم النهار متجولاً . لعله الحزن ، لعله الألم . عند الغسق أستقبل لبنى ، وفي النهار أمضي على امتداد الشوارع . أفكر بزيارتها ولا أفعل . أصل إلى منتصف الطريق ، ثم أعود . مع مجد أبقى ساعة أو ساعتين ، وربما الليل كله . أفريقيا حديثنا . وأشياء عابرة أخرى . يضحك وهو يفيض في حلمه الجديد مثل من يعد في ذهنه برنامج اجازته السنوية . يسوقني معه ، ويؤكد لي أن كل شيء على ما يرام . رحلة وضوء ، وبعدها يعود شيخاً حقيقياً . لقد آن أن تضمحل المراهقة وينمو التعامل مع الواقع . لكن لا بد من رحلة وضوء .

كان لكل منا قلقه . وأحسست بعجزنا نحن الاثنين عن تقديم أية سلوى . عدت إلى التجوال ؛ وعاد مجد أيضاً . وهكذا كان لا بد من أن التقي بذلك الوجه القديم ، المذعور غالباً والبليد دائماً : وجه اخت مرام . لم أحبب رؤيتها .

ورأيتها ولم أحبب التقدم إليها . لكنها تفرست بي وقد وقفت عند مدخل المقبرة ، مطوقة بطنها بذراعيها . لم أستطع تحاشي عينيها الراسختين . لبست لبوس اهتمام خفيف واقتربت . سلّمت فمدت يدها وصافحتني .

- لا تدخل الآن . يراك أخوك .

- أدخل إلى أين ؟

- إلى المقبرة !

اسغربت ولم أعلن ذلك . سألتها عن حالها ، ومتى جاءت من الكويت . بكت : لم يعل صوتها ، بكت بالدموع فقط . هممت أسألها ماذا حدث ، ولم أفعل . ولأننا صمتنا قالت متلجلجة اللسان :

- لم يقتلها أخوها كما قالت الجرائد . هي التي شربت زجاجة السم .

توقفت عن الكلام ، ربما بسبب ضغط المفاجأة . عندئذ فهمت .

- لم يقتلها ، هي التي شربت السم . كان يريد أن يقتلها ، لكنها قتلت نفسها . ياإلهي ! كلهم يقولون قتلها . فضحنا ابن الحرام . نشر عرضنا في البلد كلها . الله يعميه ويبعث له داء السل . يا رب ، وأنا متجهة نحو القبلة هذه الساعة ، ترسل له صاعقة تخسفه في الأرض . . إذن أنت

لست قادماً لزيارة قبرها . نسيتها . لم تعد تخطر ببالك .

– ليس الآن وقت الايلام . هي ماتت ، وليرحمها الله.

بكت عند ذاك باسترسال ، ونهنهت : – صحيح . يا إلهي . ماتت حقاً .

سألتها كيف حدث كل شيء ، فقالت : – اشترت الزجاجة بنفسها من الصيدلية . وشربتها بنفسها . لم يعرف أحد بما فعلت . ذلك اليوم .. استيقظت مبكرة على غير العادة يوم الجمعة . أوقدت نار الحمام . غسلت الصحون والأواني . بعدها غسلت الثياب . ونظفت البيت . طبخت ، وفي المطبخ بدأت تصرخ . أحست بها جدتها . نقلوها إلى المستشفى ؛ وكان أخوتها في صلاة الجمعة . لكنهم لم يلحقوا . ماتت في الطريق . كان الطريق طويلاً . ماتت في الطريق . لو وصلت إلى المستشفى لأنقذها الأطباء لأنهم كانوا بالانتظار . لكن الطريق كان طويلاً .

سكتت ثانية بتأثير البكاء . لكن رغبتها في الكلام ظلت أقوى . قالت : – ماذا صار بينكما ؟ لماذا تركتها ؟

وتفرست بي بعينيها الحمراوين البليلتين . نظرت إليها حزيناً لموت مرام ، ولم أفه بشيء . وكأنها أحست أنه ما من شيء مفيد يقال بعد : لقد أنطوى كثير من الزمن ، أربعون يوماً: انطوت عيون وأنفاس ، وصارت معرفة التفاصيل غير

مجدية لأن الموت أبطل قيمتها . بكت بهدوء واسترسال ، وأنا أشاهدها مطبق الصدر .

تأملتها تدخل من باب المقبرة وتغيب بين القبور . مضيت في طريقي إلى بيت لبنى ، بين حشد الناس والناقلات . طرقت الباب وفتحت لي الخادمة . أطلت بوجهها الأسمر وعينيها الواسعتين ، ولم تقل شيئاً . وراءها وقفت لبنى تنظر بسرور شديد الحذر . قالت تفضل . وفتحت الخادمة الباب جيداً ، ووقفت على امتداده بوجهها الجامد .

قالت لبنى : — زهية . فنجان قهوة بدون سكر .

ومضت الفتاة . جلست ، وجلست لبنى في الجانب المقابل . قلت :

— تريدينني أن أذهب بسرعة ، أليس كذلك ؟

وغمغمت : — أجل . لماذا جئت ؟ بعد ساعات سنلتقي . الجيران هنا كلهم جواسيس .

ضحكنا . قلت — كنت تستحمين ؟

فابتسمت بارتباك ، كأنني أنظر إليها عارية : — شعري لم يجف بعد .

تأملتها وتأملت الغرفة الأنيقة . قليلاً وأقبلت الفتاة تحمل فنجان القهوة . رأيت وقت زيارتي محدداً بسرعة تناولي للقهوة . أما الفتاة فجلست في ركن منزو ، ولم تفعل فيها نظرات لبنى شيئاً : لقد صممت على الجلوس . لم تطلب لبنى

خروجها لئلا تفسر الطلب تفسيراً لم نرغب به .

قالت : — هل ترى مجداً ؟

أجبت بهدوء : — قال انه مسافر . جئت أسأل عنه هنا ، لأني لم أجده في بيته .

وردت : — لم يأت الينا اليوم . وأنت ، متى تسافر أيضاً ؟

قلت : — في الخريف القادم .

وعندما جرعت ما تبقى من القهوة نهضت . بغير احتفال قلت كلمة الوداع ، وخرجت . شعرت بالهدوء ، بعد مشهد المقبرة القاصم . سرت على مهل حتى موقف الباص ، وعدت إلى قلب المدينة .

بعد المغيب جاءت لبنى . قبل أن تعلق معطفها سألت : — لماذا جئت اليوم ؟

قلت : — لصوتك غنة منتحبة .

جلست وعادت تسأل : هل تعجبك ؟ حقاً لماذا جئت اليوم ؟

قلت : — كنت أريد المجيء قبل أن أعرف ما حدث . ثم لم أستطع الانتظار . هل تذكرين حديثنا عن البنت العذراء التي سألتني لماذا لا أتزوجها ؟ انتحرت منذ أربعين يوماً .. أو أن أخاها قتلها .

عندئذ اتسعت عيناها : ــ قتلها أخوها ؟ كيف ؟

ــ أعتقد أنه قتلها : سقاها سماً .

ــ لماذا ؟

ــ لأنها أحبت .. هكذا يبدو .. رجلاً جارها في حوالي الخامسة والثلاثين . يبدو أنها تورطت معه ، وتعرفين عقوبة هذا الشيء .

ــ كيف حدث كل ذلك ؟

ــ قرأنا مرة في الجريدة عن انتحار فتاة ، وذكروا اسمها . أنت لم تكوني موجودة . أرغمها أخوها على شرب زجاجة السم .. وعند التحقيق شهد أفراد العائلة جميعاً أنها هي التي شربت السم في غفلة عن جدتها التي كانت تغسل معها الثياب .. ثم دفنوها هنا في المقبرة . وجاء من أحبها أو أحبته فبنى لها ضريحاً ووضع عليه يومياً أكاليل الريحان .. ثم جاء أخوها بفأس . . وأخذ يضرب الضريح حتى هدم نصفه . . . رأيت أختها اليوم . وحاولت أن تؤكد أن أخاها لم يقتلها .

أشعلنا سيجارتين ، وأخذنا نمج أنفاسهما . قالت :

ــ فظاعة . وأنت . هل زعلت ؟

قلت : ــ أحياناً أرى أني السبب ؛ وان كان في ذلك غرور .

قالت : — أنت لا علاقة لك . لو لم تكن أنت لكان غيرك . عفة البنت عندنا رقيقة مثل كنزها العظيم . -

قلت : — صحيح . ولكن كل شيء إلا الموت .

قالت : — لا بد أن يحس الإنسان بالندم . طبعاً المبررات القانونية لا تكفي . هل كنت تحبها ؟

قلت : — لم يحب أحد منا الثاني . كانت نوبة ضعف . لماذا تسألين ؟

— هذه طبيعة الأنثى ، يا أستاذ ، مع أني لا فرق عندي .

جلست على السرير مرخياً يدي بين ساقي ، وأنا أنظر إليها بخمول . ابتسمت وهي تنفض سيجارتها . قالت : — « سأصنع قهوة لنا . » ونهضت إلى المطبخ . بعد قليل لحقت بها . وقفت قريباً منها وهي تمسك بذراع الدلّة وتحرك محتوياتها . أخيراً صبّت القهوة في الفنجانين ، وحملت الصينية .

عندئذ دخل مسعود : أحمر العينين منفوش الشعر ، معروك المنامة . حيّا بوداعة واتجه إلى الحوض . مضينا نحن إلى الغرفة ، وبهدوء أغلقت لبنى الباب . نظرت إلي لتتأكد من صواب عملها . وابتسمت محرجاً .

قلت : — يحسن أن نفتحه ولو قليلاً .

— إني ميتة خوفاً . ماذا سيقول ؟

— نحن متخاصمان . لكنه شهم . لا تخافي لسانه اطلاقاً . تصدعت علاقتنا كثيراً . ولكن لا خوف منه . خذي هذه السيجارة وهدئي أعصابك .

أشعلت السيجارتين .

قالت : — مرتين هذا اليوم خفت من كل قلبي . لماذا جئت صباحاً إلى بيتنا ؟

قلت : — أممنوع أن أشتاق لك شوقاً زائداً ؟

قالت : — لا أسيان . الله يخليك . كل شيء إلا البيت .

— أمرك يا مولاتي .

— الجيران أولاً ، والخادمة . ومجيئك نفسه ! إني ميتة رعباً . إذا زرت البيت ، سأضعف غداً أمامه . وإذا ضعفت فلن يتم شيء . إذا قال إني أستقبل زواراً هنا فلن أستطيع الانكار بنجاح .

— انتهى . بيتك غير موجود في دمشق . هدمته البلدية لتجميل الشارع .

— وأيضاً في الأسبوع القادم ، لن آتي اليكم . لأنه سيكون هنا .

— أعرف ذلك . كل شيء متوقف عليك في هـــذه

الفترة . بالنسبة للمستقبل ، لن نسأله شيئاً . أعني إذا رفض.

— لن يرفض . سأعرف كيف أجعله يقبل . لا تنس أني عدت من عنده زعلانة . ولكن انتبه . لا تزر بيت مجد . سأزورهم أنا إذا اضطررت لتوكيد مكان زياراتي .. أو إذا قالت الخادمة له شيئاً . الآن سأخرج قبل أن يخرج مسعود إلى بيت مجد .

وودعتها عند الباب :

— ٦ —

بعد يومين جاء « أبو ميّ » ، ولم أعد ألتقي بلبنى . في اليوم الثالث انقطعت عن زيارة مجد . وهكذا طالت زياراتي لفلاح وكمال ، وطال انصاتي لعدي وحبيب .

الدكتور فلاح ، الذي ما زال يقوم — كأي فلاّح أردني — بذبح خروف لأجل ضيفه ، على الرغم من سنوات مضت في كلية الطب . قابلته وهو شبه مفلس ، فأصر على دعوتي للغداء — والغداء ليس خروفاً على أية حال فينبغي ألا أحرجه بالرفض . ثم تقاطر الأصدقاء الآخرون ، كأن ثمة قوة تدفعهم إلى الالتقاء . قرأ كمال قصيدة بعد الحاح . ثم أصر على دعوتنا لتناول القهوة في غرفته .

.. نهضت متهيئاً للانصراف . قام فلاح آمراً : « اجلس . تريد الانسحاب قبل أن نذكر أمراضك النفسية . أنت مصاب بالفصام والذهان والعصاب إذا ذهبت . » وصاح كمال :

حفظت الكلمات ، أليس كذلك ؟ نهض حبيب ثم عدي . ولاحت لنا فكرة التجول في الشوارع ، عندما تمطينا وتثاءب بعضنا .

كانت الساعة تقارب الواحدة . خرجنا إلى الشارع ، وبعد قليل ودّعتهم باصرار وعدت إلى غرفتي . استلقيت على السرير مثل من فقد شيئاً يجهل أين فقده . وحوّم حولي القلق حتى هزيع من الليل .

في اليوم التالي فضلت الذهاب إلى النوم قبل أن نلتقي . أنهيت وجبة الطعام وخرجت . وعند أول الشارع الموصل إلى القبو رأيت مجداً من بعيد . وللحال كبر بي اضطراب مزعج . أسرعت وراءه حتى أدركته : « مجد ! مجد ! » التفت ورآني . أسرع فاتحاً يديه . فتحت يدي أيضاً وتعانقنا بقوة . اضطربت شفتاه وكادت عيناه تبكيان : « لماذا انقطعت عنا ، بحق السماء ؟ » « هكذا أوصتني لبنى . » « ولكن تستطيع أن تأتي في أوقات مضمونة . منتصف الليل ، مثلاً ! » « هذا ما حدث . » « تعال ، تعال . » وتأبط ظهري دافعاً بي برفق مع مسيره .

لم نستطع أن نتحدث الأحاديث المعتادة ولا أن نضحك — نوع غريب من الفرح . لكننا لم نفك يدينا عن ظهري بعضنا بعضاً . « هل من جديد ؟ » « لم تزرنا لبنى حتى الآن . » وحملت إلي جملته مزيجاً من الطمأنينة والقلق : يبدو أن

اللحظة الحاسمة لم تحن بعد ، وعدت إلى خطوط الانتظار الأولى . عند المنعطف نادى مجداً صوت . التفتنا ، وتقدم منا رجل ربعة قصير القامة ، وجهه وسيم وعيناه جميلتان نفاذتان . قدّمنا مجد ، كلاً للآخر ، وقال : «أبو مها زوج أختي لبنى .» تصافحنا وتمتمنا بكلمات مجاملة . سرنا ، ومجد في الوسط .

قال أبو مها : «أنتم عاتبون علينا . لم نتمكن حتى الآن من زيارتكم . أنت تعرف لبكة الأيام الأولى وكثرة الزائرين» .

قال مجد : «لا يهمك . نحن لا نعلّق على هذه الأشياء . المهم أن تأتوا بزيارة مريحة غير رسمية» .

قال أبو مها : «هذا هو الموضوع . لذلك رأيت أن نؤجلها حتى تخف الزحمة من عندنا . جئت لآخذ موعداً ، ولو أن الوقت غير مناسب . كيف حال شجن ؟ يجب أن تسعوا لطفل يزيّن حياتكما» .

قال مجد : «لا بد وأن تتغدى عندنا إذن . وأقول لك أننا لن نحدد موعداً إذا لم تتناول غداءك معنا» .

قال أبو مها مفكراً : «ستبقى لبنى وحدها . عندنا دميانة أيضاً» .

ورد مجد : «هذا جيد . دميانة تسلّيها حتى تعود . أنت تعرف كرهي للزيارات الرسمية . ها قد التقينا بطريقة عفوية

وسنتناول الغداء بطريقة عفوية أيضاً» .

أخيراً اقتنع . وصعدنا الدرج إلى البيت . استقبلتنا شجن بترحاب كبير ، ووجّهت معظمه للزائر الجديد . جلسنا في الغرفة الأثيرة . وحاول مجد أن يوقد المدفأة فمنعه : «الطقس دافىء . لماذا المدفأة ؟»

ولجت رائحة الطعام الغرفة . وبعد لحظات أقبلت شجن : «المائدة جاهزة . تفضّلوا .» تناولت كتاباً ، وبغير تلكؤ أقنعتهم أني تناولت الغداء .

«تعال شاركنا الجلوس» ، قال أبو مها متلطفاً . ورأيت الدعوة في عيني مجد . ذهبنا إلى غرفة الطعام . جلست على كنبة هناك ، وجلس الباقون حول المائدة . مدّ مجد يده إلى طبق الحساء ، فيما تأنى أبو مها وهو يضع المنديل على ركبتيه ويرفع كمّي سترته إلى الأعلى . بعد مغرفتي حساء أشار بيده أن كفى ، وغمغم شاكراً . تناول نصف ليمونة وعصيره فوق صحنه ، مسح يديه بالمنشفة ، ثم حرّك الحساء بالملعقة . قبل أن يشرع بالأكل ألقى جملة قصيرة عن الطقس ، وحرّك حساءه مرة ثانية . ردّت شجن على ملاحظته ممتدحة دفء الربيع الجميل . إذ ذاك دسّ ملعقته في الحساء ورفعها إلى فمه : بيسر تام ودونما صوت . وثابر على طريقته المهذبة حتى اضطرت شجن إلى القول : «أبو مها أكابر . انظروا كيف يتناول الحساء .» وقال هو بغير ابتسام : «في الحرب

العالمية الثانية اكتشف الانجليز جاسوساً ألمانيا بسبب تناوله للبودينج في مطعم انكليزي . » سألت شجن باهتمام : « صحيح ؟ كيف ؟ » وأجاب هو : « تعرفين أن الانجليز يشربون البودينج كالماء . الألمان يشرقونه شرقاً . وعلى الرغم من محاولة الألماني المتقنة تقليدهم ، فانه أفلت صوتين أو ثلاثة . وكان أن انتبه له أحد الحاضرين فأبلغ عنه اسكتلنديارد ، التي جاءت واعتقلته فوراً . في خمس دقائق عرفوا أنـــه جاسوس ألماني » .

قال مجد بسكابرة مستترة : « أنا شخصياً أتمتع بالصوت. جانب آخر من جوانب الاستمتاع بالطعام . وأخي أسيان يشاركني رأيي . الاستمتاع بالتذوق وبالطعام وبالصوت . ولن أبالي بتعليقاتكم الحضارية » .

لم يبتسم أبو مها . قال : — هذه أشياء لا قيمة لها . لكل بلد تقاليده والانسان يختار ما يرضيه .

ومدّ يده إلى طبق آخر فخدم نفسه بنفسه . « طعام لذيذ » ، قال بعد لقمتين : « لبنى لا تطبخ مثله . » وأمسك بالمملحة وذرّ منها ذرّتين ، أتبعهما بذرات بهار . سأله مجد : « جئت نهائياً ، أبا مها ، أم عندك سفرة ثانية ؟ » وأجاب : « سأغيب مدة أسبوعين أو ثلاثة . بعدهما أبقى في دمشق . هذه المدينة عجيبة . صحيح أنها عادية بالنسبة لموسكو أو القاهرة أو دلهي الجديدة ، لكنها تبقى في قلب الانسان .

يحبها عندما يخرج منها ويشتاق إليها شوقاً حقيقياً . لا بد وأن ضرورات المصلحة العليا ستضطرني للخروج منها . سيكون هذا ترويحاً للنفس . الحقيقة ، الاقامة الدائمة فيها ترهق الأعصاب . لذلك لا بد من فترات استجمام . لكن حبها لا يضعف . ألست معي في هذا ؟ »

أجاب مجد بسهولة ، وقد وجّه السؤال له : « أنا معك على طول الخط . في كل شيء » .

وأعقبت الجواب فترة صمت ، انصرف فيها الثلاثة إلى طعامهم. وصار أبو مها يخيّر اللحظات المناسبة ليبتدر حواراً قصيراً . وأخيراً سأل مجداً : « أراك صمت؟ » ورد الآخر : « ظننت أنه ربما فضلت الاستمتاع بالأكل وبالأفكار الخاصة معاً . » فأوضح أبو مها : « بل أنا أفضل الأكل على الطريقة الأميركية . الاجتماع لتناول الطعام فرصة ثمينة للحديث وتبادل الآراء الحرة . ليس فقط تشغيل الجهاز الهضمي . ساعتين ، ثلاث ساعات يستمر الغداء .. مناقشة ، مواضيع اجتماعية ، نوادر .. بالحقيقة فرصة ممتازة . الأميركيون يعرفون كيف يعيشون أكثر من الروس . ينظمون أوقاتهم ليعيشوا كل شيء . أما الروس فحياتهم كلها عمل . حتى الباليه عندهم عمل . أنا اكتفيت من الطعام . شكراً جزيلاً لكما » .

اقترحت شجن أن ننتقل إلى « الغرفة » . نهضنا ، سوية

تقريباً . مضى أبو مها إلى المغسلة وبعد قليل عاد إلينا . جلس معنا وسألني : « الاستاذ ماذا يعمل ؟ » أجبت باقتضاب : « مدرساً . » وعقب هو : « التدريس مهنة نبيلة . كنها لا تصلح لجميع المتعلمين » .

بدت عبارته غامضة . وسأله مجد . « ماذا تقصد ؟ » قال : « بالنسبة للمرأة بصورة خاصة . المرأة خلقت للبيت ، لزوجها وأطفالها . لكن عندما تتعلم تريد أن تعلّم . لبنى تريد أن تعلّم . هذا جنون . منذ سنوات وهي تحلم بالتعليم . الزوجة لا تستطيع أن تكون طالبة جامعية ، فكيف بالتعليم ؟ »

قالت شجن : « ولكن لبنى جمعت الشيئين . أرى أنها زوجة ممتازة ، وهي أيضاً تستطيع أن تعلم » .

قال هو : « لبنى فشلت منذ دخلت الجامعة . لم تعد زوجة ممتازة ، ولا هي طالبة بمعنى الكلمة » .

سألت شجن باستغراب : « كيف » ؟

قال : « لبنى ضعيفة جداً في دراستها الجامعية . أنا أستغرب كيف أن قسم اللغة الانكليزية يجيز نجاحها . لغتها ضعيفة ، ركيكة . لا يمكنها إخراج جملة واحدة صحيحة . مفرداتها قليلة جداً . بالحقيقة . هي لاتعرف الانكليزية اطلاقاً . يمكنها أن تفهم فقط ، إذا قرأت أو سمعت . لكنها تعجز عن التصرف باللغة عجزاً تاماً » .

قال مجد : « شنيت هجوماً قاسياً عليها » .

قلت مغيظاً ولكن بكبت : « أنا التقيت بها .. في مناسبتين أو أكثر للحديث بالانكليزية . ليس طلاب القسم أفضل منها. وهي لو لم تستحق النجاح لما نجحت . أما الحديث بالانكليزية فيحتاج إلى مران . وهذا شيء غير متوفر في الجامعة » .

ورد هو باصرار : « لبنى لا تعرف الانكليزية . نصف أمية . وحسناً أنها وافقتني على برنامج الحياة الذي وضعناه معاً بعد مجيئي ، وإلا ذهبت حياتها بلا فائدة . غريب أمر هذه الأيام وهذا الجيل . كان الناس يعشقون القلق والفوضى . لا يحبون الاستقرار . تراهم منتقلين من حالة إلى حالة ومن وضع إلى وضع مثل نحلة لا خلية لها . بعمرها كله لا تنتج عسلاً » .

سأله مجد برنة صوت غامضة : « ما هو برنامجكم الذي تتحدث عنه ؟ هل سيغير حياتكم » ؟

وأجاب : « نحن لا نعرف كيف نستمتع بحياتنا ، خاصة في هذا العصر . مريض عصرنا ، مريض . أفكار ملتوية . تقاليع مريضة . نفوس معقدة . المفروض أن الانسان يبحث عن الراحة والمتعة ويبتعد عن الهم والنكد . هل هناك أجمل من الحياة الزوجية ؟ من الأطفال ؟ من البيت ، والاستقرار »؟

قال مجد ممازحاً : «ولم تقل لنا ما هو البرنامج» .

- لم تبد على أبي مها أية استجابة للمزاح . إلا أنه قال بمودة : «اتفقنا ان في كل يوم حفلة . لا يمر يوم إلا وفيه حفلة أو زيارة أو فيلم سينمائي . أول البارحة سهرنا في المطار جوّ راق .. موسيقى .. طعام ممتاز .. بروغرام ينسيك نفسك. نحن بالنسبة لنا ، وصلنا إلى مرحلة الاستقرار من عمرنا . متابعة الأفكار الجديدة تركناها للأصغر سناً . علينا أولادنا والاستمتاع ببقية اليوم . الحياة مليئة بالمتعة ، حتى في دمشق . إذا كان حولك أصدقاء يفهمون لذة العيش ، ومكان تلتقون فيه .. سوف تنسى همومك وتتنفس . جميلة الزيارات . الاجتماع . الشرب والحفلات . والا ما معنى الحياة ؟ أوقات الفراغ يجب ألا تموت سدى . ألا يكفي أن وقت العمل اليومي وقت ضائع .. ونضيع أيضاً وقت الفراغ ؟ لا ، لقد وضعنا برنامجاً غنياً . فور عودتي سننفذه . ستسر لبنى به كثيراً ، بدلاً من هذه المحاضرات البليدة في الجامعة . ما فائدة الليسانس بالنسبة لها » .

سألت شجن باسمة : - ألم تستشرها في وضعه ؟

قال : - كيف ؟ وافقت عليه بنداً بنداً . نحن سنذهب معاً ، فهل تذهب هي بالاكراه ؟

قلت : - هذه ديموقراطية جيدة .

وبدا أنه شعر باكثاره الكلام ، أو أنه استوفى عرض

أفكاره أمام مجد : جميعها تناقض خفي حول مفاهيم الحياة . صمت ولم يتكلم بعد . وعمد إلى سيجارته ينفض رمادها بين الحين والحين فوق المنفضة .

في اللحظة المناسبة نهض ، بالأسلوب المناسب ، واستأذن للذهاب . قال : — تفضل ، زرنا أستاذ . كل الوقت وأنت صامت . لم نعرف شيئاً عنك .

قلت : — في مناسبة مقبلة ، ان شاء الله . شكراً .

قال : — متى ؟ وغمغمت : لا بد أن أزوركم يوماً .

ودعنا مصافحة ، وكرر دعوته للزيارة . قالت شجن : « إذن غداً ، الساعة الثامنة » . وقال : « غداً الساعة الثامنة » . ومضى .

— ٧ —

قلت هذا للبنى ، ولم تبال . ضحكت ، وهي تقذف برأسها إلى الخلف فينتفخ عنقها . نظرة خاطفة إلي ، وتلتفت إلى شجن فتتابع رواية الحوادث القديمة . يافا وشوارعها وأزقتها . البحر والشاطىء الرملي والأفق . والبقال القريب من البيت ، وضحكة أخرى ترمي بذقنها على نحرها .. هناك وحينذاك تقنع مجداً بالسرقة ، على الرغم من نزعته الأخلاقية المتينة . في ذلك العمر كانا صغيرين ولم يباليا ، صغيرين لا يهمهما . يفران إلى مكان بعيد أو ينتظران مرور اللحظة الحرجة ثم يضحكان . تضحك هي بغبطة كاسرة . تقذف برأسها إلى الخلف أو ترميه على نحرها . وتبدأ بسرد الحكاية من جديد . قصة صغيرة عن سرقة صغيرة ، يضاف إليها بعد الحدوث لمسات وتلاوين تشعر سامعها بالخطر : السمان الذي نكب صندوق برتقاله بسرقة متواصلة . في لحظة انشغاله في أية لحظة ، وقد يلمحها الزبون . لكن ذلك لا يفعل

وتتقدم من الصندوق . قد يستدير السمان ، وقد ينتهي انشغاله ، في أية لحظة وقد يلمحها الزبون . لكن ذلك لا يفعل شيئاً . تظل واقفة بريثة حتى تأتيها الفرصة الثانية . تلتقط برتقالة ، وتنسل بهدوء . وبعد مسافة قصيرة تعدو إلى أقرب منعطف ، ثم تخترق الأزقة والحواري . ولم يكتشف البقال قط ما حدث .

حدث ذلك في الصغر . ثم كبرت فصارت ترى أباها يجلس في بعض الأمسيات حول طاولة صغيرة ويشرب خمراً . ويترك الأب طاولته لحاجة ما . يغيب دقائق ثم يعود ، وحين يمد يده إلى الزجاجة يدهشه نقص خمرها . من شرب هذه الكمية كلها ، يظل سؤالاً محيراً . ثم يقتنع بأنه هو من فعل ذلك . آنئذ يعتدل في شربه ويتأنى : الليل طويل ، وهو وحده ، زوجته لا تشاركه وأصدقاؤه غائبون .

علبة الدخان لا تثير الشكوك . تنقص سيجارة أو سيجارتين والأب لا يعرف . تخفي هي السيجارة في ثوبها وتنسل إلى غرفة الحمام فتوصد بابها . بعد وقت قصير تخرج حمراء العينين . تقصد الغرفة البعيدة وتجلس بلا حراك هادئة كنعجة صغيرة : « أردت أن أجلس مع أبي وأسليه لأن أمي لم تكن تجلس معه . لكنه لم يسمح لأحد بذلك . ولو عرف لأماتني » . ويدخل أحد غرفة الحمام ، فيرتد مذعوراً ، ما هذه الرائحة الخانقة ؟

ولم يكتشف الأب قط ما حدث .

ثم كبرت وصارت تشتري الثياب من دكاكين القماشين وهكذا اعتادت سرقة الأزرار والسحابات وأكر الخيوط .

كل ذلك توقف فجأة . في العام الثامن والأربعين بعد التسعمائة والألف من ميلاد المسيح فرّت من أرضها مطرودة إلى مكان مجهول . كانوا أربعة ، وقد جلسوا على مقعدين معكوسين في السيارة التي أقلّتهم . وراحت عيناها ترقبان الأشجار والتلال في مروقها السريع من الجانبين ، وتجمّعها وراء السيارة وأمام العينين . وعندما مرت الأشجار والتلال وتكوّمت وراء الطريق احتضنتها هي بعينيها وصدرها . ولماذا ترقبها من الأمام ، ما دامت كلها ستعبر بلحظة خاطفة وتتجمع في الخلف ؟

الآن أوان الذكريات . هذا على الأقل ما ظهر على وجهها الملجم الصغير : جلست على الأريكة باسترخاء وأسندت ذراعها على الظهر الطويل . لم توجه إلي حديثاً بل اهتماماً : تروي لشجن ذكرياتها ، وتحتدم فتلتفت إلى مجد ، تذكره وتطلب تأكيده ، عندما أتحرك أو أقول شيئاً تستدير نحوي لتعرف ، وإن تستطع لتلبي . ويبقى وجهها مستسلماً لتلاوين اللحظة العابرة .

وأبقى ملجماً ، مؤجلاً كل شيء لخلوة عفوية . مجد

يتابع ثرثرتنا بالقدر الكافي ، ويقلب مجلة أو كتاباً . شجن تبتهج بالقصص المشوقة. ويجد أحدهما موضوعاً آخر يتحدث فيه ، فيهدأ الترقب حيناً ويستريح . تنصت لبنى باستغراق ، ونشترك كلنا سؤالاً وتعليقاً . تقاطعنا هي : « أنا ذهبت مرة إلى المعرض ورأيت كتباً . يا الله ما أثمنها ! لكني لم أشتر شيئاً فعدت مقهورة » .

بعد يومين تجمعنا جلسة أخرى . تنبثق الأحاديث ملء الدقائق وتكتسب بمرور الزمن حيوية واتصالاً . يفارقني الوجوم متقطعاً ، وتفرح هي لمشاركتي . لأول مرة يبتهج مجد بالذكريات ، ينصت لسماعها مشوقاً لكنه لا يحكيها . يصغي بامعان وبلا حماس : لم يحب النكتة ولا رواها ، فقلبه كان دائماً يأسى للمفارقات التي تصنع الضحك . لكن تعبير وجهه لا يتغير . سيماء رحيل متوقع في كل لحظة ولا يبدأ أبداً . وجه على أهبة النهوض والذهاب إلى مكان ما ، كأن ما يجري أمامه عابر ، واهتمامه به قوي لأنه سينتهي بعد حين. وتضيف لبنى : « استمعوا . صارت معي البارحة قصة مع بائع الكاتو القريب من بيتكم. كنت جائعة ، ولم أتمالك نفسي دخلت محله وعيني تلعب على أقراص جوز الهند . سألته هل هذه الأقراص طرية قال جربيها . قلت لا انما أسألك . قال بل جربيها مدام . وقدم لي قرصاً . لم يكن معي نقود لأشتري ولم تطاوعني نفسي على الخروج . تناولت القرص وأكلته .

كم كان لذيذاً ! أكلته كله . قلت للبائع هذا بائت . قال بشبه اعتذار صنع مساء البارحة فقط . قلت كلا انه بائت ، شكراً . وخرجت » .

تعالت قهقهاتنا فوراً . ضحكنا جيداً ، ربما لاحتياجنا الأكيد للضحك . لبنى ومجد ضحكا كطفلين . وتهلل وجه لبنى . نظرت إلينا تمنناً ، وشفتاها تكادان تنفرجان . وعاد مجد إلى مجلته ، قلبها ووجهه باسم هادىء . فيما احتفظت شجن بابتسامتها معقودة الذراعين .. رأيت في عيني لبنى نظرة متسائلة ، حين نظرتا إلي فعبرتهما سحابة من القلق : لماذا هذا الارتخاء ؟

مرت أيام أخر . صار القبو مغلقاً مهجوراً ، تدلج إليه الشمس عند العصر وتغيب عنه . وفي المساء يثقل علي انتظار موعد فات أوانه . أخرج إلى بهمة الشارع الأخرس ، وفي بيت مجد ألقاها . ليس عسيراً أن أرى كيف تتحول عنده ذاك إلى مضحكة للضحك ، فتنقلب سيماؤها الجادة الرصينة خفة أطفال وشيطنة : هذا الصباح — وقد انتعلت كندرة ذات كعب عال جداً — رآها شاب معتدل الطول فرفع عينيه إلى قمة رأسها وأنزلهما ثم رفعهما . « كيف حال الطقس في الأعالي يا مدام ؟ » سألها وكان جو النهار متقلباً بين الصحو والغيم . ضحكت وكبتت ضحكتها . لم تنظر إليه . تابعت

مسيرها فتجاوزته ووقف هو في مكانه ينظر إليها .

وتضيع بوادر السؤال والقلق . يتعين علي انتظار فرصة مقبلة ، واهدأ على مضض . تعرف ذلك ، ويريحها . نحارب بوجهها ولسانها فترات الصمت فكأنها في سباق . ويتدفق على خاطرها نهر من الذكريات ، يغمره بحوادث موغلة في القدم أو حديثة العهد . فاذا انقطع تيار وصلته أو انثقب جدار الزمن عبأته . في كل شوط ، عندما أخرج أو تعود هي إلى بيتها ، تسترخي مجهدة القلب من تمرين عنيف .

ثم تعود مرة أخرى إلى السباق . هذه المرة بجهد أكبر ورعب متقطع الظهور : هل تذكر يوم التقينا في المدرج الثاني ، في اجتماع انتقاء الممثلين ؟ عندما كنت تمثل وتلقي الشعر ، كنت أقول لنفسي : ألا يعرف هذا أنه فاشل في التمثيل ، وأن خمسين أستاذاً لن يوقفوه على المسرح بصفة ممثل . وكنت أراك وأنا شديدة الحرج ، كأنني أنا من كان يقوم بالدور الفاشل . . . . . .

تتقاذف الحديث أفواه أخرى . مجد يعلق ، وشجن تشرح ، وأنا أضحك متباهياً بفشلي المسرحي . ونعود إلى ذلك المساء ، و «تاجر البندقية» . وصراع الأستاذ الجندي الحفني مع الأساتذة الأميركين لتقديم المسرحية . ثم تقاطعنا لبنى بغير مبرر : « وبعدئذ خرجنا ووقفنا في الممشى .. يومئذ

كنت في حالة مريعة مع العزيز أبي مها . ورحت أنت تغازلني . وكنت أستمع إليك مسرورة . لكنني يومئذ رثيت لك : أنتم الرجال تغازلون أية امرأة في أول مناسبة . كنت تعتقد أن شكواي من زواجي يتيح لك فرصة التقرب . لكن كنت محتاجة لتلك الكلمات . ويوم رأيتني مع رفيقاتي في الحديقة . كنت متضايقة ومهمومة . وقلت لي « آنسة لبنى » يا لطيف ، كم كنت مدعياً يومها . أنا أم لابنتين تقول لي « آنسة » ! وكنت أشعر بالافتعال والتحويم حولي دون أن تكون صادقاً . لكن كان فيك شيء أعمق من « ثقيل » . أتعرف أول ما يلقاك المرء تبدو ثقيلاً ومثل الحرباء » ؟

- أقول لها : « وبعدئذ ؟ » فتطلق آهة نصف متعمدة . تصمت لحظة ، وتخاطب مجداً ثم أنا : « يتصيد مجاملة . لن أقول لك شيئاً . ولكن لا تعتقد أنك نعيم دائم » .

- تنفتح إلى الشكوى كوة عند ذاك ، ونراها كلنا . تنهض شجن معلنة أنها ستصنع قهوة . ويقلب مجد صفحة مجلته الأخيرة . يتصفحها ثم يقلب الغلاف . ينهض إلى المكتبة الصغيرة ، يقف أمامها ويداه على خاصرتيه .

- أقول للبنى : « ماذا حدث في الدنيا ؟ أراك مثل شخصيات وليم فوكنر تجلسين في القطار على مقعد معكوس وتتذكرين : كنت وكان وكانت » ...

تقول هي بصوت خفيض وابتسامة مناضلة : « وهل الماضي كريه إلى هذا الحد » ؟

تلتقي أعيننا في شبه ارتطام . عينان صامدتان تخفيان المشاعر أمام ما انهار وراءهما وترتقبان ما يجيء ، وعينان مدهوشتان مخبيتان ، تسألان ولا جواب ماذا حدث ؟

أقول : « لماذا لا تأتين إلى غرفتي ؟ » ترد هي « لا أجرؤ الآن . » أقول : « ماذا جرى بينكما ؟ » وترد باقتضاب : « لا شيء . » أسأل بلا انفعال : « لم تقولي له ؟ » فترفع حاجبيها نفياً ، وتطرق . يعود مجد بأوراق تلاميذه ، ويسترخي على أريكة . يرمي الأوراق على المنضدة الصغيرة . يقول مطرقاً وبلا حماس : « طلاب اليوم غير طلاب الأمس . أليس كذلك ؟ كنا ننظر إلى المعلم كأنه اله صغير . أما الآن فهو شرطي . » وتعلق لبنى متشوقة : « أتذكر استاذنا أبا النظارات في يافا ؟ الله يرضى عليك يا بنتي . الله يرضى عليك يا بنتي . ويتهزهز مثل عبد الوارث عسر . كلما لمح قطعة كعك أو حلوى صادرها . وكنا نطرق خجلاً وندماً . وما أن يدير ظهره حتى نبدأ توزيع الأكل . وكان يعطينا كل ما صادره بعد انتهاء الدرس » .

لم يعرف مجد شيئاً . وحرصنا على ابقائه بعيداً . قلت لنفسي : ماذا لو عرف بهذا الكلر ؟ وفهمت ما وراء صمته طيلة الفترة الماضية . ها نحن ، بعد أن خبطنا الأرض بحوافر

الخيل : نستلقي على مقاعدنا ولا فرق بيننا وبين العبيد . صرنا في سجن واسع مبهم الحدود ، وكل ما نفعله يضيف إلى قيدنا . في البيت ، في المدرسة ، في الشارع ، أينما كان . أحدق إلى لبنى وقد كادت الصبوات التي عرفتها كلها ، والتي سمعت عنها ، تقف على رأس دبوس . ألن نستطيع القيام بفعل ما ؟ أهذا هو كل شيء ؟

لقد واجه مجد الأسئلة فيما مضى . وحسبت حسابها أنا الآخر ، قبل أن تجيء . في ذلك المساء استطعت اقناع نفسي بأمل ظل شيقاً . نحن لم نتراجع بعد ، وسنقفز فوق جدار خوفها تلك القفزة الضرورية . ان لم نقفز ندر حول الجدار . بضعة أشهر ونصل إلى نهايته ، فثمة دائماً طريق أخرى .

وأقول للبنى : « أما آن أن تقولي ماذا حدث ؟ » وعندها تتلاشى عصبيتها . يهمد فيها شيء يوقفها عن الكلام . أعيد السؤال ، فتقترب مني ، ونكاد نتلامس : « لم يحدث شيء ».

« كيف لم تتحدثي اليه » ؟

« لا أدري . رأيت كل قول مستحيلاً . ماذا أقول له ؟ كيف أقول ؟ بعد سبع سنوات .. وطفلتين .. وبيت .. لا أدري . هل يمكن تهديم كل ذلك ؟ لماذا لا تساعدني أنت ؟ كنت وحدي عندما جاء . رأيته قوياً .. رئيس دولة . السلطة معه . بل هو السلطة . رأيته سداً يطوقني من جميع

الجهات . كان واسعاً وفي رأسه حيل كثيرة .. أكرهها كلها ، ولكنها حاصرتني » .

« لا عليك . هذا كله لا يعني اليأس . أنت التي اخترت التحدث اليه بمفردك ، وقد وافقتك على ذلك . الآن سنلجأ إلى أسلوب آخر . بعد تخرجك ، نذهب معاً إلى مكان بعيد . وسيتعين عليه هو أن يحل المشكلة . نحن لن نطلب منه شيئاً .

« هذا صعب » .

أحدق إلى وجهها متسائلاً . ليست كلمتاها غامضتين ، ولكن ماذا وراءهما ؟ أفكر أنها في حاجة إلى تشجيع فأقول : « من كان مثلنا يلتقي بالصعوبات دائماً . لكن التوقف يعني أن نتخلى عن كل شيء » .

تقاطعني هي بجملتين وحل سريع : « لن نتوقف . سنبقى كما نحن الآن » .

في دهشة المفاجأة يمسك بي الصمت . ثم أهتف بها : « ماذا تعنين ؟ » .

عندئذ تبكي ، وتسترخي على السرير : « كيف نقدر على كل هذه الأشياء ؟ هل نحن أبطال روايات ؟ هذه تحدث في القصص . قصص مكتوبة . أما في الحياة الواقعية فلا توجد بطولات ولا مآسي » .

« وانقطاعنا عن بعضنا البعض .. هل هو ملهاة » ؟

« من قال أننا سنقطع ؟ سأراك . كل يوم إذا أردت . ستبقى بيننا كل الأشياء الجميلة . ستقرأ قصصي ، وترسلها للنشر ، وأقرأ لك ، ونلتقي . وستكون حراً ، أنت . تذهب أينما شئت ، وتعود إلى دمشق متى شئت . أليس أفضل لك ؟ نحن لسنا أبطالاً » .

« تعنين أن نختار طريقاً وسطاً . ليس اختيار الطرق بطولة بل أمر لا مفر منه . الأمور الوسط تعني الموت ، وأن سنمر كما مر غيرنا . بحق السماء ماذا دهاك » ؟

أهنه عندئذ . نصمت معاً ، وتبكي هي .

« علمتني أمي حب الزواج » .

« تزوج » ؟

« إلى هنا ، أنت جننت » .

تجهش ولا تستلقي على السرير . وتطرق أرضاً .

ولا يبقى لها سوى البكاء . أشد يدها لتنهض ، وأعود إلى غرفة الجلوس . ثم يمر المساء .

وعندما يمر الزمن تتوضح الحقائق في حفر النفس . تفرز مرارتها ولا تبالي . خلال يومين أعابثها بالأمل وأحببها بعناد العزم . نحن لم نجرب بعد ، كي تفشل على هذا النحو الذي يبدو لنا . وماذا سيقول أبو خالد ، عندما يخرج من السجن ذات يوم فيجد نفسه بطلاً ، ويجدني خائناً ؟ لن يكون مصيباً ،

إلا أنه سيؤكد ذلك بثقة .

يبقى كل شيء معلقاً . هل نعترف أم نصمم ؟ لا أحد يجيب . عندما نلتقي نعرف جيداً أننا لم نصل إلى هذا المستوى من الاختيار الحاد . أين يذهب الضعف والخوف ، وكيف نفيق من أحلام كمال وعدي ؟

وعندما تعصف ريح الربيع بأشجار الحديقة المقابلة للقبو تستطيل حاجتي اليها ، هي القابعة في الطرف الآخر من المدينة وكأنها في طرف العالم .

ثم تهش الأشجار مترنحة أمام هبوب الريح وتهتز شبكة السياج الحديدية . كيف يمضي الزمن بعيداً عنها : قصة مسلية . في القبو ، حيث نسج العنكبوت على نافذته شبكة ، أجلس محدقاً عبر القضبان إلى السماء . يخطر لي أن أكتب فأنهض لأحضر القلم . يعترضني الكرسي ، فأرى أن من المناسب ازاحته ، وأزيحه . أجيء بالقلم وأرى الظلمة في القبو أكثر مما تتحمل عيني . أضغط على زر الكهرباء وأضيء الغرفة . أعود إلى الجلوس فألمح قشر الموز على الطاولة . وأرى أن أضعه في سلة القمامة . وأعود مرة أخرى إلى الجلوس فأرى النور أقوى مما تتقبله العين . واطفىء النور . وأجلس وأشعر بالملل من الكتابة . وأحدق عبر القضبان إلى السماء .

وغير ذلك التدريس والأصدقاء والمقاهي .

وماذا تفعل هي غير ذلك ؟ ماذا يفعل مولد الحرارة الذي لا يدفأ ، صدى الصوت ، والوجود الذي لا أرض له . القصة القديمة نفسها وقد تغيرت الألوان والظلال كيما تثبت الخيبة نفسها . في زوايا البيت التي تستهلك عينيها ، تحس بثقل الخطوات وتعب القدمين . ترى نفسها ممنوعة عن الشارع والمدينة وعن جميع ما تقرأ وتسمع . ودونما عمل مرهق ، ترتمي على أي مقعد تصادفه كليلة مخثرة ؛ ربما تحس بالزمن مفروشاً على مدى الاحساس مسبلاً على أبعد أطرافه . تخرج الى ذلك التكتل المبهم المرمي حولها عالماً كاملاً مترامياً لا حد له ، بيوت وشوارع وساحات . ليس لأن العين تقصر عن استيعابه أو أنه لغز الحياة البشرية ، وانما لمساحات كبيرة منه لا تراها مرة كل أعوام ، وبعضها لا تراه مطلقاً . هنا تجد نفسها سائرة في الهواء، قدماها لا تمسكان الأرض الغريبة المحايدة ، وهي مصلومة الجذور .

نلتقي في بيت مجد . يرق بيننا التواصل ويشف الكلام . ترمي بعيداً مشاعر الكدر . خلال اللحظة العابرة كل شيء رائع ، قبلها وبعدها سقطا في بئر . تلك هي توهجات الوحدة، ساعات الليل والنهار المذروعة سأماً وقلقاً : رعاية واهتمام وحب لا حد له . ثم تظهر المبالغة كعين مصابة وتفسد هواء الكلام والتصرفات . الاهتمام الضخم تضمحل شدته في النفس . التعلق المسرف يصير إلى انفعال . تفيق الوساوس

وتتعب الحاجبين اغلاقاً وتقطيباً . لماذا لا تتسلى بالأفعال المتعبة ؟ بعد وقت وجيز تفوت العاصفة ، ونبقى معاً من جديد . الزمن إلى جانبها . الزمن : يمر فيرسّخ ، ويعودنا على كل شيء .

تعرف أني متضايق فتهتم . ويزيدني اهتمامها ضيقاً . ولأن الاهتمام يستغرق لقاءنا ، أنزلق إلى مهاجمتها وجصارها : أدرسي وحدك . سأقرأ هذا البحث » . وتحمل كتابها فوق ركبتيها ، وتكب عليه . لا يبالي مجد بشيء فأمامه أوراق تلاميذه . وشجن لم تأت بعد .

لحظات وتدمع عيناها . تقلب الصفحة بعصبية وتثبت عينيها على رأس الصفحة الجديدة . أقول لها : « يبدو أنك معتادة على البكاء . دموعك تنزل بسرعة . » وتنظر إلي بغيظ عاتب .

في اليوم التالي تكف عن الدراسة . يحدثنا مجد عن تينيسي ويليمز ومارلون براندو و « عربة اسمها الرغبة » . أقول : « براندو ممثل قدير . » ويجيب مجد : « أجل . » أقول : « عظيم أن يكون الانسان مثلاً قديراً . أليس كذلك ؟ لا بد وأنه يمثل منذ بعيد . » ويجيب هو : « أجل . » أقول : « لا عجب إذن إذا صار ممثلاً قديراً » .

لا تبالي هي . أقول لها كل ذلك ولا تبالي . تهتف بحيوية : « مجد : تذكر يوم قدّمنا مسرحية « الملك والطحان » في

المدرسة وكنت أنا أمثل دور الطحان ؟ وقد غطّوني بالطحين. وجاءت أمك إلى المسرح فلم تتعرف علي . وظلت تسأل أين لبنى .. لم أجد ابنتي بين الممثلين . كانت مسرحية عظيمة » .

أتناول المجلة من مجد ، وقد التفت إلى أخته منصتاً . يتبادل الاثنان حديث الذكريات ، وأقرأ عن تينيسي ويليمز. فجأة تعلن لبنى أنها ذاهبة ، فأرفع جفنيّ ثم أنزلهما . تضحك هي بغبطة منتصرة . تشير بيدها وتقول : « انظروا . والله ابيّض وجهه مذ قلت ذاهبة » . أقول لها : « عزّي نفسك » . وتقول : « ناوليني المعطف . » فأسأل : « أي معطف ؟ » وتهتف : « آ .. لا يريدني أن أذهب . والله عارفة . » أقول لها : « عجيب ! لماذا تفترضين أن لي علاقة بالموضوع ؟ »

وتمضي إلى بيتها وقد اختلط كل شيء بمرح ظاهر . يقول مجد : « بعد يومين يجيء الثامن والعشرون من نيسان . سيحتفل المحبون بعيد ميلادي . مكان الحفلة مرسم الرسام آ . ستكون رقصاً وخمراً .. وحفلة وداع . وقد يكون آخر اجتماع أحضره . » أقول : « يطمئنني أنك ستعود . » فيصحح جملتي : « يطمئنك أني قد أعود . قد لا أعود يا أخي أسيان مطلقاً . الآن ليس في رأسي شيء واضح . أحب فقط أن أكون في أفريقيا . » أقول : « بل يجب أن تعود. ان تستطيع البقاء هناك . » فيهز رأسه ويغمغم : « ربما » .

وتقف عند هذا الحد من حديث آثرنا ألا نطيله .

بعد يومين يجيئنا بشاب ألماني ويضع أمامه ليتراً من العرق ولوازمه . ألتقى به صدفة ، فدعاه وعرّج به على حبيب – على الرغم من كل شي – فأتى به أيضاً . ويجلس حبيب مقابلاً له . وأجلس مقابلاً للبنى . والزوجان على الأريكة . بطريقة عفوية يتحول اهتمامنا إلى الشاب الأشقر ذو العينين الزرقاوين والوجنتين العاليتين . أما هو فيكرع العرق قدحاً قدحاً ، حتى ليغيظني . تسأل لبنى : « من أين هو ؟ » فيجيب مجد : « ألا تعرفين لماذا جئت بحبيب ؟ من ألمانيا الغربية . » ونعود إلى مراقبته : لم يعرف معنى الكلام فاستغرق في شربه . انكب على أقداحه فتهدلت كتلة شعره فوق جبينه وعارضيه واتصلت بلحيته النامية . وعندها بدأ حبيب يحدثه بالانكليزية : « كيف هي المانيا الغربية ؟ » « إذا أردت أن تشرب بيرة تعال الينا . » « أفكر جدياً بالذهاب إليها . في الحقيقة بعد تسعة أيام بالضبط سأسافر . » ينظر الألماني اليه آنئذ : « أرثي لك . على أية حال . خلال تسعة أيام سأنهي زيارتي إلى العراق والأردن وسورية. يمكننا أن نعود معاً إذا أردت . عن طريق تركيا . هل لديكم مزيد من العرق ؟ » ويقدم له مجد ليتراً آخر مقلّداً لفظه للاسم : « خذ من « الأرق » يا ابن العواجيز » .

تدهشنا كثرة شربه للعرق ، ونحن نرقبه فنراه أثر كل كركرعة يعصرعينيه بأجفانه ويكزّ على حنكيه. ويلح حبيب على سؤاله : « كيف هي المانيا الغربية ؟ هل يمكنني أن

أشتغل كعامل هناك ؟ » وللمرة الثانية يرفع رأسه ويزمق حبيباً : « عامل ؟ لن تستطيع أن تشتري كيلو بطاطا . كل شيء مرتفع في المانيا الغربية ، الأجور والضرائب والأسعار . واحد فقط رخيص : البيرة . حكومتنا تريد أن تهيء للشعب الوسائل الممتازة لتمضية أوقات الفراغ . نصف أجرة العامل بيرة ونصفه ضرائب » .

تنهض لبنى وشجن وتغادران الغرفة . ويستمر حبيب في حديثه . تريحه أوصاف الألماني لبلاده : فرصة طيبة للعمل . ويضطر الألماني للاستغراب : أيبحث أحد عن الجوع ؟ وعندكم العرق هنا . يبدو على مجد شيء من الاحباط العابر ، فالمقابلة لم تحرج حبيباً . يقول له : « عزيزي ، أنت مصمم على السفر وهذا كل شيء . » ويطلب الألماني مزيداً من العرق.

ألحق بلبنى فأراها تسرح شعرها الذي طال الآن . أنظر إليها فتفلت الشعر بعصبية . وينسدل سفح من الشقرة على كتفيها . أقول : « هذه تسريحة فاشلة . » تجمعه بيدها وتضعه على هامتها . أقول لها : « وهذه تسريحة فاشلة . لن تنجحي . وربما أتعب التسريح يديك . » وتتذمر هي : « يا ربي ! كيف أسرح هذا الشعر » ؟

– يحسن أن تقصيه .

– أقصه ؟ ما شاء الله !

– قصّيه واعطنيه احتفظ لك به .

ـ ماذا ستفعل به ؟

ـ أحنطه مثل كثير من الأشياء المحنطة .

ـ ما هذه الأشياء ؟

ـ أشياء .

ـ كلا سأحتفظ به .

ـ لا فرق .

ـ أنا محنطة أيضاً ؟

ـ أنت مومياء .

فتجدله بعصبية ، وترمي بالمشط . عبر المرآة ألمح عينيها باكيتين .

ثم أترك البيت وأمضي .

معبط من نفسي ومن العالم . هارب من العرق وضوء الشمس . متعب من الكلام .

ويحل المساء ، الحفلة ، فأجيء . دميانة وحبيب والآخرون . الجميع يستعدون . أقول لمجد : « أنا لن أذهب معكم » . فيغمغم : « ليت أني أستطيع الهروب أيضاً .. » ترشوني دميانة ببنلقة ، فأقول لها : « إذا كانت لتغريني بالذهاب معكم ، لن آكلها . » وتضحك هي : « بل لتغريك بعدم الذهاب » .

تدعوني لبنى إلى الغرفة الثانية . وهناك تلحّ علي بالمجيء. أراني ثقيلاً مثل من يحاول استقطاب اهتمام الآخرين بفجاجة. أقول لها : « الأغراب من الموجودين يثيرون الضيق . فنحن سنمثل طيلة الوقت . أما الأصدقاء ... » وصفنت هي متأملة وجهي الذي كتمت عنه كل شيء .

تقول : « تتصرف كأن كل ما بيننا انتهى . سنبقى دائماً معاً .. كيفما كانت علاقتنا » .

أقول : « لا بأس . لكنني اليوم لن أذهب إلى الحلقة »

نعود إلى الغرفة ، مجد وحبيب وشجن فقط ، يستعدون للذهاب . نخرج نحن سوية قبل أن يتحركوا : هي إلى المرسم ، وأنا إلى غرفتي . نقف على فسحة السلم الأولى فألحق بها . أسألها لماذا وقفت فتنظر بجمود . ثم ننزل معاً حتى نبلغ مدخل البناء . تسأل : « لماذا فعلت هكذا ؟ » وأجيب : « ليست مأساة وليست انتصاراً . هذا هو الحل الوسط . ماذا بقي لنا غير الازعاجات الصغيرة ؟ » تسأل : « هل ننجح إذا عشنا في مدينة أخرى ؟ » أقول : « سوف ننجح حتماً . اتفقنا على هذا وبحثنا احتمالاته . لكنك قررت أنت وحدك قراراً مختلفاً » . تقول : « لا لم أقرر شيئاً بعد . أمامنا وقت طويل لننتظر . ربما تشاجرت معه مرة أخرى . عندئذ أقول له . » وأتمتم : « سننتظر . ماذا بوسعنا سوى أن ننتظر . لن ينتحر أي منا بالتأكيد . » تضطرب هي في عتمة الليل ويبدو عليها العياء . لكنها تقول : « إذا سافر مجد نعود إلى

مواعيدنا القديمة في الجامعة .. » وأهز برأسي موافقاً تماماً . تمد يدها وقد همت بالمدير ، وتصافحني ، فتفلت المواقف الصغيرة والعنعنات وغطاء الوجه الكامد . يبقى لي الحزن فقط ، وعينان تتابعانها في طريقها إلى المرسم القريب .

* * *

كوناكري /٣ حزيران /١٩٦١ .

أنا في الغابات الآن . والبلاد اسمها غينيا . شيء يبعث على الرهبة . البلاد غابة حارة . مناخها سيء للصحة . نصحني أحد الأصدقاء هنا بعدم التعرض « للمناخ » . سوف تواجه صحتي لطمة محكمة . أشعة الشمس تلح على الأرض بشكل شبه شاقولي ، ساعة الظهر وأكثر شهور السنة . ومن الخطر أيضاً التعرض لها ، خاصة التعرض برأس مكشوف : الحرارة ليست شديدة لكنها مضنية ، بسبب استمرارها ورتابتها وشدة الرطوبة التي ترافقها . الرطوبة تصل إلى حد الاشباع ، ولا يعود الهواء يمتص منها . انها هكذا طوال العام .

الشمس حادة الآن . لكنني داخل الغابات ـ غابات ، لا غابة ـ أشجار عجيبة . أين منها أشجار غوطة دمشق المتحضرة . شيء من الشمس وشيء من الرطوبة . لقد أقمت بينها توازناً . وعلى صخرة مستوية أجلس . عندما لا أكتب

أطوق ساقي بيدي وأتكىء ذقني على ركبتي . مدفافاً إلى المستوى المنخفض المديد من جوف الغابة . سنجاب أنا ؛ بين الآجام والجذوع الضخمة . عندما أخرج من هنا إلى البيت سأتنفس بصعوبة وأتعرق بغزارة . حمام ساخن ، بخاري ، دائم .

من بين فرجات الأشجار تلوح السماء الزرقاء الصافية . هذه لحظة نادرة . السماء هنا رمادية داكنة ، لأن السحاب الذي يغطيها معظم أيام السنة يجعلني أعتقد أن لون الزرقة طارىء عليها . لونها الثابت هو الرمادي الداكن . الأشجار والأدغال لا تعرف مسطرة الانسان ولا فأسه . عندما تهب الريح فبشكل يوحي بوجود شياطين ومردة . وتكون الأشجار لعبتها الأثيرة . منظر مألوف هنا أن شجرة ضخمة تطير ، فالريح تضربها ككرة القدم . وطبيعي أيضاً أن تنهار سقوف البيوت والبيوت نفسها . تصور بيتنا – بيتي مثلاً – بلا سقف ! أما الأغصان فتلطم بعضها ببعض بعنف عجيب لا يمكن أن يوجد مثله بين البشر . وتكون النتيجة أن تنبثق شرارات نارية هنا وهناك . ولا بد من أن تلتقطها الأغصان الكثيفة . عندئذ تضطرم الحرائق ، تتوج رؤوس الشجر بحقل من أزهار النار . الحرائق هي المشهد الذروة في فيلم الطبيعة الافريقية . أهذا هو ما جعل فرانز فانون يعلم العنف ؟ لكن الأشجار لا تبالي مطلقاً . مثلما لا يبالي البحر إذا أخذت منه

بركة ماء . الحرائق تساعدها على رؤية الشمس ، فهي تفتح بينها كوى جميلة . حتى الطبيعة لا تستطعم هذه الأغصان طويلاً . ويبدو أنها تدمر رغباتها بعضها ببعض (شيء نعرفه نحن البشر ، لكننا لم نوغل في ممارسته جيداً) .

ذلك أن السحب تلي العواصف مباشرة تقريباً . تنبثق من هنا وهناك ، كأنها مجموعة من أساتذة الجامعة قد جاءت لتعقد اجتماعاً . يحدث ذلك بعد الظهر . قبيل المغيب تقنّع وجه السماء بأكمله . ثم تنفجر على شكل زوبعة مسائية . تضرب الأشجار والحرائق والسماء والأرض بحجارة من المطر . كأنها في غزارتها رمال . وتدوم عدة أيام . ههنا تغتسل النفس . فالمطر حديث رائع ينزل في تجاويف الخاطر . أنني أرقبه من وراء نافذة بيتي الدائرية . وأحس أنه يسقط علي أيضاً ، ولكن دون أن يؤذيني . انني أحبه ، وهو صديقي .

الحرارة والمطر متلازمان . السيول والهجير . كأنهما زوجان ، لكن أولادهما تعساء . فطالما هما يلتقيان توجد الصفراء والتيفوئيد . وهنا يسمون الصيف الشتاء ، لأن الأمطار تستهلكه . الأمطار تستهلك ٢٠٤ أيام بالتحديد . تصور نظام الطبيعة : ٢٠٤ أيام مطرا !

هذه هي أفريقيا التي حلمت بها . هنا طبعاً استعمار ومستعمرون . لكني ، مثل الافريقيين ، أحب أن أتمتع بهذه

القارة لوحدي . هي بالنسبة لهم وطن . وبطريقة ما هي وطن بالنسبة لي . لم أشاهد احتفالاتهم بعد . لكني أسمع قرع الطبول دائماً : تم تم . تم تم . أتخيل أني أسمعها . إذ لا بد من ذلك هنا. الريح عيدان صلبة والأشجار طبول والطبيعة هي الافريقيون ؛ وأنا هنا افريقي صميم .

* * *

لأبي / ٢٤ حزيران /١٩٦١

كان أول الليل متسماً بالقلق . كنت أستيقظ كل نصف ساعة من حلم متعب لم أستطع تقليه لاستقبل فكرة الموت وصورته الشفافة . رأيت امرأة وكنت ملتاعاً . وبعد استيقاظي رجني شعور مضن بالخسارة والاثم . وتكرر ذلك عدة مرات. هممت بالنهوض من غرفتي ، ولم أفعل . ربما لجبني ، فالليل الافريقي مخيف هنا . وقلت لنفسي سأسعل وتصيبني البرداء . بالمناسبة : المرض يغزو جسدي . يشد على عروقي بكلابة . وعندما وسدت رأسي ذلك الليل لم تكن أية استلقاءة مريحة . في ضباب النوم النابح رحت أفكر بالموت . منذ أول اغفاءة كان حلم واحد يتكرر وينغمد في نفسي . وفي النهاية تكامل على النحو التالي :

أمضي إلى السيارة باكياً لأن صورة أبي لا تبارح ذهني . ونجلس نحن الأربعة في مقعدين مقلوبين إلى مكان مجهول . ويخبرونني أن أبي على فراش الموت ، وأننا عندما نصل سنراه .

يقال ان حواسه لا تعمل بأكثر من ٢٥ ٪ . وهو لا يستطيع التقلب ، فكل استلقاءة مؤلمة . جلد على عظم . مغمض العين. لكنه يستطيع أن يشعر المشاعر العميقة . وأجلس في السيارة باكياً ، أجهش وأنحب . يتحرك صدري بفظاظة . ويقال أنه تحسن ، وربما شفي في المستقبل . فأرفع رأسي عن قضيب الحديد في السيارة وأظن أني سأرتاح من النحيب المؤلم قليلاً . مرة أخرى يقال أنه في مكان ما من فلسطين وأن حواسه لا تعمل إلا بنسبة ٢٥ ٪ ولا يستطيع التقلب . جلد على عظم . مغمض العين . إلا أنه يستطيع أن يشعر المشاعر العميقة . وأنحب من جديد ، أجهش ، أنهنه ، يهتز صدري . والسيارة تسير . ويتكرر المشهد والنحيب طيلة الطريق ، والطريق يستغرق وجود السيارة . وحتى أنه لا يبقى غير النحيب والشعور بالاندفاع إلى الخلف . قبيل استيقاظي أصل الى قرية فتستقبلني أمي . وأسألها هل نحن في فلسطين فلا تتكلم . تتناول متاعي القليل (حزمتين صغيرتين) ثم نصل إلى البيت . دخلت وكان ظلام كثيف يخترقه سراج وضع على رف فوق ساقي أبي على الأرض . رأيت مؤذياً تنعين أن تحاول الرؤية ، هتفت بأبي وسألته ان كان يعرفني . لم يسمعني . كان مسجى على الأرض مثلما قالوا في السيارة . اقتربت منه فناديته ثانية . وتحرك رأسه ، فاقتربت منه وصحت لكي يسمعني : أنا مجد ألم تعرفني؟ ثم وضعت فمي على جلد وجهه وقبلته ، وكان وجهي منكباً . وبدا أنه عرفني فتحرك قليلاً وأمسك

بوجهي وراح يقبلني بصوت شبه مسموع وإلى وقت طويل ، يقبلني بلا توقف بلا كلل . وجاءني ادراك فظ لأنه شبه ميت وأنه سيموت قريباً جداً . كنت أحب فتقلص نحيبي بالتدريج وكذلك تقبيلي له . وباتت الدموع تملأ عيني دون أن تزداد أو تنزل على خدي كما فعل غيرها . وجمد فمي على جلد وجه أبي . أما هو فكان ما يزال يقبلني . وشعرت أنه في هذا الوضع شيء تافه جداً . وقلت لنفسي أهكذا سأنتهي يوماً ؟ ورفعت عيني إلى وجهه الذي ابتعد الآن ولم يعد يقبلني . ورأيته يختلج بالموت . وان كانت حركة فمه وشكلها ينبئان بأنه يشعر المشاعر العميقة . عندئذ علا زمور السيارة فانتفضت وعدت إلى مقعدي .

استيقظت في الصباح أحلم بالموت كأنه عشيقة — وكنت قد نمت قبيل الفجر بعد أن فارقت أبي — بل اني رأيت شجن في صورة الموت . كانت تستلقي أمامي ، على ظهرها ، وقد شف رداؤها وجسمها كالماء اشفافاً حاراً عجيباً وشعشع وجهها بابتسامة سماوية . وكنت أنظر إليها بتجهم ، ولكني كنت أود أن ألمسها باستمرار . ولم أتمكن لأن أمها كانت تتشاغل قريباً مني . عرفت أني إن ألمسها فسأفوز بالموت . وبقيت هكذا زمناً طويلاً . وخلاله كنت أفكر بشجن على أنها الموت . كنت أراها رائعة رائعة ، ولم أتمكن من لمسها . لقد تشهيت أن ألمسها وهي بتلك الشفافية والروعة لكن أمها

حالت دون ذلك .

وفي الصباح خرجت إلى شرفة غرفتي في أعالي أفريقيا : لابي مدينة المطر . مدينة الأساطير واللذرى . تنشقت النسيم العليل وشعرت بالراحة . شكراً لمن نصحني بالمجيء إلى هنا . لقد تحسنت صحتي وساء وعيي ولا وعيي . ما أروع أنهار افريقية . وكلها عجيبة . لقد خددت الأمطار سفوح الجبال وقممها بشروخ عميقة حتى لكأنها القلب الانساني . الشيء الطريف أن غابات شاسعة ومراعي نبتت عند هذه الشروخ وبينها حتى كادت تغطيها . الأرض خصبة !

إلى الجنوب غابة هائلة يسمونها الغابة العذراء . كم هو جميل هذا الاسم . لكنها تنبت جوزة مخدرة يسمونها جوزة الكولا . أقوى من الأفيون .

الآن سألملم أوراقي . أعتقد أن بينها قصيدة جيدة .

دمشق /٢٤ تموز /١٩٦١

مع أني ذهبت متأخراً أيضاً هذا اليوم ، فقد التقيت بلبنى وزوجها وشجن واثنين آخرين ، واقفين حول القبر بثياب سود . إلا شجن فقد أغفت عند قدميه . لبنى تبكي ، والآخرون مطأطئو الرؤوس عاقدو الأيدي . التفت إلى مسعود فلم يلتفت إلي . وتابعت تقدمي باضطراب . وصلنا فحيينا ، وقد ألبسنا الموت لباس الخشوع . وقفت أبعد منهم عن القبر منتظراً ذهابهم . وبدت المقبرة ساكنة صامتة .

تقدمت لبنى وركعت ورمت رأسها بين الريحان الأخضر ، وقد علا صوت نحيبها الحزين . تقلصت أصابعها على التراب . فأنطوت على شيء منه . وتقدم زوجها ماداً يده نحوها ، ثم توقف ولم يفعل شيئاً .

قال مسعود : — ما زلت لا أصدق ما حدث .

قلت : — حدث وانتهى ، وبإرادته .

وصمتنا . طأطأ أبو مها وأمسك بذراع لبنى . لقد بدأت

تعول . بلطف شدها وحاول رفعها فلم يستطع . جثا ومسح دموعها ، وجعلها تجلس .

سأل مسعود : — منذ كم دفنوه ؟

قلت : — هذا هو اليوم الثامن .

ونهضت لبنى بجلال مكلوم ، وسارت نحو حزمة بشكل كتاب صغير موضوعة عند أحد القبور. تناولتها وعادت بهدوء وانتصاب . مشت إلينا ، ووقفت أمامي . نظرت إليها بتساؤل كسير ، وكنت أعرف أنها لم تأت لأجلي . كانت تبكي . وعندما وصلت رمت نظرتها الكليلة بوجهي ، وتدفقت دموعها بغزارة . كان رأسها المقصوص الشعر مغطى بنصف خمار أسود ، ووجهاً ناتِيء العظام شاحباً إلى حد لا يصدق .

بعد لأيٍ تماسكت . وعندما تكلمت طيّرت أنفاسها دمعة تجمعت على شفتها العليا .

قالت : — انتظرنا أن تأتي مع الآخرين .. تأخرنا اليوم خصيصاً لنعطيك هذه .

قلت ، والنظرة الكسيرة لم تفارق عيني بعد : — يكون هنا كثيرون .. ناس كثيرون .

قالت برصانة هادئة : — هذه مجموعة من الرسائل كتبها ولم يرسلها . قال أنها لك .

ومدت يدها بالحزمة ، فتناولتها وقلت : — شكراً لك .
وبدأت أبكي .

قالت : — شجن وحدها الآن في بيت أهلها . وتحتاج إليك . إذا أحببت أن تأتي إليها أيضاً .. تعال .. متى أردت .

هززت رأسي وغمغمت : — شكراً لك .

وعادت الى رفقتها . وقفت أمامهم ، وتبادلوا نظرة خاطفة ، ثم حملوا شجن بين أيديهم وخرجوا .

كان مسعود يبكي أيضاً . لم نقترب من القبر ، بل جلسنا على الأرض وعيوننا عليه . ها هوذا أخيراً قد عاد — صامتاً إلى الأبد . لم يعرف أحد شيئاً كافياً عن خيبته . سوى أنها كانت أقوى من الكلام . وظلت خيبة لم يعرف أحد مداها . كل شيء تعملق فجأة ، وفجأة انهار . ولم أكن بعيداً عن الظاهرة . هذا أنا ومسعود ، ولبنى . جميعاً إلا أبا مها .

وعدت إلى التاريخ القصير للشهور التي مضت ، ووصلت إلى القبر . لم أكن بعيداً عن أن أوضع داخله أنا الآخر . لكنني بقيت حياً . مثل مجد انتهيت إلى أن أجمع بين يدي حفنة ذكريات قد لا توازي قيمتها قيمة التراب الذي جمعته أصابع لبنى . رأيت ما حدث وبقيت حياً ، ولم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً . كل الحوادث قصيرة ، وخاصة عمر الانسان .

ها هو يتمدد بين التراب والحجارة الضخمة . وقد انتهى ثلثه العضوي أيضاً . في دمشق وأرى لقاءه الثاني مع العالم ، وفي أفريقيا لقاءه الثالث . لم يوجد الرضى له قيماً ولا سعادة . كان كل شيء ، كل تصور وكل فعل ، كلاماً بكلام . حتى مسعود طلب نقله إلى السويداء هارباً منا جميعاً . كنا آفة كلمات وتصورات ، وسكان بالونات زلهية . لم أكن أريد الموت ، فجميع النهايات مرّت غريبة ؛ لكنها غير قاتلة ، فقط من أجل مزيد من خداع النفس . بعد أيام قليلة تداعى كل شيء كجبل من الملح ، وبقينا في العراء . بعضنا اختطفه الموت ، وبعضنا السجن أو الهجرة . لا أدري كيف تصورتني لبنى اليوم ومجد يثوي تحت حجارة قبره : خيبة أخرى ؟ مروراً عابراً على سطح حياتها الزلق ؟ مجموعة عصبية من الارادات والرغبات تتضخم بفعل الفراغ والحصار ؟ أعرف أن كل هذا ممكن ، وحلم الوحدة قد انفجر . ويقول حبيب : « كان الألماني يعاملها كعشيقة . » لم نستطع شيئاً سوى أننا لم نمت . وبقي لنا الزمن المسرع . لو أننا نعود إلى البداية ، أو نتابع مسيرة ثانية — دوننا كلام هذه المرة — لأمكننا أن نفعل فعلاً ما . ثمة صخرة وصور ماضية ، وجحر لدغنا منه مرة أولى . وغير هذا لم يبق شيء .

بقي أبو مها ، المنتصر الأكبر . لقد جعل معركته الخالدة احتفاظه بها على سريره ، إلا أنه انتصر . وإذا كانت هي مجرد

امرأة شهية فهذا يعني أن العلاقة التي كانت بيننا خطوة نحو الأسفل في استسلامي لرائحة الجنس الوثنية . إذا كان حقاً قد تجمع في عيني جميع حوافر الحيوان الرابض في العروق فرمى على قامتها أوشال دهور ، وقنّع وجهها البغيّ بغلالات التعبير الذهني الذي أطلقته بوجه تاريخي القدر فأية حقيقة هي هذا الانتصاب البشري المتشبّر الذي يجلوني الآن بأهوج العواطف ، باليأس والغيظ والافتعار ؟

أم لعل هذا كله ردود فعل ستمضي يوماً ونفتح نحن أبوابنا ؟ أجل أنها ردود فعل وستمضي يوماً ، ولكن بعد أن تكون اجتازت بنا منتصف الطريق .

• • •

دمشق /٢٨ ايلول /١٩٦١ .

أكتب على عجل قشمة أشياء رهيبة :

في الصباح أيقظتني جارتي على غير العادة . وعندما أفقت سمعتها تصرخ :

— جارنا ، جارنا ، قم . انقلاب عسكري . انفصلت سورية . انضربت الوحدة . جارنا ..

نهضت من سريري وصحت : — ماذا تقولين ؟

فصرخت : — انضربت الوحدة .

لبست ثيابي على عجل . وللتو خرجت إلى الشارع . لحقت بي جارتي صائحة : — لا تغب طويلاً . ارجع خبرنا .

انطلقت في الشارع مفتول الذهـــن . كان كل شيء مضطرباً ومتغيراً . المارة يحدقون إلى وجوه بعضهم بعضاً . وحركة النقل الداخلي متوقفة تماماً . لم أدر أين أمضي . عدوت في عدة اتجاهات ، وفي كل مرة عدت إلى مكاني الأول . من هنا وهناك توافد الناس حتى صاروا جمهوراً . وعند ساحة

الشهداء رأيت عناصر الشرطة تتسلق السلم إلى الجدار وتنزع منه عصي الأعلام المثبتة فيه . وفي ثوان أنهوا عملهم واختفوا.

كان الشارع سائباً : ليس ثمة حكومة ، ورجال الأمن غائبون ، والجنود مفقودون تماماً .

همس أحد الواقفين لي : — انطلقوا من عند « الحميدية »

فالتفت نحوه سائلاً : — من ؟

قال : — ألا تعرف ؟ التجار وأصحاب الشركات ، وبعض المشايخ .

ولم أفهم جيداً فعدت أسأل : خرجوا إلى أين ؟ لماذا ؟

فأجاب متباهياً بمعلوماته : — إلى الشارع . يؤيدون الانفصال . يجب أن نفعل نحن شيئاً .

ولم يتابع حديثه ، إذ تركني ومضى مسرعاً باتجاه الصالحية .

كانت الساعة تقارب العاشرة عندما ظهرت أمام محطة الحجاز طلائع كتلة بشرية تسير ببطء شديد . ثم ظهرت لافتات غير مقروءة .

استدرت ومشيت في الاتجاه الذي انطلق اليه محدثي . بلغت بوابة الصالحية ، وعدد الناس يزداد . كانوا مصفوفين على الرصيف في شبه نظام . تابعت مسيري ، وقد صار صعباً بسبب غزارة الجمهور . عند مبنى المجلس النيابي لمحت

طلائع مظاهرة أخرى ، برزت من فم التواء الشارع . أسرعت إليها ، وحاولت أن أفهم شيئاً من أصواتها الجهيرة . لم تكن مع المتظاهرين لافتات . لكن نفراً منهم اعتلوا ظهور رفاقهم ، وجعلوا يهتفون للمتظاهرين وأصوات هؤلاء تتعالى مرددة الهتافات ..

عرفت أنها مظاهرة مناوئة ، وقد تشكلت عفو اللحظة . ما يقرب من خمسمائة انسان لا يعرفون بعضهم بعضاً إلا على نطاق ضيق ، تجمعوا ، ولم يكونوا في حاجة لابراز هويات شخصية . في المقدمة رأيت عديا وفلاحاً فوقفت معهم . هتفنا وصفقنا بغضب . وكانت الأصوات جادة . وبدا أن المسير توقف ، فالتفتنا لنجد مواطناً يعتلي سور المبنى ويرتجل كلمة مشبوبة . خرج الموظفون من غرفهم ، وأصحاب المحلات ليروا ويسمعوا . عندئذ انتحى بي فلاح وعدي جانب السور وأخذنا نسمع إلى الراديو . كان البيان ذو الرقم /٩ /مشجعاً لفلاح . فاعتبر أن الكارثة على وشك التراجع . وإذ أخبرته بمظاهرة التجار والرأسماليين تركنا مسرعاً إلى الخطيب . تسلق السور إليه ، وقاطع خطابه بهمس ملح في أذنه . وهكذا صاح الخطيب : أيها المواطنون ، أعداء الوحدة من التجار والرأسماليين يتظاهرون الآن عند سينما العباسية . هيا إليهم . لنحتز رؤوسهم . لنمسح بهم الأرض التي يسيرون عليها ...

وعندئذ هدر المتظاهرون .. وقفز هو عن السور . وانطلقوا .

مر بي فلاح مسرعاً يقول : — ماذا فعلتم ، أيها السوريون .. قلت : — ليست هذه فعلة السوريين .

وأسرع ، فيما عدي يحاول اللحاق به ، وأنا أحاول اللحاق بالاثنين .

وصلنا إلى حيث تبدو من بعيد سينما العباسية . لم يكن ثمة أحد ، غير جمهور عادي مبعثر . اختفت اللافتات أيضاً . لكن مظاهرتنا استمرت وتقدمت إلى الجسر . هناك احتشد حولها جمع غفير ، ووقف بينهم خطباء .

تركنا المظاهرة نحن الثلاثة . وسرنا بحذاء النهر . قال عدي : أعتقد أن الأمور ستسوى . لا أصدق أن مثل هذا يمكن أن يحدث ، وفي سورية بالذات .

واستسلمنا للطمأنينة . البيان التاسع أعطانا ثقة ، وشجع أحلامنا على الاعتقاد بأن الوحدة باقية .

في حوالي الساعة الرابعة أخذ الناس يهرعون بتعجل مذعور . استمعنا إلى الراديو وإذا بيان عاشر يذاع . واستوقفنا أحد المواطنين المهرولين فقال لنا : « منع تجول . منع تجول . دبروا حالكم » .

نظرنا إلى بعضنا بعضاً بذهول . حاول فلاح أن يسمع

اذاعات أخرى فوقع على حلب . كان الصوت عنيفاً ومزمجراً. واستطعنا أن نفهم أن انفصالاً آخر قد حدث بين دمشق وحلب ، ان المفاوضات هنا فشلت ، وصار الحكم للقوة المسلحة . جلسنا على الأرض متهدلي الرؤوس ، منفجري الشعور والعقل ، وصار الناس يعبرون بنا فلا يهتم أحد بشي .

قلت لرفيقي : – لنذهب الآن إلى بيت أحدكم . بعد قليل تقفر الشوارع .

نهضنا وأخذنا نسير على امتداد الشوارع . في الطريق ابتعنا بعض حاجيات الطعام . وبعد قليل وصلنا بيت فلاح في «الباب الشرقي» . كان معنا أصدقاء آخرون . وجلسنا جميعنا نسمع اذاعات الراديو .

حتى الثامنة كانت اذاعتا المدينتين في حرب كلامية . ثم صمتت حلب . وفي الثامنة وسبع وثلاثين دقيقة انتشر فوق البلاد صوت دمشق .

عند ذاك انخرط عدي في بكاء مر . وخلال دقائق أخذنا نبكي غضباً ، في الغرفة الموصدة الباب .



رسم الغلاف : حلمي التوني

شرخ في تاريخ طويل

في جسم الليل الكثيف تدوّم دوائر متعاظمة كأنها تبتلع كل العنفوان الذي في العالم ، ثم تستقر على الأفق فوق بركة لا حدود لها . وفي هذه الأيام يخلد متعثر مثلي الى دفتر الصور ويقلب صفحاته . ثمة شهران او ثلاثة ثم ينتهي الصيف . لعلني أنتهي من تقليبه . انه زادي الذي هيأته بالأعصاب والاندفاع والخيبة ، وهو سوف يرافقني في أيما رحلة أضطر اليها .

بين الحين والحين تعبر حادثة أو تمثل صورة فأكف عن الكتابة لأتمعن في براءة تلك الايام المهجورة وفي عنفوانها المزوق .

ماذا يفعل الانسان بعد أن ينهار جدار الله في نفسه ؟ البحث عن ملاذ هو اللوحة الثانية في دفتر الصور ، فما عسى ان تكون اللوحات الاخرى ! !

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقيا : موكيالي ـ بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

الثمن ١٢ ل.ل
او ما يعادلها